

مكتبة الدراسات الأدبية

١٨

على صافي حسين

ابن دقيق العيد

حياته وديوانه

٤٤



دار المغارف بمطز

ابن دقيق العيد

حياته وديوانه

مكتبة الدراسات الأدبية

١٨

ابن دقيق العيد

حياته وديوانه

دراسة في الأدب المصري

بحث تقدم به

على صافي حسين

الحصول على درجة ماجستير آداب جامعة القاهرة قسم اللغة العربية



دار المعارف بمصر

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر - ه شارع ماسيرو - القاهرة

الإهداء

إلى التي جعلت حياتي أملاً بعد يأس ، ونوراً بعد ظلام ،
وفرحاً بعد ترح ، وهناءة بعد حرمان .

إلى التي أذهبت عني الكآبة والحزن ، وأنستني صنوف
الآلام ، وغمرت نفسي بالجلد والحبور ، والبهجة والسرور .
وملأت فراغ قلبي بأجمل الأحلام .

إلى التي عودتني الصبر والجلد ، وعرفتني طريق الكفاح -
طريق الفوز والنجاح .

إلى التي أفاضت عليّ من روحها قوة ومضاء ، وعزيمة
واجتهاداً . ثم إيماناً وطيداً بمستقبل مشرق بسام .

إلى زوجتي المخلصة الوفية أهدي باكورة إنتاجي
العلمي والأدبي .

إليها وحدها أهدي هذا الكتاب .

على صافي حسين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القسم الأول من البحث

تقديم

أرى أن دراسة الأعلام السابقين من أساطين الفكر وأئمة الدين ومن عباقرة فن القول وأرباب البلاغة والبراعة وترجمة حياتهم تهدف أولاً وبالذات إلى إعطاء اللاحقين أو المتأخرين من طلاب المعرفة ورواد الأدب صوراً ناطقة معبرة تمثل — في مطابقة تصديق على قدر جهد الباحث — شخصيات أولئك المتقدمين من الجهابذة الناقدين والعلماء المحققين والشعراء المفلّحين والكتاب الضالعين والخطباء اللسن المصاقع . فهي — أعني تلك الصورة المتحصلة من دراسة أولئك الأفذاذ — تجسم فيما تحتوى عليه من ملامح وقسمات عواطفهم وإحساساتهم وتبين أهواءهم ، وتفصل آراءهم ، وتكشف عن عقليّاتهم وتبرز إلى حيز الوجود الفكري والثقافي طاقاتهم العلمية وملكاتهم الفنية . فينضاف بذلك لبنة أو لبنات جديدة في بناء العلم وصرح الفن ودنيا الأدب . وبالتالي يفيد من ذلك فائدة مرجوة طلاب المعارف وعشاق الآداب . وكل ذلك لا يجيء على الوجه المرضي ولا يتأتى منه الغرض إلا إذا كانت دراسة العالم أو الأديب وترجمة حياته قائمة على التدبر والتأمل والفهم الصحيح .

ونحن إذا أردنا أن تكون أفهامنا لأولئك الأشخاص أدنى إلى الصحة وأقرب إلى الصواب ، وأحكامنا عليهم أدخل في الإنصاف والسداد فإن علينا أولاً أن نجتمع ما خلفوه من نصوص وأقوال حتى نستوعب كل ما أمكننا أن نصل إليه من ذلك أو نقف عليه ثم نحقق تلك النصوص ونثبت من صحة نسبتها إلى قائلها . وبعد ذلك ننظر بعين التحقق والتثبت والنقد والتمحيص فيما قيل في حق موضوع الدرس أو الترجمة من أحكام وآراء من الذين هم عاصروه وخالطوه أو الذين هم ترجموا له من الذين لم يلقوه ولا رأوه وإنما سمعوا به وقرءوا عنه .

وأخيراً وليس آخراً نتفهم العصر الذى كان يعيش فيه المترجم له أو من اختيار موضوعاً للبحث العلمى والتحقيق الأدبى كالذى نحن بصددده فى هذا البحث من دراستنا لابن دقيق العيد .

ولست أعنى بالعصر الزمان أو الشهور والأيام وإنما أقصد تلك العناصر والمقومات التى تتألف منها حياة الجماعة البشرية وهى الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . وإنما حين ندرس العصر على هذا الوجه إنما ندرسه لأمرين هما أولاً : كون الإنسان كائناً حياً يتفاعل فى حياته الفكرية والجسمية مع الوسط الذى يعيش فيه . ولست أريد أن أنساق فى هذه المسألة وراء أولئك العلماء الذين بالغوا فى تصويرهم لمدى ارتباط الإنسان ببيئته ووسطه إذ زعموا أنه ليس إلا أثراً أو نتيجة لتفاعل عناصر البيئة المادية والمعنوية . وإنما أقول فقط إن الإنسان يتأثر بالغ التأثير بما يحدث أو يقع حوله من أحداث وما يكتنف وجوده من مظاهر الحياة الإنسانية وأوضاع الجماعة البشرية ثم هو يتأثر إلى حد كبير بما تكون عليه حال أرض الوطن الذى يعيش فيه من سهولة وانسباط يجعل الحياة فيها سهلة ميسورة . أو وعورة وصعوبة تجعل الحركة والتنقل بين بقاعها عسيرة مضنية . وذلك إذا ما كانت هذه الأرض أو تلك البلاد تكثر فيها الجبال والأودية أو الصحارى والقفار . وكذلك يكون تأثيره بالغاً بطبيعة الجو أو المناخ الذى يظله فى ذلك الموطن إذ لا يستطيع ذو عقل أن ينكر ما لبرودة الجو أو حرارته من تأثير على الأجسام والأبدان والنفوس والميول والرغبات والسلوك والأخلاق .

وأما السبب الثانى الذى من أجله نكلف ونعنى إلى حد كبير بدراسة عصر ذلك الشخص المقصود بالبحث أو الترجمة ، فهو أن الإنسان معقد فى حياته وتصرفاته . وعلماء النفس يعترفون بهذا ويقولونه . فهو — أعنى الإنسان — كثيراً ما يقول بلسانه ما ليس فى قلبه . ومن هنا كان لعصر الشاعر أو الأديب دخل كبير فى تفسير ما قد يعترض الباحث فى تفهمه شخصية من تصدى له بالدراسة من مشاكل منشؤها ما قد يبدو من تناقض فى أقواله وأشعاره

أو سلوكه وأفعاله . وبالجمله فإن على الباحث الذى يريد أن يخرج للناس صورة صادقة تنطبق تمام الانطباق على ذلك الشاعر أو الأديب الذى يختاره موضوعاً للبحث والدراسة وبخاصة إذا أراد أن يقدم ذلك البحث إلى إحدى الجامعات كرسالة يرجو أن يمنح بمقتضاها درجة علمية فإن عليه والأمر كذلك أن يجمع كل ما وصلت إليه يده من نصوص وأقوال تنسب إلى الشخص الذى هو موضوع البحث والدراسة ثم يحقق تلك النصوص ويتثبت من صحة نسبتها إليه . وبعد ذلك يتبين الظروف والأحوال التى قيل فيها ذلك النص ثم ينظر فيما يقال فى حق ذلك الشاعر أو الأديب من آراء أو أحكام تكون له وقد تكون عليه : سواء أكان أصحاب تلك الأحكام أو الآراء ممن عاصروه وقدر لهم لقياه والأخذ عنه أم لم يقدر لهم أن يلقوه ولكن سمعوا به وقرعوا عنه . أو كان أصحاب تلك الآراء والأحكام ممن جاءوا بعده فترجموا له وأرخوه . ولكن الفريق الأول فى رأي أصح رأياً وأصدق حديثاً .

ثم بعد ذلك تأتى أهمية العصر ومكانته بالنسبة للمنهج العلمى الصحيح الذى يرسمه الباحث فى تحقيق شخصية موضوع الرسالة . وإن كان العصر يحىء متقدماً فى ترتيب الرسالة وتبويبها فى أكثر الأحيان فإنه ليس معنى ذلك أن العصر يحتل بالجدارة والاستحقاق من الوجهة المنهجية مكان الصدارة من البحث أو الرسالة إنما هو فى الواقع ونفس الأمر لمجرد الترتيب والتنظيم فقط . فتقديم العصر إذن فيما أعتقد سواء أكان ذلك فى رسالتى أو رسائل الآخرين ترتيب شكلى أو ظاهرى . وبناء على هذا يكون العصر متقدماً فى الرسالة أو الكتاب من الوجهة المنهجية لفظاً متأخراً معنى ورتبة على حد تعبير النحاة .

وقد التزمت بكل دقة وأمانة ذلك المنهج فى هذه الرسالة فجمعت النصوص وحققتها ونظرت فى كل ما قيل فى شأن ابن دقيق العيد ممن عاصروه أو لم يعاصروه وبعد ذلك تعرفت أوضاع الحياة التى كانت تسود العصر الذى عاش فيه ابن دقيق العيد . وبناء عليه فقد جاء القسم الأول من هذه الرسالة وهو الذى تناولت فيه بالبحث والتحقيق حياة ابن دقيق العيد وتفهم جوانبها فى أربعة

فصول . الفصل الأول فى عصر ابن دقيق العيد وقد تكلمت فيه بإيجاز لا تفريط فيه عن مقومات ذلك العصر وعناصره وهى كما هو معلوم بالضرورة لدى جميع الباحثين والمحققين أربع ، الجانب الأول . الظروف السياسية . الثانى — الأحوال الاقتصادية . الثالث الأوضاع الاجتماعية . الرابع — الحياة الثقافية .

وفى الفصل الثانى مولد ابن دقيق العيد ونسبه ووصف حياته بوجه عام . وفى الفصل الثالث أوضحت شخصيته العلمية والفقهية ، وخلصت فيه إلى القول بأنه كان ضالماً فى مختلف العلوم اللغوية والشرعية ، وأنه كان حاذقاً فى المعقول والمنقول وذلك هو ما ينبغى توفره فى الأئمة المجتهدين . الأمر الذى حملنى على القول بأن ابن دقيق العيد إمام مجتهد لا فقيه مقلد . ولم أكن منفرداً فى هذا رأى وإنما سبقنى إليه العلامة السيوطى إذ ذكره فى كتابه^(١) « حسن المحاضرة » ضمن من كانوا فى مصر من الأئمة المجتهدين ولم يذكره فى عداد الفقهاء المقلدين .

وفى الفصل الرابع تكلمت عن ابن دقيق العيد الأديب الشاعر وانتهيت فيه بعد تتبع أشعاره وأقوال السابقين فيه — إلى القول بأنه كان شاعراً مجيداً وكاتباً بارعاً وخطيباً بليغاً وبينت الفنون التى مارسها وأنشأ فيها القريض .

الفصل الأول

عصر ابن دقيق العيد

١ - الجانب السياسى

لما كان ابن دقيق العيد قد ولد سنة خمس وعشرين وستمائة ومات سنة اثنتين وسبعمائة هجرية . أى أنه ولد ودولة الأيوبيين لا تزال مسيطرة على ربوع مصر والشام ، ومات ودولة المماليك فى أوج عظمتها وعنقوان قوتها . لما كان الأمر كذلك كان الذى يعنينا فى بحثنا هذا هى تلك الفترة التى عاشها شيخنا تقي الدين وهى تنتظم أخريات الدولة الأيوبية وأوائل عصر المماليك . هذا والمعلوم من التاريخ أن صلاح الدين الأيوبي هو الذى أقام فى مصر دولة الأيوبيين على أنقاض دولة الفاطميين ثم ورث عن السلطان نور الدين محمود ابن زنكى بلاد الشام . وهو الذى فتح عكا وانتصر فى حطين ، واستعاد بيت المقدس من أيدي الصليبيين . فلما مات سنة تسع وثمانين وخمسمائة آل الأمر من بعده فى مصر والشام والجزيرة وإقليم ديار بكر وبلاد اليمن إلى أولاده^(١) وإخوته نذكر منهم أهمهم وأعظمهم شأنًا الملك العزيز أبا الفتح عثمان بن صلاح الدين فى مصر والملك الأفضل السلطان نور الدين على النجل الأكبر لصلاح الدين فى دمشق وما حولها والظاهر غازى فى حلب وأعمالها . والعاقل أبا بكر أخا صلاح الدين فى الكرك والشوبك وبلاد جعفر وبلداناً كثيرة بشط الفرات . والسلطان ظهير الدين سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخا السلطان صلاح الدين فى اليمن بمعاقله ومخاليقه .

هذا وقد وصف ابن كثير أحوال الدولة الأيوبية بعيد وفاة صلاح الدين^(٢) بكلمة موجزة جامعة فقال^(٣) .

(١) ابن كثير - البداية والنهاية ج ١٣ ص ٦ .

(٢) نفس المرجع ج ١٣ ص ٦ .

« ثم شرعت الأمور بعد موت صلاح الدين تضطرب وتختلف في جميع هذه الممالك (يعني بلاد مصر والشام والشرق وإقليم ديار بكر والجزيرة جميعاً) حتى آل الأمر واستقرت الممالك واجتمعت الكلمة على الملك العادل أبي بكر صلاح الدين وصارت المملكة في أولاده » . ومعنى هذا أن حكم مصر والشام انتقل من صلاح الدين وبنيه إلى أخيه العادل أبي بكر بن أيوب . فلما مات آل الأمر إلى أولاده . وقد كان أولاد العادل هذا في مبدأ أمرهم أكثر اتفاقاً^(١) فيما بينهم من أبناء صلاح الدين . لكنهم ما لبثوا أن تنازعوا^(٢) واختصموا وقاتل بعضهم بعضاً^(٣) . الأمر الذي أودى بسلطانهم وجعل الأمر يخرج منهم إلى أيدي المماليك . وكان ذلك سنة ثمان وأربعين وستمائة ، حيث كان السلطان طورانشاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب قد أساء معاملة بعض المماليك وقسى على أرملة أبيه شجرة الدر ، وهي التي أخفت موت الملك الصالح لتحفظ^(٤) الملك لابنه طورانشاه الذي كان وقت موت أبيه بحصن كيفاً^(٥) في بلاد الموصل . فلما تسلطن طورانشاه^(٦) وظن أن الأمر قد استتب له اضطهد كما أسلفت جماعة من أمراء المماليك وأساء معاملة شجرة الدر وهي التي حفظت له سلطان أبيه ، فغضب لذلك أكثر المماليك واتفق رأيهم على التخلص منه وانتهى الأمر بقتله .

وقع ذلك كله^(٧) بعد أن أبلى طورانشاه بلاء حسناً وبذل جهداً مشكوراً في قتال الفرنجة مما كان له أكبر الأثر في انتصار المصريين وهزيمة الصليبيين هزيمة نكراء ، فسر بذلك المسلمون وابتهجوا جميعاً . وفي تلك المعركة المشرفة أسر

(١) ابن الأثير - الكامل ج ١٢ ص ٢٣٠ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٣٠ .

(٣) السلوك للمقرئ ج ١ ص ٢٧٥ .

(٤) المرجع السابق ج ١ ص ٣٤٣ .

(٥) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٤ .

(٦) المرجع السابق ج ٦ ص ٣٧٠ .

(٧) المرجع السابق ج ٦ ص ٣٦٤ - ٣٧١ .

طورانشاه لويس التاسع ملك فرنسا وسجنه في دار ابن لقمان وجعله في السلاسل والقيود ووكّل به الطواشي صبيحا . وفي ذلك يقول الشاعر المصري ردّا على الملك لويس هذا حين أراد أن يعود إلى مهاجمة مصر فيما بعد . وكان قد أرسل إلى ممالك مصر رسالة يسبهم فيها ويتوعدهم . قال الشاعر في ذلك قصيدة جاء فيها قوله ^(١) :

دار ابن لقمان على حالها والقيّد باق والطواشي صبيح

وبعد قتل طورانشاه بايع المماليك شجرة الدر بالسلطنة ، وبقيت تسوس الدولة وتدير دفة الحكم في مصر زهاء ثمانين يوماً . ولولا أن أنكر ذلك خليفة بغداد على أمراء مصر في خطاب أرسله إليهم يلومهم فيه على توليتهم أمر المسلمين امرأة ، وقال فيما قال لهم فيه : « إن كانت الرجال قد عدت عندكم فأعلمونا حتى نسير لكم رجلاً » . فلولا ذلك لبقيت شجرة الدر سلطنة إلى ما شاء الله .

ومهما يكن من أمر فقد خلعت ^(٢) شجرة الدر نفسها وتزوجت بعز الدين أيك كبير أمراء المماليك البحرية الذين اشتراهم الملك الصالح نجم الدين أيوب وعددهم ألف وأسكنهم جزيرة الروضة ومن هنا عرفوا بالبحرية نسبة إلى بحر النيل . كما كانوا يدعون أيضاً باسم المماليك الصالحية نسبة إلى سيدهم الملك الصالح نجم الدين أيوب .

وقد بايع المماليك عز الدين أيك بالسلطنة وتلقب بالملك المعز . وبذلك بدأ عصر المماليك . وكان ذلك كله سنة ثمان وأربعين وستمائة . وابن دقيق العيد في الثالثة والعشرين من عمره . أعنى أنه قد أدرك من عمر الدولة الأيوبية فترة كانت على قصرها حافلة بالأحداث والتطورات ففيها كثرت الحروب بين المسلمين والصليبيين في مصر والشام . إذ كان الصليبيون قد عاودهم الطمع في البلاد الإسلامية لما رأوه من تنازع وتخاصم بين الأيوبيين من جهة وبينهم

(١) ابن اياس - تاريخ مصر ج ١ ص ٨٧ وانظر ابن تغرى بردى - النجوم الزاهرة

ج ٦ ص ٣٦٩ .

(٢) ابن تغرى بردى - النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٧٤ .

وبين أعقاب نور الدين زنكى فى الشرق وبلاد الموصل من جهة أخرى . كما أن التتار أيضاً طمعوا فى بلاد المسلمين وشجعهم على ذلك ما رأوا من ضعف الدولة الإسلامية وتفرق أقاليمها واهتمام كل سلطان أو أمير بما هو فى حوزته دون غيره من أرض الإسلام . وأكثر من هذا فقد كان أولئك الأمراء والسلاطين — كما أسلفت — يقاتل بعضهم بعضاً . الأمر الذى أضعف شوكة المسلمين وأطمع فيهم أعداءهم من الفرنجة والروم والتتار . وأول احتكاك وقع بين الأيوبيين والتتار كان فى بلاد الجزيرة سنة ثمان وعشرين وستمائة^(١) .

وبالجملة فقد كانت هذه الفترة التى شهدها ابن دقيق العيد من أيام الأيوبيين فترة عصيبة اضطربت فيها الأمور السياسية والعسكرية وتفاقت فيها الحروب وكثرت المعارك واشتدت الحصومات واتسع النزاع بين الملوك والسلاطين فى مصر والشام .

وأكثر من هذا فقد كان السلطان يقتل ابن عمه وأخاه . كالذى وقع بين الملك الصالح نجم الدين أيوب وأخيه الملك العادل الصغير ، فقد كان العادل يريد أن يقتل أخاه الصالح ليطمئن على ملكه ولكنه لم يستطع لأن صاحب الكرك الملك الناصر داود^(٢) الذى كان قد سجن الصالح نجم الدين أيوب لم يمكن العادل الصغير من ذلك . فلما نصر الجند الصالح نجم الدين أيوب على أخيه العادل قبض الصالح عليه وسجنه ثم أرسل إليه من قتله فى سجنه . وأخيراً انتهت دولة الأيوبيين على تلك الصورة البشعة المؤسفة الأليمة . حيث قتل ممالك الصالح ابنه طورانشاه وتركوا جسده فى العراء مدة حتى تشفع فى دفنه رسول خليفة بغداد^(٣) . وبايعوا بعده أرملة أبيه شجرة الدر . وهى وإن كانت من الممالك إلا أن بعض المؤرخين يعدون مدة حكمها استمراراً للدولة الأيوبيين . والبعض

(١) ابن كثير — البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٢٨ .

(٢) المقرئى — السلوك ج ١ ص ٢٩٠ .

(٣) ابن تفرى بردى ، — النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧١ .

الآخر بعدها بداية عصر المماليك . وسواء كانت استمراراً للأيوبيين أو بداية للمماليك فإن الطريف في ذلك هو أن امرأة كانت مملوكة حكمت المسلمين وتولت أمرهم مدة ثلاثة أشهر على وجه التقريب . وفي مصر من كان فيها من أئمة الدين وعلماء الفقه وحفاظ الحديث ولم يبد أحد منهم أى اعتراض على تولية شجرة الدر أمر المسلمين .

أوائل عصر المماليك

ومهما يكن من شيء فإن المماليك قد بايعوا بعد أن خلعت شجرة الدر نفسها عز الدين أيبك التركمانى وتلقب بالملك المعز ولكن شجرة الدر — التى كانت قد تزوجت به — لم تلبث أن حنقت عليه بسبب اهتمامه بغيرها من النساء فعملت على قتله فى الحمام^(١) وأعانها على ذلك بعض الخدم . قال الأمر من بعده لابنه على وكان صغير السن فجعلت أمور الدولة إلى سيف الدين قطز . أعنى أنه أصبح وصياً على العرش حسب تعبير عصرنا الحاضر . لكنه لم يلبث أن اغتصب السلطنة لنفسه .

وسيف الدين قطز هذا هو الذى انتصر على التتار وهزم جموعهم فى معركة عين جالوت ولولا أن نصر الله قطز وجنوده فى هذه المعركة لثمت للتتار الغلبة على مصر والشام ولعاثوا فى الأرض فساد كما فعلوا من قبل فى بغداد . ومعنى هذا أن سيف الدين قطز يستحق الشكر والثناء من المسلمين أجمعين . كما أنه أصبح بعد تلك المعركة أهلاً للسلطنة ولكن الظاهر يبهرس قد وثب عليه وهو فى طريقه إلى القاهرة وقتله من غير ذنب اقترفه . ثم تبوأ السلطنة مكانه فاستاء من ذلك المصريون واغتموا^(٢) غير أن الظاهر لم يلبث أن ظفر بحب الشعب وتأيدته إذ أعاد إلى الوجود سنة تسع وخمسين وسبعمائة الخلافة العباسية بعد أن قضى عليها

(١) ابن تغرى بردى — النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٣ .

(٢) المقرئى — السلوك ج ١ ص ٤٣٧ .

التتار باستيلائهم على بغداد وقتلهم الخليفة المستعصم بالله سنة ست وخمسين وسمائة وبذلك يكون الظاهر ببيرس قد أضنى على حكمه وحكم من جاء بعده الصبغة الشرعية ومن قبل كان المماليك يعتبرون غاصبين السلطة من بنى أيوب الذين هم كانوا يستمدون شرعية حكمهم من الخليفة العباسي في بغداد . وبالرغم من وجود تلك الخلافة بين ظهرائي المماليك فقد ظل حال الملك وأمر السلطان على ما كان عليه من قبل . مملوك يقتل سيده وأستاذه ويتولى مكانه فلا يلبث أن يثب عليه هو أيضاً مماليكه والمقربون إليه فيقتلونه أو يخلعونهم ويولون غيره . وهلم جرا .

والسبب في ذلك يرجع فيما أعتقد إلى أن المماليك لم يكونوا يقرون باستحقاق أى إنسان غيرهم بالولاية من الوجهة الشرعية وإنما كانوا يرون أن السلطنة أو ولاية أمر المسلمين هي حق لكل من توفرت له القوة وواتته الفرصة أو هيأت له الظروف الجلوس على أريكة الملك وتبوء السلطان . ومعنى هذا أن المماليك كانوا يتنازعون الولاية فيما بينهم كأسلافهم الأيوبيين . غير أنه لم يكن ليؤدى إلى ضعف الدولة وكسر شركتها وتمكين الأعداء من التغلب عليها كما كانت الحال في عهد بنى أيوب . لا ، بل إن دولة المماليك الأتراك كانت رغم تشاحن رؤسائها وتنازع أمرائها قوية مرهوبة ذات شوكة وسلطان تهزم كثيراً ولا تهزم إلا قليلاً فهي بحق دولة قوة وبأس وغلبة . هذا وقد كان عصر المماليك استمراراً للعصر الأيوبي من حيث الحرب والقتال فقد ظلت الحروب الصليبية والتتارية طيلة هذا العصر على أشدها .

وبالحملة فإن المماليك قد أمضوا أيامهم في محاربة الصليبيين والتتار وقد أبلوا بلاء حسناً فلولا المماليك لم للمغول التغلب على جميع البقاع الإسلامية في مصر والشام وشبه جزيرة العرب . فالمماليك هم الذين انتهت في أيامهم الحروب الصليبية ، وهم الذين اضطروا سلاطين التتار إلى اعتناق الإسلام . ومما نلاحظه أيضاً من وجوه الفرق بين أخريات العصر الأيوبي وأوائل عصر المماليك أن

الأيوبيين كانوا يتركون محاربة الصليبيين ويشغلون بقتال بعضهم بعضاً . بل إن منهم من عقد صلحاً مع الصليبيين ليتفرغ لقتال ابن عمه وأخيه كما فعل الكامل بن العادل إذ أعطى بيت المقدس للفرنجة صلحاً^(١) كي يستطيع أخذ دمشق من ابن عمه الملك داود بن الملك المعظم . أما المماليك فإنهم كانوا يتناسون^(٢) - عند لقاء العدو - ما قد يكون بينهم من ضغائن وأحقاد ومخالفات ومنازعات حتى يفرغوا من قتال عدوهم . فإذا قفلوا راجعين إلى مصر وثب بعض الأمراء المضغنين على السلطان فقتلوه ولوا قاتله^(٣) مكانه كما حدث مع المظفر قطز عقب انتصاره على التتار في موقعة عين جالوت المشهورة على ما سبق أن ذكرناه ، وقصارى القول في هذا العصر - عصر شيخنا تقي الدين - هو أنه كان مليئاً بالتقلبات والتطورات السياسية والدولية . وقد شهد بنفسه عن كثب أحداثاً جساماً ذات شأن عظيم وخطر كبير أثناء توليه القضاء . فقد حدث على سبيل المثال أن وثب حسام الدين لاجين وأنصاره على السلطان كتبغا المنصوري وهم في طريقهم إلى مصر فأرادوا قتله فلما علم بذلك الملك العادل كتبغا رجع هارباً إلى دمشق . وتمت الولاية لحسام الدين لاجين ولكنه لم يلبث أن قتل هو ونائب سلطنته منكوتمر سنة ثمان وتسعين وستمائة هجرية وفي سنة ٦٩٩ هـ خرج السلطان الناصر بن قلاوون إلى الشام لقتال التتار . وكان معه في هذه الحملة القضاة الأربعة ومن بينهم الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد^(٤) وقد عاد عسكر الناصر إلى مصر منهزمين . ومما يجدر ذكره أن الأمير سلار ويبرس الجاشنكير أرادوا أن يجمعوا من الشعب مالا باسم السلطان لتقوية العسكر فأففى بجواز ذلك ابن الحشاب . أما ابن دقيق العيد فلم يجزه وامتنع^(٥) عن الإفتاء لأنه كان يعلم أن الأمراء وأرباب الدولة يستحوذون على المال والشعب في حالة اقتصادية سيئة .

(١) ابن الأثير - الكامل ج ١٢ ص ٣١٤ .

(٢) المقرئى - السلوك ج ١ ص ٨٨٤ .

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٤٣٦ .

(٤) ابن إياس - بدائع الزهور ج ١ ص ١٤٠ .

(٥) المقرئى - السلوك ج ١ ص ٨٩٨ .

وأياً ما كان فإن ابن دقيق العيد قد تأثر بهذه الأحداث وغيرها مما وقع في أثناء توليه القضاء تأثراً مباشراً في أحكامه وأقواله ومواقفه من الأمراء والسلاطين . على ما سوف نبسطه في الفصل الثاني .

مكانة مصر وعلاقتها الخارجية

هذا وخير شيء نختم به كلامنا عن الناحية السياسية في عصر ابن دقيق العيد أن نتحدث عن مكانة مصر السياسية وعلاقاتها الخارجية بدول الشرق الأوسط ذات الشأن في ذلك العصر . وذلك على سبيل الإيجاز والاختصار فأقول : كانت مصر طيلة عصر الأيوبيين والمماليك تقوم بدور الزعامة والقيادة للعرب والمسلمين ولا غرو فإن صلاح الدين الأيوبي الذي أقام دولته في مصر على أنقاض الفاطميين قد بسط سلطانه على مصر والشام وديار بكر والموصل حتى الفرات ؛ أعنى أنه جمع هذه الأقاليم وتلك الأقطار تحت قيادة واحدة كي يستطيع المسلمون تحت قيادته أن يردوا عما بقى في أيديهم من البلدان عدوان الفرنجة وغارات الصليبيين وأن يستردوا ما كان الصليبيون قد أخذوه من بلدان المسلمين ، وأقاموا فيها دويلات وإمارات كعكا والكرك وبيت المقدس وعسقلان وصور وغير ذلك من مدن الشام .

ويذكر أستاذنا الدكتور محمد كامل حسين في كتابه « دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين »^(١) أن فكرة جمع كلمة المسلمين وتوحيد جيوشهم تحت قيادة موحدة مصدرها السلطان نور الدين محمود بن زنكي غير أنها لم تتحقق بالفعل إلا على يد صلاح الدين الذي أضحي بفضله ذلك رمزاً للبطولة ومثلاً يحتذى في لم الشعث وجمع الصفوف وإثارة الشعور . بالقومية في العواطف والنفوس .

هذا على أن أمور الدولة اضطربت بعد وفاة صلاح الدين وضعفت شوكتها

(١) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ص ٨٦ - ٨٧ .

وعاد الصليبيون إلى مهاجمة مصر واحتلال كثير من أرض الشام كيفاً وعكاً وصور وغير ذلك كثير وذلك بسبب اختلاف أبناء صلاح الدين وتنازعهم الأمر فيما بينهم، غير أن الأحوال لم تلبث أن عادت إلى شيء من الهدوء والاستقرار واستعادت دولة الأيوبيين كثيراً مما كان لها في عصر صلاح الدين من قوة وهيبة وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف وذلك بفضل جهود الملك العادل أبي بكر أخى صلاح الدين الذى ولى السلطنة في مصر بعد السلطان العزيز عثمان بن صلاح الدين؛ فقد اقتنى العادل أثر أخيه صلاح الدين في جمع الشمل وتوحيد الكلمة حتى أصبحت مملكته تمتد من أقصى بلاد مصر واليمن والشام والجزيرة إلى همدان كلها^(١).

هذا ويذكر أبو المحاسن في كتابه النجوم الزاهرة^(٢) أن الكامل سلطان مصر مات بقلعة دمشق سنة ٦٣٥ هـ وكان نائبه على الشرق وإقليم ديار بكر ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب، ونائبه على مصر ابنه الملك العادل أبا بكر.. وهذا يعنى أن مصر والشام وما كان يسمى بالجزيرة وإقليم ديار بكر وهى الآن في شمالى العراق كانت تكون جميعاً دولة واحدة. وكذلك ظلت مصر والشام والجزيرة تحت سلطان واحد في أيام الصالح نجم الدين أيوب إذ يذكر المؤرخون ومن بينهم ابن كثير أن الملك الصالح ترك دمشق إلى القاهرة في المحرم سنة ٦٤٧ هـ ودخل دمشق بعده نائباً عنه في شهر صفر جمال الدين ابن يغمور وكان ابنه طورانشاه وقتذاك نائبه على حصن كيفا ببلاد الموصل^(٣).

وفي عصر المماليك أصبحت مصر نقطة انطلاق القومية الإسلامية ومحط أنظار المسلمين أجمعين إذ جعلوا يفدون إليها من كل فج وصوب علماء وشعراء وأمراء إذ سقطت بغداد في أيدي التتار وقتل آخر خلفاء العباسيين المستعصم بالله آخر خلفاء بغداد. الأمر الذى جعل المسلمين يلتفون حول سلطان مصر

(١) ابن كثير - البداية والنهاية ج ١٣ ص ٦٩ .

(٢) ج ٦ ص ٣٠٣ .

(٣) ابن كثير - البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٧٧ .

ليستطيعوا الوقوف في وجه التتار وقد تم لهم ذلك في عصر هؤلاء المماليك . وكان أول نصر ذى بال - أحرزه المسلمون - على التتار هو انتصارهم في واقعة عين جالوت بقيادة الملك المظفر سيف الدين قطز سنة ٦٥٨ هـ^(١) . والقصد من هذا أن نقول إن البلاد العربية المجاورة لمصر قد أصبحت تدين لسلطان مصر كما كانت من قبل في عهد صلاح الدين الأيوبي وأخيه العادل بالطاعة والولاء أى أن تلك البلاد جميعاً قد انضوت في وحدة متماسكة . تحت لواء واحد هو لواء السلطان في مصر وأصبحت مصر حاضرة هذا العالم العربى ومقر خليفة الوقت على حد تعبير ابن كثير وسلطان الإسلام^(٢) . ففى أيام الظاهر امتد سلطان مصر إلى بلاد النوبة وبرقة وجميع ربوع الشام والحجاز واليمن وقد قال فيه بعض الأدباء .

تدبر الملك من مصر إلى يمن إلى العراق وأرض الروم والنوب^(٣)

وقد جاء فى تقليد الخليفة للظاهر بالسلطنة ما نصه « وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع ويعترف أنه لولا اهتمامك لاتسع الحرق على الراقع وقد قللك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار البكرية والحجازية واليمنية والفراتية^(٤) . » ومعنى هذا أن البلاد العربية فى الشرق الأوسط كانت تؤلف دولة واحدة عاصمتها القاهرة وهى دار خليفة الوقت وسلطان الإسلام . وفى أيام الناصر محمد بن قلاوون أصبحت شبه جزيرة العرب بجميع ما فيها من أقاليم وأقطار كاليمن ونجد والحجاز والحسا والطائف منصوية تحت لواء سلطان مصر وكذلك جميع الأقطار الشامية وبلاد الروم وجبال الأكراد وحصن كيفا وبغداد وغيرها من بلاد الشرق^(٥) . وإذن فيمكننا أن نقول إن القومية العربية التى استيقظت فى عصرنا الحاضر بفضل ما بذله السيد الرئيس جمال عبد الناصر من جهود مشكورة موفقة فى سبيل بعث تلك القومية وإضرام الشعور بها فى نفوس العرب فى شتى ديارهم ومختلف أقطارهم . أقول

(١) المصدر السابق ج ١٣ ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

(٢) المصدر السابق ج ١٣ ص ٢٦١ .

(٣) المقرئى - السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٣٨ .

(٤) المقرئى - السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٥٤ .

(٥) المصدر السابق ج ٢ ق ٢ ص ٥٣٣ .

إنها وإن كانت جديدة في ثوبها إلا أنها قديمة في حقيقتها إذ كانت هذه البلاد التي تسعى وتعمل بل ونأمل من كل قلوبنا أن تتضامن وتتكاتف وتتحد مجموعها تحت لواء واحد - كانت كما هو ثابت من التاريخ وواقع الحياة الماضية متضامنة متآلفة يشعر كل فرد من أهل أى من تلك البلاد أن جميع هذه الأقطار من مصر والحجاز والعراق واليمن والشام بلده ودولتها دولته وسلطانها سلطانها ، فهو إن كان مصرياً ثم انتقل إلى الشام لا يحس بأنه غريب عن بلده أو انتقل إلى مدينة غير مدينته وإنما شعوره بأنه في بلده وموطنه ، ولا غرو فالتقاليد واحدة والعادات واحدة والسلطان واحد ونظام الحكم واحد والشعور بالآلام والأفراح أيضاً واحد .

الجانب الاقتصادي

وبعد هذا العرض الموجز للأمر السياسي والدولية في عصر ابن دقيق العيد أعرض أيضاً في إيجاز دون تفريط إلى الأحوال الاقتصادية فأقول : كانت أمور المعيشة ووسائل الحياة في هذه الفترة عصيبة لكثرة الحروب التي كانت تقع بين المسلمين والصليبيين والتتار من جهة ، وبين المسلمين بعضهم بعضاً على ما قدمت من جهة أخرى . ولكثرة الأوبئة^(١) والأمراض الفتاكة التي كثيراً ما منى بها المسلمون خلال تلك الفترة في مصر والشام . أضف إلى ذلك ما كان يرتكبه الأمراء وأصحاب الشأن في الدولة من ظلم الناس واحتكار الأموال^(٢) وتزييفها والتلاعب بها والاستيلاء بالقوة والبطش على ما تنتجه أرض الفلاحين والزراع من مأكولات ، وكثرة الضرائب على الأفراد والعقارات^(٣) وأخيراً إجداب الأرض بسبب انخفاض منسوب النيل . وذلك كثيراً ما كان يقع ولكن على تفاوت في حالات الجذب . فتارة يكون محتملاً

(١) ابن اياس - تاريخ مصر ج ١ ص ١٠٨ ، السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٠٩ .

(٢) المقرئى - إغاثة الأمة بكشف الغمة ص ٧٠ - ٧١ .

(٣) المقرئى - السلوك ج ١ ص ٤٣٧ ، ٩٠٦ .

وضرره طفيف كالذى حدث فى سنة ٦٢٧ هـ^(١) . سنة ٦٤٣ هـ^(٢) وسنة ٦٦١ هـ^(٣) وغيرها من ضيق فى العيش وارتفاع فى الأسعار إذ لم يكن هناك مجاعة عامة وإنما كان فقر وإقلال . ولهذا فلم يعد المقرئى جدد هاتيك السنين ضمن المجاعات التى ذكرها فى كتاب « إغاثة الأمة بكشف الغمة » وتارة أخرى يشتد الجدد ويعم القحط وينخفض إلى حد كبير منسوب ماء النيل ويكثر الجراد وتأكل الدودة ما نبت من زرع فى بعض أجزاء الأرض .

وبالجملة فقد كثر فى هذه الفترة الفقر واشتدت الحفاصة ، وعظم الكرب وجاع الناس فى أكثر الأحيان حتى أكلوا الميتة واستمروا لحى الآدميين^(٤) وقد استفحل - بسبب ذلك الجوع وتلك الفاقة التى سادت أكثر سنى هذا العصر - أمر اللصوص وعظم خطرهم إلى درجة أنهم لم يتورعوا عن نهب قبور الصالحين ومشاهد آل البيت . وشاهد ذلك ما رواه المقرئى فى كتاب السلوك إذ قال ما نصه^(٥) :

« نزل خمس نفر فى الليل من الطاقات الزجاج إلى المشهد النفيسى وأخذوا من فوق القبر ستة عشر قنديلا من فضة فقبض عليهم من الفيوم وأحضروا فاعترف أحدهم بأنه هو الذى نزل من طاقات القبة الزجاج وأخذ القناديل وبرأ بقية أصحابه فشنق تجاه المشهد وترك مدة متطاولة على الحشب حتى صار عظاماً » .

هذا وخير شىء يصور لنا مدى ما وصل إليه حال الناس فى ذلك العصر « عصر ابن دقيق العيد » من الفقر والجوع وضنك العيش ما ذكره ابن إياس فى وصفه حوادث عام خمس وتسعين وسبعمائة ؛ وإليك النص قال^(٦) :

-
- (١) المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ٢٤٠ .
 (٢) ابن تغرى بردى - النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٥٢ .
 (٣) ابن إياس - بدائع الزهور ج ١ ص ١٠٣ .
 (٤) المقرئى - السلوك ج ١ ص ٨١٤ .
 (٥) المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ٣٠٦ .
 (٦) ابن إياس - تاريخ مصر ج ١ ص ١٣٣ .

« دخلت سنة خمس وتسعين وسمائة فيها أجديت البلاد وشح النيل وقد وصل إلى اثني عشر ذراعاً ثم هبط فشرقت الأراضي ووقع الغلاء والقحط بالديار المصرية وشحط سعر القمح إلى مائة وسبعين درهماً كل إردب وكذلك الفول . وبلغ سعر اللحم كل رطل سبعة دراهم وبيع كل فروج بخمسة عشر درهماً وبيعت البيضة الواحدة بأربعة دراهم وبيعت التفاحة والرمانة والسفرجلة كل واحدة منها بثلاثين درهماً، إذ اشتد الأمر على الناس حتى أكلوا الكلاب والحمير والبغال والخيول والجمال ولم يبق عند أحد شيء من الدواب حتى قيل إنه صار بيع الكلب السمين بخمسة دراهم والقط بثلاثة دراهم » .

ولست بعد هذا النص في حاجة إلى مزيد من القول في تصوير الحياة الاقتصادية في عصر ابن دقيق العيد . ولكني أقول إن حياة شيخنا تقي الدين كانت إحدى ظواهر سوء ذلك العيش إذ أجمع كل من أرخوه أو ترجموا له على أن الفقر كان يلزمه ولا يكاد ينفك عنه . وشعره يصدق ذلك إذ يقول :

لعمري لقد قاسيت بالفقر شدة وقعت بها في حيرة وشتات إلى آخر ما قال . وقد أوردت الأبيات جميعها في الفصل الثاني من هذا البحث .

هذا على أن دولة المماليك ، كانت على جانب كبير من الغنى والثراء ووفرة الأموال وبخاصة أيام الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون وابنه الناصر محمد . والسر في غناء دولة المماليك وراثتها في ذلك العصر مع ما كان عليه الشعب في أكثر أوقاته من عوز وإقلال وضياع في العيش جده شديد يرجع إلى أسباب أهمها أولاً :

أولاً: احتكارهم للأراضي وحرمانهم الفلاحين والزراع من تملكها ، فقد ذكر ابن أبياس في كتابه^(١) تاريخ مصر المعروف « ببداية الزهور في وقائع الدهور ما نصه » وكانت البلاد المصرية مقسومة يومئذ على أربعة وعشرين

قيراطاً منها أربعة قراريط للسلطان ومنها عشرة قراريط للأمراء والإطلاقات ومنها عشرة قراريط للجند كلهم . ومعنى هذا أن الفلاحين والزراع لم يكن لهم حق الملكية وإنما كانوا يعملون ويكدحون في أرض الممالك وضياعهم وليس لهم إلا ما يقيم الأود .

ثانياً : جباية الزكاة فقد اتسعت رقعة الدولة وكثر المواليون لسلطان مصر في المشرق والمغرب ومن مظاهر ذلك ما ذكره المقرئ في حوادث سنة ٦٦٤ هـ إذ قال ما نصه^(١) . « وفي جمادى الآخرة سار الأمير أقوش السفيرى ومعه أربعون ديواناً لاستخراج زكاة عرب بلاد المغرب فوصل إليهم وأخذ منهم الزكاة التى فرضها الله وأخذ منهم الحقوق » .

ثالثاً : التجارة فقد كانت مصر فى هذا العصر تؤدى للعالم أجل الخدمات بما كانت تطلع به من مهمة نقل التجارة من الشرق إلى الغرب وبالعكس بحكم موقعها الجغرافى وذلك على نحو ما يؤديه الآن مرفق قناة السويس ، وكان سلاطين مصر وأمرأؤها بطبيعة الحال يأخذون من تلك القوافل التجارية التى كانت تمر عبر مصر - الضرائب أو الرسوم . هذا على أن أمراء الممالك كانوا يزاولون بأنفسهم مهنة التجارة وشاهد ذلك ما ذكره ابن تغرى بردى فى ترجمته للأمير عز الدين أيدمر إذ قال ما نصه^(٢) « وكان محظوظاً من الدنيا له الأموال الجمة والمتاجر الكثيرة والأملاك الوافرة » .

رابعاً : وأخيراً تلك المكوس أو المقررات^(٣) الفادحة التى كانوا يفرضونها على الأفراد وعلى الأشياء التى تباع وتشترى وعلى أهل الصناعات وأرباب الحرف وراكبى السفن مسافرين أو متجرين .

(١) المقرئى - السلوك ج ١ ص ٥٤٤ .

(٢) ابن تغرى بردى - النجوم ج ٧ ص ٢٢٧ .

(٣) المقرئى - الخطط ج ١ ص ٨٧ ، ٨٩ .

الجانب الاجتماعي

أما عن مجتمع ذلك العصر - عصر شيخنا تقي الدين بن دقيق العيد فإنه كان يتألف من عناصر بشرية مختلفة متعددة فمنهم العرب والقبط وبقايا الإغريق والرومان وجماعات من السودانيين والعبرانيين والأرمن والآتراك وغير ذلك ولكنهم كانوا جميعاً ينضون في اعتبار العصر نفسه تحت طوائف أو طبقات ثلاث هي :

أولاً : طائفة الحاكمن من الأيوبيين والمماليك . أما الأيوبيون ^(١) فقد اختلف في جنسيتهم وأصل نشأتهم فقليل منهم عرب من أحفاد بني مروان وقيل إن « شادى » جد صلاح الدين كان مملوكاً . ويرجح ابن تغرى بردى أن موطنهم « دوين » بضم الدال وكسر الواو وسكون الياء . وهى بلدة من أعمال أذربيجان فإن أصلهم من الأكراد الروادية وأنه لم يحدث أن دخل أحدهم فى رق أو كان فى يوم من الأيام مملوكاً . وأما المماليك ^(٢) فقد كانوا خليطاً من الترك والأرمن والروم والجركس وغيرهم إلا أن اسم الترك كان غالباً على جميعهم لكثرتهم وميزتهم وكانوا طوائف متميزين بسماوات من ينسبون إليه من نسب أو سلطان . فمنهم العزيزية نسبة إلى العزيز عثمان بن صلاح الدين ومنهم الصالحية نسبة إلى الصالح أيوب . ومنهم البحرية نسبة إلى القلعة التى بناها الصالح بين شعبى النيل إزاء المقياس . وهو ما يعرف الآن باسم الروضة .

والطبقة الثانية هى الرعية ممن كانوا يعتنقون الإسلام وأكثرهم من العرب وهم الذين كانوا من قبل سادة البلاد المتصرفين فى شئونها الداخلية والخارجية رديحاً من الزمان وفى هذا العصر عصر الأيوبيين والمماليك حيل بينهم وبين الحكم وأمور الدولة العليا وأقصوا عن الجندية وشئونها فلم يكن منهم أمير ولا قائد

(١) ابن تغرى بردى - النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٣ .

(٢) ابن خلدون ج ٥ ص ٣٧٣ .

وإن كان الأيوبيون والمماليك كثيراً ما استعانوا بالعرب في حروبهم وذلك في حالة ضعفهم عن مناهضة الأعداء كالذى حدث في المعارك التي دارت رحاها في المنصورة^(١) ودمياط . وكان هؤلاء العرب ينظرون إلى الأيوبيين والمماليك على أنهم مستبدون^(٢) . بالحكم والسلطان دون أصحابه الشرعيين من أهل البلاد وأصحابها الحقيقيين بمقتضى الفتح الإسلامى . وأعنى بهم العرب أنفسهم ولهذا وجدناهم يثرون على الدولة الأيوبية في أول أمرها إبان سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب في بلاد الصعيد^(٣) وفي أخرياتها أثناء سلطنة الصالح^(٤) نجم الدين أيوب . وكذلك في دولة المماليك فقد حدث أن ثاروا سنة ٦٥١هـ بقيادة الشريف حصن الدين ثعلب الجعدى في الوجهين القبلى والبحرى وهو الذى كان يقول «نحن أصحاب البلاد»^(٥) وقد صرح هو وأصحابه بأنهم أحق بالملك من المماليك وأن بنى أيوب خوارج خرجوا على البلاد . وكان السودانيون يؤيدون العرب في ذلك كله إذ حدث أن ثاروا معهم على الأيوبيين بقيادة كتر الدولة^(٦) . كما ثاروا على المماليك بعد الهزيمة التي منى بها الشريف حصن الدين ثعلب وعودة بلاد الصعيد إلى طاعة المماليك وكانت ثورة السودان هذه سنة ٦٥٨هـ^(٧) .

أما الطائفة الثالثة فهم أهل الذمة ممن كان بمصر من اليهود والنصارى وأكثرهم عدداً وأعظمهم خطراً الأقباط الذين كانوا يلقون في أكثر الأوقات من الأيوبيين والمماليك معاملة حسنة حتى إن بعضهم تقدم كثيراً من المسلمين في مناصب الدولة الهامة . وكانت حالهم الاقتصادية والاجتماعية أحسن أيضاً

(١) المقرئى - السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٤٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٨٦ .

(٣) تاريخ ابن خلدون ج ٥ ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

(٤) المرجع السابق ص ٣٧٥ .

(٥) المقرئى - السلوك ج ١ ص ٣٨٦ .

(٦) تاريخ ابن خلدون ج ٥ ص ٢٨٨ .

(٧) المقرئى - السلوك ج ١ ص ٤٤ .

من حالة أكثر المسلمين . فقد قال المقرئى يصف ما كان عليه حالهم قبل وقعتهم المشهورة التى حدثت سنة ٧٠٠ هـ ما نصه^(١) : « وفى رجب كان وقعة أهل الذمة وهى أنهم كانوا قد تزايد ترفهم بالقاهرة ومصر وتفننوا فى ركوب الخيل المسومة والبغلات الرائعة بالحلى الفاخرة ولبسوا الثياب السرية . وولوا الأعمال الجلييلة » .

ولكنهم رغم حسن تلك المعاملة كانوا ينتهزون الفرص لإثارة الشغب والاضطراب وإلحاق الأذى بالمسلمين كالأذى أحدثوه من حرائق بالغة الضرر فى مصر والقاهرة سنة ٦٦٣ هـ^(٢) . وجملة القول فى أمر الأقباط أنهم كانوا من الوجهة الاجتماعية فى هذا العصر على وضع يحسدون عليه . ولا عجب فقد تحكموا فى أموال الشعب وخراج البلاد^(٣) .

الطبقات الاجتماعية

هذا وجملة القول فى أهل ذلك العصر وجماعاته البشرية أنهم كانوا يختلفون فيما بينهم اختلافاً بيناً فى الجنس والنوع وفى أصل النشأة والموطن وفى الأشكال والألوان وقسمات الوجه وأبعاد الجسم وفى العقول والعواطف والميول والرغبات والمذاهب والمعتقدات وهم بعد طبقات اجتماعية متغايرة متفاوتة ومن يقرأ كتاب « إغاثة الأمة بكشف الغمة »^(٤) للعلامة تقي الدين أحمد بن على المقرئى يدرك من تضاعيفه وثناياه أن المقرئى يقسم ذلك المجتمع إلى سبعة أقسام وهى أولا : أرباب الدولة (وهم المماليك) . ثانياً : مياسير التجار . ثالثاً : متوسطو الحال من التجار . رابعاً : أصحاب الفلاحة والحراث . خامساً : الفقهاء وطلاب العلم (يعنى رجال الفكر) سادساً : أصحاب

(١) المرجع السابق ج ١ ق ٣ ص ٩٩ .

(٢) المقرئى - السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٣٥ .

(٣) المقرئى - الخطط ج ٣ ص ٢٢١ .

(٤) المقرئى - إغاثة الأمة بكشف الغمة ص ٧٣ .

الصنائع وأرباب المهن . سابعاً : أهل الخصاصة والمسكنة .
ورأى المقرئى هذا — كما هو واضح من موضوع كتابه — قائم على أسس
اقتصادية أعنى أنه لحظ فى تقسيمه المجتمع — على ذلك النحو — الناحية المادية
وأغفل الجانب المعنوى . وعندى أن تقسيم المجتمع وتفصيل طبقاته على أساس
المادة وحدها أمر غير سديد ، لأن تقويم الناس — جماعات كانوا أو أفراداً — إنما
يكون وفق مظاهر الحياة الإنسانية وأوضاعها . وهى مزاج من الماديات والمعنويات
لأن الإنسان ليس جسداً فقط حتى يقدر على وجه لا يقام فيه وزن لغير
الماديات . وإنما هو — أعنى الإنسان — روح وجسد أى أنه حقيقة امتزج
فيها العنصران المادى والروحى . ومن هنا كان لابد لمن يعرض إلى تبيان طبقات
مجتمع من المجتمعات أو أمة من الأمم أن يلحظ فى تبيينه أو تفضيله كلا
الجانبين المادى والمعنوى . وعلى هذا التقدير أرى أن المجتمع المصرى كان فى
ذلك العصر ينقسم إلى أربع طبقات هى :

أولاً : طبقة المماليك ، وكان منهم السلطان ونوابه وأمراء الدولة والجيش
وقادته .

ثانياً : طبقة رجال الدين والأدب وكان من هؤلاء القضاة والكتاب
والوزراء والمحتسبون أحياناً .

ثالثاً : طبقة التجار وأهل البيع والشراء .

رابعاً : طبقة الصناع والزراع وأرباب الحرف والفلاحين .

هذا على أن وجوه الكلام فى مجتمع ذلك العصر عصر ابن دقيق العيد
وأوضاعه كثيرة متعددة وموضوعاته مختلفة متشعبة ومجال الدرس والبحث فيه متسع
فسيح . ولسنا فى هذا البحث بصدد دراسة ذلك المجتمع أو تفهمه فى تعمق
وتمحيص وإعطاء الناس صوراً عنه تمثله فى مختلف جوانبه ونواحيه وإنما أعرض
إليه فى بعض جوانبه مما له علاقة أوطد وصلة أقوى وأوثق بالشيخ تقي الدين

كرجل من رجال الدين وقاض من قضاة مصر المرموقين وذلك على سبيل الإيجاز في غير تفريط .

القضاء

وأبدأ بالكلام عن القضاء فأقول لم يكن يعرف الحكم أو القضاء في مصر قبل المماليك — دستوراً غير القرآن الكريم وسنة النبي عليه الصلاة والسلام والاجتهاد . ومن هنا كان السلاطين والأمراء يجعون أمر القضاء بين الناس والفصل فيما ينشأ بينهم من خصومات ومنازعات إلى رجال الدين . لأن هؤلاء السلاطين لم يكونوا من تفهم الدين وتعلمه بحيث يستطيعون أن يضطلعوا بمهمة القضاء على نحو ما كان يفعل خلفاء المسلمين وأمراء المؤمنين من العرب سيما أنهم لم يكونوا عرباً وإن تكلموا العربية . كما أن اهتمام هؤلاء السلاطين كانوا منصرفاً إلى شئون الجندية والأمور العسكرية ، وإن كان بعض السلاطين يحضرون في كثير من الأحيان مجالس القضاء على ما سنبينه بعد قليل . فلما جاء المماليك فرقوا في نظام الحكم بين طبقتهم وسائر طبقات الأمة فجعلوا لهم حاجباً على غرار قاضى القضاة يحكم فيما قد ينشأ بين المماليك من منازعات ومشاجرات أو ما قد يصدر عن أفرادهم من أخطاء وما يرتكبونه من مخالفات . وقد أوضح المقرئى ذينك النظامين في خططه فقال ^(١) « وفوضوا — يعنى المماليك — لقاضى القضاة كل ما يتعلق بالأمور الدينية من الصلاة والصوم والزكاة والحج . وناطوا به أمر الأوقاف والأيتام وجعلوا إليه النظر فى الأقضية الشرعية ، كتداعى الزوجين وأرباب الديون ونحو ذلك ، واحتاجوا فى ذات أنفسهم إلى الرجوع لعادة حنكيزخان والافتداء بحكم "إلياسه" فلذلك نصبوا الحاجب ليقضى بينهم فيما اختلفوا فيه من عوايدهم والأخذ على يد قويمهم وإنصاف الضعيف منه . على مقتضى ما فى "إلياسه" وجعلوا إليه مع ذلك النظر فى قضايا الدواوين السلطانية عند الاختلاف فى أمور الإقطاعات لينفذ ما استقرت عليه أوضاع

(١) المقرئى — الخطط ج ٣ ص ٢٢١ .

الديوان وقواعد الحساب . وكانت من أجل القواعد وأفضلها حتى تحكم القبط في الأموال وخراج الأراضى فشرعوا في الديوان ما لم يأذن به الله ليصير لهم ذلك سبيلا إلى أكل مال الله تعالى بغير حقه . وكان مع ذلك يحتاج الحاجب إلى مراجعة النائب أو السلطان في معظم الأمور » .

وكلام المقرئى هذا يشعر بأن الممالك كانوا يتلمسون الوسائل والأسباب لجمع المال والإثراء فيه وإن جاع الشعب واشتدت به الفاقة وأن الرعية كانت تعاني الكثير من ظلم الممالك وجورهم وعسفهم واضطهادهم . هذا وقد ظل القضاء في مصر منذ ولاية صلاح الدين^(١) حتى ولى الظاهر بيبرس منوطاً بالشافعية لا يشركهم^(٢) فيه أى من المذاهب الأخرى اللهم إلا نواب أحكام بينهم^(٣) قاضى القضاة الشافعى . فلما كانت السنة الخامسة من ولاية الظاهر بيبرس وهى سنة ٦٦٣ هـ^(٤) تعدد منصب قاضى القضاة في مصر والقاهرة وفق تعدد مذاهب أهل السنة وهى أربعة شافعى وحنفى ومالكى وحنبل . وقد أورد المقرئى في كتابه السلوك قصة تعدد القضاء فقال ما نصه^(٥) « وكان الأمير جمال الدين أيدغدى العزيزى يكره قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز . ويضع من قدره ويحط عليه عند السلطان بسبب تشدده في الأحكام وتوقفه في القضايا التى لا توافق مذهبه . فاتفق جلوس السلطان بدار العدل في يوم الاثنين ١٢ ذى الحجة فرفع إليه بنات الملك الناصر قصة فيها أن ورثة الناصر اشتروا دار قاضى القضاة بئر الدين السنجارى في حياته فلما مات ذكر ورثته أنها وقف . فعندما قرئت أخذ الأمير أيدغدى يحط على الفقهاء وينقصهم . فقال السلطان للقاضى تاج الدين "يا قاضى هكذا تكون القضاة"

(١) السيوطى - حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٤ .

(٢) طبقات الشافعية ج ٥ ص ١٣٤ .

(٣) تاريخ ابن خلدون ج ١ ص ١٠٣ .

(٤) ابن الوردي ج ٢ ص ٢١٧ والنجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢١٨ .

(٥) المقرئى - السلوك ج ١ ص ٥٣٨ .

فقال تاج الدين "يا مولانا . كل شاة معلقة بعرقوبها" . قال « فكيف الحال في هذا "قال" إذا ثبت الوقف يعاد الثمن من الورثة » . فقال السلطان "إذا لم يكن مع الورثة شيء "قال القاضي" يرجع الوقف إلى أصله ولا يستعاد الثمن » . فغضب السلطان من ذلك .

وما تم الكلام حتى تقدم رسول أمير المدينة النبوية وقال "يا مولانا السلطان سألت هذا القاضي أن يسلم إلى مبلغ ريع الوقف الذي تحت يده لينفقه صاحب المدينة في فقراء أهلها . فلم يفعل" . فسأل السلطان القاضي عما قاله . فقال نعم . قال السلطان . "أنا أمرته بذلك فكيف رددت أمري" . قال . « يا مولانا . هذا المال أنا متسلمه . وهذا الرجل لا أعرفه ولا يمكنني أن أسلمه لمن لا أعرفه ، ولا يتسلمه إلا من أعرف أنه موثوق بدينه وأمانته . فإن كان السلطان يتسلمه مني أحضرته إليه ، فقال السلطان "تنزعه من عنقك وتجعله في عنقي" قال نعم . قال السلطان « لا تدفعه إلا لمن تختاره" . ثم تقدم بعض الأمراء وقال "شهدت عند القاضي فلم تسمع شهادتي في ثبوت الملك وصحته" فسأل السلطان القاضي عن ذلك فقال "ما شهد أحد عندي حتى أثبته" . فقال الأمير "إذا لم تسمع قولي فمن تريد" . قال السلطان . "لم لاسمعت قوله ؟" فقال "لا حاجة في ذكر ذلك" . فقال الأمير أيدغدي "يا قاضي مذهب الشافعي لك" . ونوى من كل مذهب قاضياً . فصغى السلطان لقول أيدغدي وانفض المجلس إلى أن كان يوم الاثنين تاسع عشرة . ولي السلطان القاضي صدر الدين سليمان بن أبي العز ابن وهيب الأذرعى الحنفى مدرس المدرسة الصالحية والقاضي شرف الدين عمر ابن عبد الله بن صالح بن عيسى بن عبد الملك بن موسى بن خالد بن علي ابن عمر بن عبد الله بن إدريس ابن إدريس بن الحسن بن الحسن بن علي ابن أبي طالب السبكي المالكي . والقاضي شمس الدين محمد بن إبراهيم الحنبلي (ليكونوا قضاة القضاة بديار مصر وجعل (السلطان) لهم أن يولوا في سائر الأعمال المصرية مضافاً لقاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز وأبى علي ابن بنت الأعز النظر في مال الأيتام والمحاكمات المختصة ببيت المال . وكتب

لكل منهم تقليداً وخلع عليهم . فصار بديار مصر قضاة القضاة من حيثند أربعة يحكم كل منهم بمذهبه . ويلبس كل منهم الطرحات في أيام الخدمة السلطانية .

ويستفاد من هذا النص عدة أمور : أولاً . أن سلاطين هذا العصر وأمرأه كانوا يتدخلون في شئون القضاء ويعترضون على أحكام القاضى التى تجيىء على غير هواهم وإن كانت وفق قواعد الشرع الحنيف .

ثانياً : ازدراء القضاة لطائفة المماليك وعدم قبولهم شهادتهم لأنهم في رأيهم غير عدول .

ثالثاً : شجاعة القاضى وصلابته في الحق .

والرابع : هو أن سبب تعدد القضاء استياء السلطان الظاهر والأمير أيدغدى من حكم القاضى على غير رغبتهما وكونه لم يقبل شهادة الأمير .

والخامس : كون تعدد القضاء إنما حدث في أيام الظاهر بيبرس وأنه — أعنى الظاهر — رسم بذلك يوم الاثنين ١٩ من ذى الحجة عام ٦٦٣ هـ وهذا خلاف لما ذكره السيوطى في كتابه حسن المحاضرة^(١) من أن القضاء تعدد أيام الدولة الفاطمية سنة ٥٢٥ هـ وأنه عين وقت ذاك قاض شافعى ، وقاض مالكى وقاض للإسماعيلية ورابع للإمامية . وعندى أن رواية السيوطى هذه غير صحيحة لأنه لم يكن في مصر أيام الفاطميين نوعان من الشيعة هما الإسماعيلية والإمامية كما يفيدده قول السيوطى ، وإنما كان مذهباً واحداً فقط وهو مذهب الإمامية الإسماعيلية . هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن الفاطميين كانوا قد أبطلوا^(٢) حين استتب لهم الأمر في مصر العمل بالمذاهب الأخرى ، وجعلوا القضاء وفقاً على مذهبهم : أما ابن إياس^(٣) فقد خالف المقرئى في زمن التعدد فقط إذ يذكر في كتابه بدائع الزهور في وقائع الدهور أن تعدد القضاة

(١) ج ٢ ص ١٣٢ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٢٢ .

(٣) ابن إياس — بدائع الزهور ج ١ ص ١٠٣ .

حدث سنة ٦٦٠ هـ . وقد وافق المقریزی فی أن تعدد القضاء وقع فی يوم الاثنين ١٩ من ذی الحجة عام ٦٦٣ هـ . کل من القلقشندی فی کتابه صبح الأعشى^(١) والسيوطی فی کتابه حسن المحاضرة^(٢) وأرى أن لا تعارض بين الروایتين إذ یصح أن يفهم كلام ابن إیاس علی أن المقصود من نظام التعدد فی القضاء هو ما كان علیه الحال فی تلك السنة من أن القاضی تاج الدین بن بنت الأعز كان قد أناب عنه قضاة ثلاث أحدهم حنفی ، والثانی مالکی ، والثالث حنبلی ، یحکم کل بمذهبه . يدل علی ذلك ما ذكره المقریزی فی کتابه السلوك إذ قال ما نصه^(٣) « وفي ثالث شهر رمضان عام ٦٦٠ هـ عزل السلطان قاضی القضاة برهان الدین السنجاری عن قضاء مصر والوجه القبلی وأعاد قاضی القضاة تاج الدین عبد الوهاب بن بنت الأعز فصار بيده قضاء القضاة فی مصر كلها وكان متشدداً فی أحكامه فرسموا له فی ذی القعدة أن یستنيب عنه مدرسی المدرسة الصالحية من الحنفية والمالكية والحنابلة فاستتابهم فی الحكم عنه ولم یعرف ذلك فی مصر قبل ذلك الوقت . فجلس القاضی صدر الدین سلیمان الحنفی والقاضی شرف الدین عمر السبکی المالکی والقاضی شمس الدین محمد ابن إبراهيم الحنبلی فی أول ذی القعدة وحكموا بين الناس بمذاهبهم . ومعنى هذا أن قاضی القضاة الشافعی كان ینیب عنه قضاة من المذاهب الأخرى ویطلق علی كل منهم اسم (نائب حکم) ولا یسمى قاضياً إلا تجاوزاً وفي شيء من التسامح فی التعبير . ویؤید رواية المقریزی تلك ما ذكره تاج الدین السبکی فی کتابه الطبقات ما نصه^(٤) « سئل تاج الدین (أی ابن بنت الأعز) فی أمر فامتنع من الدخول فيه . فقیل له مرّ نائبك الحنفی . — وكان القاضی وهو الشافعی یستنيب من شاء من المذاهب الأخرى الثلاثة — فامتنع من ذلك

(١) ج ٤ ص ٣٥ .

(٢) ج ٢ ص ١٢٣ .

(٣) السلوك ج ١ ص ٤٧٢ .

(٤) طبقات الشافعية ج ٥ ص ١٣٤ .

أيضاً» ومهما يكن من شيء فقد أناب قاضى القضاة عنه نواباً يحكمون بمذاهبهم وكان ذلك عام ٦٦٠ هـ .

هذا على أن ما أوردناه آنفاً من كلام المقرئى فى معرض قصة التعدد وتبيان أسبابه يعطى أيضاً أن قضاة الأحناف والمالكية والحنابلة كانوا يولون نواباً عنهم فى مذاهبهم فى الوجهين القبلى والبحرى كالشافعى سواء بسواء . هذا وعبرة السبكى تفيد أنه لم يكن من حق أى قاض ينصب نواباً سوى قاضى قضاة الشافعية إذ قال فى ترجمته لتاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز ما نصه: « ثم لما ضم القضاة إلى الشافعية (يعنى الظاهر بپيرس) استثنى للشافعية الأوقاف وبيت المال والنواب إلخ . » أما القلقشندى فإنه قد جاء وسطاً بين عبارتى المقرئى والسبكى إذ قال « ثم كل من الأربعة له التحدث فيما يقتضيه مذهبه بالقاهرة والفسطاط ونصب النواب وإجلال الشهود ويستقل الشافعى منهم بتولية النواب فى الوجهين القبلى والبحرى لا يشاركه فيه غيره » . ويفهم من هذا النص أن قضاة المذاهب الثلاثة كانوا ينيبون عنهم نواباً فى القاهرة والفسطاط فقط فى حين أن القاضى الرابع وأعنى به قاضى قضاة الشافعية يمتاز عنهم بتولية نواب له فى الوجهين .

ويؤخذ من قول الأسنوى فى طبقاته (٢) أثناء ترجمته للشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد ، بأنه ولى قضاء المالكية فى قوص لما كانت المذاهب الأخرى تشرك الشافعى فى القضاء بالمدن الكبرى كالحلة وقوص .

ويستفاد من هذا أن القضاة الثلاثة كانوا يولون نواباً عنهم فى الوجهين القبلى والبحرى كما هى رواية المقرئى حيث يقول « وجعل لهم (يعنى القضاة الثلاثة) صدر الدين سليمان بن بنت الأعز الحنفى ، وشرف الدين عمر بن عبد الله المالكى وشمس الدين محمد بن إبراهيم الحنبلى) أن يولوا فى سائر الأعمال المصرية مضافاً لقاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز) . وبمقارنة هذه النصوص بعضها

(١) المرجع السابق ج ٥ ص ١٣٥ .

(٢) ورقة ١١٤ من النسخة المخطوطة بقلم معتاد بدار الكتب المصرية .

إلى بعض نخرج إلى القول الصحيح وهو أن القضاة كانوا بادئ الأمر ينيبون عنهم نواباً في مذاهبهم في الوجهين القبلي والبحري كالشافعي ولكن في المدن الكبرى فقط . ثم عاد الأمر في هذا الشأن إلى ما كان عليه الحال قبل تعدد القضاة وهو أن الشافعي وحده هو الذى ينيب في الوجهين القبلي والبحري . وجعل للقضاة الآخرين أمر توليته نوابهم في مصر والقاهرة فقط .

هذا وقد كان السلطان يعين قاضى قضاء الشافعية لمصر والقاهرة والوجهين القبلي والبحري معاً وأحياناً يعين للقاهرة والوجه البحري قاضياً ولمصر والوجه القبلي قاضياً آخر ويجعل^(١) أحدهما مقدماً على الآخر ويجلس فوق مرتبته في دار العدل وقت جلوس السلطان للمظالم .

ويجمل بي أن أذكر هنا أن شيخنا تقي الدين بن دقيق العيد قد ولي منصب قاضى القضاة لمصر والقاهرة والوجهين القبلي والبحري وبقى على ذلك لا يشركه أحد حتى مات وذلك لأنه جاء خلفاً لتقى الدين عبد الرحمن بن بنت الأعز . وكان قد استقر في قضاء مصر والقاهرة والوجهين القبلي والبحري بعد موت القاضى برهان الدين خضر السنجارى ، ثم إن الذين ترجموا له ذكروا له كتباً أرسلها إلى نوابه في الوجهين القبلي والبحري كما سوف نذكره في الفصل الثانى عند كلامنا عنه أثناء توليته منصب قاضى القضاة .

هذا وقد كان السلاطين يجلسون إلى القضاء أحياناً وينيبون عنهم بعض الأمراء أحياناً أخرى . فمن جلس من السلاطين للقضاء الظاهر بيبرس^(٢) والسلطان الأشرف خليل^(٣) بن المنصور قلاوون . ومن الأمراء الذين نابوا عن السلطان في الجلوس للقضاء الأمير عز الدين الحلبي^(٤) عن الظاهر بيبرس والأمير سلار عن الملك الناصر السلطان محمد بن قلاوون .

(١) المقرئى - السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٢٤ .

(٢) المقرئى - السلوك ج ١ ص ٥٠٣ .

(٣) المرجع السابق ص ٧٧٢ والخط ج ٣ ص ٢٢٣ - ٢٢٨ .

(٤) المقرئى - السلوك ج ١ ص ٥٥٠ .

وكان مجلس القضاء يختلف في هيئته ونظامه ومكانه في حالة حضور السلطان عنه في عدم حضوره . فإذا حضر السلطان كان له روعة وأبهة وهيبة ووقار وقد وصف السيوطي مجلس القضاء في حالة حضور السلطان فقال ما نصه^(١) « قال ابن فضل الله إذا جلس السلطان للمظالم جلس عن يمينه قضاة القضاة من المذاهب الأربعة . ثم الوكيل عن بيت المال ، ثم الناظر في الحسبة ويجلس عن يساره كاتب السر ، وقدامه ناظر الجيش وجماعة من الموقعين تكملة حلقة دائرة وإن كان ثم وزير من أرباب الأقلام كان بينه وبين كاتب السر ، وإن كان الوزير من أرباب السيوف كان واقفاً على بعد مع بقية أرباب الوظائف ويقف من وراء السلطان صفان عن يمينه ويساره من السلاحدارية والحمدارية والخاصكية ويجلس على بعد تقديره خمسة عشر ذراعاً من يمنة ويسرة — ذوو السن من أكابر الأمراء وأرباب الوظائف وقوفاً . وبقية الأمراء وقوف من وراء أمراء المشورة . ويقف خلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان الحجاب والدوادارية لإحضار قصص الناس ، وإحضار المساكين وتقرأ عليه ، فما احتاج إلى مراجعة القضاة راجعهم فيه ، وما كان متعلقاً بالعسكر تحدث مع ناظر الخاص وكاتب السر فيه . قال « وهذا الجلوس يكون يوم الاثنين ويوم الخميس إلا أن القضاة وكاتب السر لا يحضرون يوم الخميس » .

تلك هي صورة مجلس القضاء وقت حضور السلطان فإذا لم يحضر السلطان مجلس القضاء ، فإن القاضي كان يجلس إما في مدرسة أو مسجد . قال المقرئ^(٢) عن برهان الدين السنجاري إنه لما عين في قضاء القاهرة والوجه البحري جلس للحكم في المدرسة المنصورية بين القصرين ، وإذا جمع القضاة بين قضاء القاهرة ومصر خصصوا يوم الاثنين والخميس لقضايا مصر ويجلسون فيها بجامع عمرو بن العاص ويجتمع حولهم علماء مصر . وقد وصف تاج

(١) السيوطي — حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٠٩ .

(٢) ورد هذا النص بيسير من التفصيل في خطط المقرئ ج ٢ ص ٢٠٨ .

(٣) المقرئ — السلوك ج ١ ص ٧٣٤ .

الدين السبكي مجلس القضاء في غير حضور السلطان أثناء ترجمته للشيخ
تقى الدين بن رزين بما يؤيد كلام المقرئى إذ قال ما نصه (١) « كان قضاة
القضاة بالديار المصرية إذا جمعوا بين قضاء القاهرة ومصر كما استقرت عليه
القاعدة من الأيام الظاهرية - يتوجهون يوم الاثنين ويوم الخميس إلى مصر
فيجلسون بجامع عمرو بن العاص لفصل القضاء بين الناس ويحضر عندهم
علماء مصر » .

ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن جميع السلاطين الذين جلسوا على عرش
مصر من الأيوبيين والمماليك في هذه الفترة كانوا يعتنقون (٢) مذهب الشافعية
ما عدا سيف الدين قطز . فقد كان حنفياً وظل على مذهبه حتى قتل . أما
الظاهر فإنه لما ولى السلطنة قلد الإمام الشافعى .

الحياة الدينية

أما من الوجهة الدينية فقد كان المجتمع المصرى في ذلك العصر منقسماً
إلى طوائف و فرق متعددة فمنهم من كان يعتنق المسيحية وأكثرهم من أقباط
مصر وبقايا الإغريق والرومان ومنهم من كان يعتنق اليهودية وهم من العبرانيين
ومنهم من كانوا يعتنقون الإسلام وهم السواد الأعظم وأكثر أهل البلاد .

وكل من معتنقى هذه الأديان كانوا مذاهب و فرقا متعددة ؛ فالمسيحيون
كان منهم اليعاقبة والمماليكية . واليهود كانوا قرائن وربانيين . أما المسلمون فكان
منهم السنيون ، وهم إما شافعيون أو مالكيون أو حنابلة أو أحناف . والشيعة
وهم الإمامية الإسماعيلية وهؤلاء كانوا يكثرون في بلاد الصعيد على أن القاهرة
لم تخل في هذا العصر من المتشيعين ولا غرو فإن المؤرخين يحدثننا عن ثورة

(١) السبكي - طبقات الشافعية الكبرى ج ٥ ص ١٩ .

(٢) المصدر السابق ج ٥ ص ١٢٥ .

قام بها جماعة من السودانين^(١) والركبدارية والغلمان سنة ٦٥٨ هـ وكانوا ينادون وهم يشقون القاهرة « يا آل علي »

ومما يجدر ذكره هنا أن مجد الدين بن علي بن وهب والد شيخنا تقي الدين موضوع هذا البحث كان قد جاء بلاد الصعيد وأقام في قوص لمحاربة^(٢) المذهب الإسماعيلي . هذا ومن يرجع إلى كتب التاريخ والأدب وما ألف في العلوم الدينية إبان ذلك العصر من كتب ومصنفات يدرك معنى في يقين وجزم بأنه كان يسود العالم آنذاك روح وجهتها العقيدة وصبغتها الدين . كان ذلك في البلاد المسيحية كأوروبا مصدر الحركات الصليبية التي تميز بها ذلك العصر وفي البلاد الإسلامية كمصر والشام مهد الديانات السماوية ومعقلها في مختلف العصور وتعاقب الأزمان ولو شئت أن أفصل القول في تبيان ذلك الاتجاه الديني الذي كان يسود المجتمع البشري في الشرق والغرب إذ ذاك لاحتجت إلى عدة سنوات ولمئات في ذلك مئات الصفحات . ولكني أقتصر هنا على تصوير الطابع العام للحياة الدينية في مصر إبان القرن السابع الهجري أو قل في عصر ابن دقيق العيد وذلك على سبيل الإيجاز . فأقول كانت المجتمعات الدينية على اختلافها وتعددتها تتسم بطابع النقاش والجدل وبخاصة بين المسلمين والأقباط إذ كان أقباط مصر قد استشعروا في القرن السابع الهجري شخصيتهم وأن لهم وجود ذاتي وكيان . وقد تجلى ذلك في النشاط الديني الذي كانوا يبذلونه في سبيل إعلاء شأنهم والتمكين في مصر لدينهم فمن ثم اشتد النقاش واحتدم الجدل بين المسيحيين من أقباط مصر وأهل الإسلام، وخير شيء يصور لنا ما كان عليه الحال في تلك الفترة بين المسلمين والأقباط تلك القصيدة اللامية التي نظمها الإمام البوصيري^(٣) ومطلعها :

جاء المسيح من الإله رسولا فأبى أقل العالمين عقولا
قوم رأوا بشراً كريماً فادعوا من جهلهم لله فيه حلولا

(١) المقرئى - السلوك ج ١ ص ٤٤٠ .

(٢) الادفوى - الطالع السعيد ص ٢٣٠ .

(٣) لامية البوصيري . نسخة مخطوطة بقلم معتاد بدار الكتب المصرية .

ومن يقرأ هذه القصيدة يجد أن البوصيرى قد هاجم فيها كلا من اليهود والنصارى وسفه عقائد الطائفتين كلتيهما .

الأمر الذى يجعلنا نقول أن اليهود كانت تؤيد النصارى من أقباط مصر فى مناهضتهم الإسلام والمسلمين . وإليك طرفاً مما جاء فى تلك القصيدة من الرد على اليهود والنصارى وفى تبين فساد ما اعتقدوه . قال :

ضل النصارى فى المسيح وأقسموا لا يهتدون إلى الرشاد سييلاً
جعلوا الثلاثة واحداً ولو اهتمدوا لم يجعلوا العدد الكثير قليلاً
عبدوا إلهاً من إله كائننا ذا صورة ضلوا بها وهيولاً
هذا مما ورد فى القصيدة بشأن النصارى . أما اليهود فما جاء فيها بشأنهم قوله
والعابدون العجل قد فتنوا به ودوا اتخاذ المرسلين عجولاً
ثم يقول أيضاً :

أنحلوا كتاب الله من أحكامه عنراً وكان العامر المأهولاً
جعلوا الحرام به حلالاً والهدى غياً وموصول التقى مفصولاً
وهكذا يمتضى البوصيرى فى قصيدته يرد على اليهود والنصارى بهذا الأسلوب المنطقى الجليل الممزوج بالسخرية اللاذعة والتبكيت الشديد .

هذا ومن المسائل الدينية التى امتاز بها ذلك العصر هى تلك الخرافات والحكايات التى كانوا ينسبونها إلى من يعتقدون فيهم التقى والصلاح . على أنها خوارق أو كرامات يجريها الله على أيديهم أو ألسنتهم فمن ذلك ما ينسبونه إلى ابن دقيق العيد من أنه كان قد أخبر^(١) بما وقع بين المسلمين والتتار فى معركة حمص سنة ٦٨٠ هـ ومن ذلك أيضاً ما حكاه السبكي^(٢) عن الظاهر بيبرس من أنه رأى الشافعى فى المنام على إثر تعيينه قضاة من المذاهب الأخرى بالإضافة إلى القاضى الشافعى وأنه أى الشافعى لام الظاهر بيبرس على فعلته تلك .

(١) الادفوى - الطالع السعيد ص ٣٢٤ والسبكي - طبقات الشافعية الكبرى ج ٦ ص ٤ .

(٢) السبكي - طبقات الشافعية ج ٥ ص ١٣٦ .

وغير ذلك من خرافات وأساطير مختلفة لا سبيل إلى تصديقها وبخاصة رؤية الظاهر للإمام الشافعي فإني أرجح أنها محض اختلاق . وإن أصحاب المذهب الشافعي هم الذين نسجوا تلك القصة .

أخلاق أهل هذا العصر

أما من ناحية السلوك والأخلاق فقد كان المصريون في ذلك الحين قد استكثروا من المعاصي وارتكاب المحرمات وفعلوا الفواحش وأتوا المنكرات .

وخير شيء يصور لنا أخلاق المجتمع المصري في ذلك العصر ما ذكره ابن إياس في كتابه تاريخ مصر المعروف (باسم بدائع الزهور في وقائع الدهور) وذلك أثناء كلامه عن السلطان الظاهر بيبرس وما أتاه في مصر والشام أثناء سلطنته من أعمال إذ قال ما نصه ^(١) « ثم دخلت سنة ٦٦٥ هـ فيها أبطل السلطان ضمان الحشيشة وأمر بإحراقها وأخرب بيوت المسكرات وكسر ما فيها من الخمر وأراقها ومنع الحانات من الخواطي واستتاب العلوق واللواطى وعم هذا الأمر سائر الجهات المصرية وبرزت المراسيم الشريفة بمنع ذلك من سائر الجهات الشامية فظهرت في أيامه سائر البقاع ومنع الناس من ذلك غاية الامتناع ثم أحضروا إليه في أثناء هذه الواقعة شخصاً يسمى ابن الكازرونى وهو سكران (نابعة) فأمر بصليبه فصلب بعد حد عظيم في مستحقه وعلقت الجرة والقدح في عنقه . فلما عاين أرباب الحجون والحلاعة ما جرى لابن الكازرونى امتثلوا أمر السلطان بالسمع والطاعة وقد قال القائل :

لقد كان حد السكر من قبل صلبه خفيف الأذى إذ كان في شرعنا جلد
فلما بدا المصلوب قلت لصاحبي : يا أبا تيب فإن الحد قد جاوز الحداء
ثم قال ابن إياس « قال الشيخ شمس الدين بن دانيال صاحب كتاب
(طيف الخيال) لما قدمت من الموصل إلى الديار المصرية في الدولة الظاهرية

(١) ابن إياس - بدائع الزهور ج ١ ص ١٠٤ - ١٠٧ .

سقى الله من سحب الإنعام عهداً ، وأعذب مشارب وردّها فوجدت مواطن
الأنس دارسة ، وأرباب اللهو والحلاعة غير آتسة ومن لذة العيش آيسة ، وهزم
أمر السلطان جيش الشيطان وتولى الخوان والى القاهرة إهراق الخمر وإحراق
الحشيش وتبديد المزور واستتاب العلوق واللواطى وحجر البغاة والخواطى وشاعت
بذلك الأخبار ، ووقع الإنكار وصلب ابن الكازرونى وفى رقبتة نبيذية ،
فدعانى بعض أصدقائى إلى محله ، وأنزلى من عياله وأهله واعتذر إلى عن
تقصيره فى الإكرام إذ لم يأتنى بمدام . وقال قد غلب على ظنى أن أبا مرة قد
مات وعد من الرفات . فقم بنا نبكيه ونصف الحالة ونرثيه فابتدأت وقلت فى
معنى هذه الواقعة التى وقعت .

مات يا قوم شيخنا إبليس وخلا منه ربه المأنوس

وهذا البيت مطلع البليقة التى أنشأها ابن دانيال فى وصف ما آل إليه
حال المجون والفجور وفاعلى الموبقات وشاربى الخمر . وهى قصيدة طريفة فى
هذا المقام بلغت خمساً وعشرين بيتاً والبيت الأخير منها فى غاية الطرافة وهو
قوله :

فسأبكيه أرمم العين حتى لشفائى يعيش جالينوس

فهو كما ترى قد أسف لهزيمة إبليس أو موته على حد تعبيره ، وبكى عليه
ورثى لحاله ولحال جميع أهل الفسوق والمجون وأرباب الحلاعة ، وهذا لعمرى
أدل شئ على ما كانت عليه أخلاق المجتمع المصرى فى عصر ابن دقيق العيد
من فجور ومجون واستهانة بقيم الأخلاق ، وانتهاك الحرمات الدين . ولم تكن
تلك الأخلاق قاصرة على الرعاع والدهماء أو أراذل الأمة ، لا بل إن كثيراً
من عليه القوم وأشرفهم وذوى المكانة فيهم كانوا يشربون الخمر ويتعاطون
الحشيش ويأتون الغلمان . وما يدل على ذلك دلالة قوية ما رواه أكثر من
ترجموا لابن دقيق العيد من أنه قال مرة لأبى حيان (أثير الدين الغرناطى) : « فيكم
يا أهل الأندلس خصلتان ، شرب الخمر ، وحب الغلمان » . فقال أبو حيان :

« أما الخمر فوالله ما عصيت الله فيها . أما الغلمان فما أشك أن أهل مصر أفسق منا » .

فهذه حجة لي فيما زعمت آنفاً من القول بأن الفساد والمجون والاضمحلال في الأخلاق ساد المجتمع المصري في عصر شيخنا ابن دقيق العيد . وأكثر من هذا فإن رجال الدين أنفسهم وبخاصة أولئك الذين كانوا يتصدون إبان ذلك العصر للإفتاء فإنهم كثيراً ما أباحوا للسلطين والأمراء ما لم يجزه الشرع وأحلوا لهم ما حرم الله . وأصدق شيء يصور لنا ما كان عليه علماء الدين ورجال الإفتاء في عصر ابن دقيق العيد من استهانة بالشرع وتسامح في الدين بلغ حد العبث والاستهتار ما ذكره تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب السبكي في كتابه معيد النعم ومبيد النقم عند الكلام عن المفتي وإليك النص^(١) « منهم (يعني المفتين) من يسهل أمر الشرع ويتناهى إلى أن يفتي ببعض ما لا يعتقده من المذاهب ويرخص لبعض الأمراء ما لم يرخص فيه لعموم الخلق بعض العلماء فيقول مثلاً لمن سأله عن انتقاض الوضوء بمس الذكر لا ينتقض عند أبي حنيفة وعن لعب الشطرنج وأكل لحوم الخيل حلال عند الشافعي وعن مجاوزة الحد في التعزيرات جائز عند مالك وعن بيع الوقف إذا خرب وتعطلت منفعته ولم يكن له ما يعمر به ؛ حلال عند أحمد بن حنبل وهكذا إلخ . ثم ذكر في نفس ذلك المعنى لبعضهم هذه الآيات :

الشافعي من الأئمة قائل	اللعب بالشطرنج غير حرام
وأبو حنيفة قال وهو مصدق	في كل ما يروى من الأحكام
شرب المثلث والمربع جائز	فاشرب على أمن من الآثام
وأباح مالك الفقاح تكرمها	في ظهر جارية وظهر غلام
والحبر أحمد حل جلد عميرة	وبذاك يستغنى عن الأرحام
فاشرب ولط وازن وقامر واحتجج	في كل مسألة بقول إمام

(١) السبكي - معيد النعم ومبيد النقم ص ١٠١ .

وهذا لعمري دليل ناصع وبرهان قاطع على وهن الوازع الديني وفساد الضمائر وضعف الإيمان لدى الناس عامة ورجال الدين خاصة . غير أن ذلك التبذل والتحلل في الأخلاق والتسامح والتهاون في الدين قد أدى إلى ظهور رجال نصبوا أنفسهم لإحقاق الحق ودحض الباطل وإعلاء كلمة الدين وذلك كشيخ الإسلام أبي الفتح تقي الدين محمد بن علي بن وهب بن دقيق العيد الذي قال عنه معاصروه بأنه العالم المبعوث على رأس المائة السابعة ولا غرو فإن ابن دقيق العيد قد وهب نفسه للدين الخفيف يدرأ عنه الترهات والأباطيل على ما سوف نبسطه عند كلامنا عنه في الفصل الثاني من هذا البحث .

الجانب الثقافي

عوامل رقي الحياة الفكرية

كانت الحركة الثقافية في هذا العصر نشيطة قوية في مصر ؛ والحياة الفكرية بوجه عام ؛ كانت على جانب كبير من الرقي والازدهار . وذلك لعوامل وأسباب خارجية وداخلية . أما الخارجية فهي أولاً : غزو التتار لشرق الدولة الإسلامية وتنكيلهم ببلاد فارس وتدميرهم^(١) ما كان فيها من حضارة ومدنية . الأمر الذي جعل أهل تلك البلاد يفرون من وجه التتار إلى مصر والشام ناشدين السلامة والأمان . ثانياً : سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ في أيدي التتار وما فعلوه بالكتب والأسفار وتنكيلهم^(٢) برجال العلم والدين . فلجأ هؤلاء أيضاً إلى مصر وفيهم العلماء والأدباء . هذا على أن أهل الأندلس في غرب الدولة الإسلامية لم يكونوا أحسن حالا في هذا العصر من أهل الشرق فقد كانت انتصارات الفرنجة تتوالى وبطشهم يتزايد في إقليم الأندلس فلذلك وجدنا كثيراً من الأندلسيين يهاجرون إلى مصر كزملائهم من أهل المشرق فممن لجأ إلى مصر من علماء المشرق

(١) ياقوت - معجم الأدباء ج ١ ص ٣١ .

(٢) مختصر أبي الفدا ج ٤ ص ١٩٤ .

وقت ذاك على سبيل المثال (الصدر^(١)) البكرى أبو على الحسن بن محمد النيسابورى ومن أهل الأندلس أبو الخطاب عمر بن حسن الأندلسى المشهور (بابن دحية)^(٢) وأثير الدين يوسف أبو حيان الغرناطى ثم إن هؤلاء كانوا يشعرون دون شك بأن عليهم واجباً وطنياً وعلمياً نحو دينهم وبلادهم فهبوا يستكثرون من التأليف والتصنيف ليعوضوا الثقافة الإسلامية ما فقدته بسبب تخريب التتار .

أما العوامل الداخلية فهي أولا : غيرة السلاطين والأمراء فقد كانوا يتعصبون للدين الإسلامى ويستमितون فى الذود عنه والدفاع عن حظيرته وبالتالي فقد كانوا يكرمون رجال الدين وأهل العلم ويهيئون لهم أسباب الدرس والتحصيل ويشجعونهم على التأليف والتصنيف . هذا وقد كان الأيوبيون والمماليك جميعاً يعظمون العلماء ورجال الدين .

ثانياً : لما شعر المصريون بخطر الوثنية التى كان يعتنقها التتار والمسيحية التى كان يحارب فى سبيلها الفرنجة والصليبيون أحس المصريون بخطر ذلك على الدين الإسلامى ، فهبوا يصنفون ويؤلفون ويضعون الكتب فى نشر الدين والمحافظة عليه . أضف إلى هذا أن الحكام شجعوا علماء أهل السنة فى محاربة العقيدة الشيعية التى كانت لا تزال فاشية فى مصر وبخاصة فى بلاد الصعيد^(٣) .

ثالثاً : استكثر الأيوبيون والمماليك من بناء المدارس وأولوها كثيراً من العناية^(٤) والاهتمام فجعلوا لها الأوقاف وأجروا عليها الأرزاق وبذلوا جهدهم فى تيسير التعلم والتعليم فيها إذ كانوا يحرون فى كرم وسخاء الأموال والأرزاق على الطلاب والمدرسين .

كما استكثروا أيضاً من إنشاء الخوانق (جمع خانقاه) وأصلها فى الفارسية

(١) السيوطى - حسن الحاضرة ج ١ ص ٢٠١ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) الطالع السعيد ص ٢٢٠ .

(٤) المقرئى - الخطط ج ٤ ص ٢٠٥ - ٢٠٩ .

مركبة من كلمتين هما خان ومصدرها خاندن ومعناه القراءة أو الذكر . والكلمة الثانية هي قاه ومعناه المكان وعلى هذا فعنى كلمة خانقاه بالعربية مكان الذكر وهي في تعبير المصريين تسمى الزاوية وشجعوا حركة التصوف^(١) وفتحوا أبواب مصر على مصراعها للوافدين عليها من الفقراء الصوفية من شرق الدولة وغربها وكانوا يبالغون في إكرام مشايخ الطرق والمريدين كفعلهم بالمدارس وطلابها ومدرسيها في غير ما فرق كبير .

هذا وقد أحصى أمين باشا سامى المدارس والمساجد والخوانق والزوايا التي أنشئت من أجل التعليم في مصر منذ الفتح الإسلامى حتى عصر ابن دقماق فقال^(٢) « ومجموع ما شيده حكام مصر للتعليم من أول الفتح الإسلامى إلى عصر المقرئى وابن دقماق من مدارس وجوامع ومساجد وزوايا وربط وخوانق مائة وخمس وخمسون . هذا ولما كان ابن دقيق العيد قد ولى التدريس في عدد من المدارس بمصر والقاهرة وأسندت إليه أخيراً مشيخة المدرسة الكاملية لذلك فإني أرى لزماً على أن أتكلم في شيء من الإيجاز عن نشأة المدارس في مصر .

نشأة المدارس في مصر ونظامها

لم يكن بمصر قبل صلاح الدين الأيوبي مدارس للتثقيف والتعليم وقراءة الحديث اللهم إلا تلك المدرسة التي أنشأها ابن سلاّر للحافظ السلّى بالإسكندرية وإنما كانت الدراسات الدينية المختلفة في المساجد والجوامع وفي دار العلم التي أنشأها الحاكم بأمر الله وسمح فيها بالمجادلات الدينية والمناظرات في المذاهب الإسلامية المختلفة . وبالرغم من أن الفاطميين اهتموا اهتماماً كبيراً بصبغ البلاد بصبغتهم المذهبية الشيعية فإن الدراسات الفقهية على مذهب الشافعى ومالك استمرت في كل البلاد المصرية كما كثرت رواية الحديث النبوى ودراسته .

(١) دكتور محمد كامل حسين - دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ص ٦٤ .

ومن يقرأ كتب التراجم والأدب وبخاصة حسن المحاضرة^(١) وكتاب في أدب مصر^(٢) الفاطمية يجد كثيراً من علماء الشافعية والمالكية ممن كانوا يلقون تعاليم مذهبهم على جماهير المستمعين في مصر دون أن يمسهم من رجال الدولة الفاطمية وخلفائها أى سوء .

ومهما يكن من أمر فإن صلاح الدين الأيوبي كان سنياً شافعيّاً فأراد أن ينشر مذهب أهل السنة وبالتالي يقاوم مذهب الشيعة الإسماعيلية . فأنشأ أول مدرسة بمدينة مصر قرب مقام الإمام الشافعي وقد عرفت هذه المدرسة باسم الناصرية أو الصلاحية نسبة إلى الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي رحمه الله . وقد درّس في هذه المدرسة ابن دقيق العيد بعد وفاة^(٣) تقي الدين ابن رزين .

ومن أمهات المدارس في عصر ابن دقيق العيد دار الحديث الكاملية وهي التي أسند إليه مشيختها سنة ٦٨٦ هـ . وقد بنى هذه المدرسة الملك الكامل سنة ٦٢١ هـ .

أما عن أنظمة تلك المدارس فإنه ينبغي أن نتأمل أولاً هذه النصوص . قال ابن دقماق في كتابه (الانتصار) أثناء كلامه على المدرسة الطبرسية ما نصه^(٤) « ثم وقفها مدرسة للفقهاء الشافعية والمالكية يجلسون الشافعية في الإيوان الغربي والمالكية في الإيوان الشرقي ورتب من كل مذهب مدرساً ومعيداً وخمسة عشر طالباً وقرن الإمامة لمعيد الشافعية المنزلين علوها للمدرسين وعمر مكتباً للسبيل وشرط لكل مدرس ستين درهماً وللمعيد الشافعية الإمام في كل شهر أربعين درهماً وللمعيد المالكي في الشهر أربعين درهماً » . وقال السبكي في كتابه « معيد النعم ومبيد النقم » في معرض حديثه عن المدارس ما نصه^(٥) : « وحق عليه (يعني

(١) ج ١ ص ٢٢٧ .

(٢) الدكتور محمد كامل حسين - أدب مصر الفاطمية ص ١٠٠ .

(٣) السيوطي - حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٦ .

(٤) ابن رقماق - الانتصار ج ٤ ص ٩٧ .

(٥) السبكي - معيد النعم ومبيد النقم ص ١٠٥ .

المدرس) أن يحسن إلقاء الدرس وتفهيمة للحاضرين ثم إن كانوا مبتدئين فلا يلتقى عليهم ما لا يناسبهم من المشكلات بل ويدربهم ويأخذ بالآهون فالآهون إلى أن ينتهوا إلى درجة التحقيق». وفي حديثه عن المعيد قال: «المعيد عليه قدر زائد على سماع الدرس من تفهيم بعض الطلبة ونفعهم وعمل ما يقتضيه لفظ الإعادة وإلا فهو والفقير سواء إلخ».

ثم قال: «والمفيد عليه أن يعتمد ما يحصل به في الدرس فائدة من بحث زائد على بحث الجماعة... إلخ».

ثم ذكر المنتهى من الفقهاء فقال «عليه من البحث والمناظرة فوق ما على دونه إلخ».

وقال السيوطي أثناء ذكره المدرسة الصلاحية ما نصه^(١) «ثم خلت (يعني المدرسة الصلاحية) من مدرّس ثلاثين سنة واكتفى فيها بالمعدين».

وبمقارنة هذه النصوص بعضها ببعض والتأمل فيها نستطيع القول بأن نظام المدارس كان يقضى آنذاك بأن يأخذ كل من الطلبة والأساتذة والمدرسين رواتب يقررها من أوقف المدرسة أو بناها من سلطان أو وزير أو أمير. هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن المنتهى في تعبيرهم من الفقهاء يساوي طالب الدكتوراه في عصرنا الحاضر وأن المفيد يساوي طالب الماجستير وأما المعيد فهو يشبه المدرس والمعيد معاً في النظام الجامعي المعاصر. وأما المدرس فهو بمثابة الأستاذ صاحب الكرسي. وأما شيخ المدرسة فهو يساوي ما نصطلح على تسميته الآن بمدير الجامعة. أما الطلبة الجامعيون فقد كانوا يطلقون عليهم اسم الفقهاء. وربما أضافوهم إلى المدرسة فيقولون فقهاء المدرسة الفاضلية أو الصلاحية مثلاً.

هذا وقد كان الأمراء والسلاطين ومنشئو المدارس يعنون عناية كبرى باختيار المعدين والمدرسين وانتقاء الشيوخ الذين يكون إليهم أمر الإشراف على أمور المدارس وشتونها وتدريس العلوم فيها فكانوا يختارون من رجال الدين واللغة وعلماء الفقه والحديث من عرفوا بالنبوغ والتفوق والصلاح والتدين من أمثال

(١) السيوطي - حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٦.

تقى الدين ابن رزين وبرهان الدين السنجارى وابن بنت الأعز وابن دقيق العيد
موضوع هذا البحث .

بعض شيوخ هذا العصر ومؤلفاتهم والوجهة الثقافية العامة

وقبل أن أتكلم عن اتجاه الثقافة في عصر ابن دقيق العيد والصبغة العلمية
فيه أذكر على سبيل المثال بعض علماء ذلك العصر وشيوخه المشهورين وأختص
منهم بالكلام هنا عز الدين بن عبد السلام شيخ بن دقيق العيد وأستاذه
الروحي^(١) وإليك ترجمته في إيجاز: « هو الإمام المجتهد القدوة عبد العزيز
ابن عبد السلام بن أبي القاسم بن حسين بن محمد بن مذهب السلمى سماه
تلميذه تقى الدين ابن دقيق العيد القشيري بسلطان العلماء لعلمه الغزير واطلاعه
الواسع وإيمانه القوى وحبته البالغة وزهده وحبه للحق . هذا وقد كانت ولادة
ابن عبد السلام في بلاد الشام سنة ٥٧٧ هـ وقيل سنة ٥٧٨ هـ . ومات رحمه الله
بالقاهرة سنة ٦٦٠ هـ أى أنه عمر نحواً من ٨٣ سنة . ومعنى هذا أنه عاصر
الدولتين الأيوبية والمملوكية كتلميذه ابن دقيق العيد وإن كانت المدة التي
قضاها في ظلال الدولة الأيوبية أكثر من الفترة التي عاشها في دولة المماليك
وذلك على العكس من حياة ابن دقيق العيد إذ قضى أكثرها في عصر المماليك
الأتراك .

وأيا ما كان فإن ابن عبد السلام عاش في بلاد الشام حتى سنة تسع وثلاثين
وسمائه ثم خرج منها إلى مصر حيث أقام بها حتى وافته المنية سنة ٦٦٠ هـ على
ما سبق أن ذكرت .

وهذا يعنى أنه أمضى في مصر نحواً من إحدى وعشرين سنة وقد ولى

(١) قد استقيته ترجمته من كتاب طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ج ٥ ص ٨٠ وفوات

الوفيات ج ١ ص ٣٦٦ . وحسن المحاضرة ج ١ ص ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٩٢ ، و ج ٢ ص ١٠٩

وتاريخ ابن اياس ج ١ ص ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠١ ، ١٢٠ .

خلالها مناصب هامة منها قضاء القضاة والتدريس بالمدرسة الصالحية . وكان إليه أمر الإفتاء فلا يجروا أحد من العلماء على الإفتاء مع وجود ابن عبد السلام في مصر والقاهرة . وكان عني الله عنه معروفاً بالمحافظة على الشريعة والتعصب في الدين والتشدد في الحق لا يرهب السلاطين ولا يخشى سطوة الأمراء . يدل على ذلك مواقفه المشهورة من الملوك والأمراء في مصر والشام . فقد حدث أن امتنع عن الخطبة للملك الصالح إسماعيل ملك دمشق وهو من أحفاد صلاح الدين الأيوبي وكان الملك الصالح هذا قد استعان بالفرنجة على منازعته من الأيوبيين فشق ذلك على ابن عبد السلام وحز في نفسه أن يتعاون سلطان دمشق مع الفرنجة ضد المسلمين فلذلك امتنع ابن عبد السلام عن الدعاء لذلك السلطان في الخطبة وكان معني هذا التصرف الذي فعله العز بن عبد السلام هو الثورة على السلطان الصالح إسماعيل وتحريض الناس على عصيانه والخروج عليه فاعتقله الصالح ولكنه عاد فأطلق صراح الشيخ ، لكيلا تستشري الفتنة وكانت تلك النبوة التي وقعت بين ابن عبد السلام والملك الصالح إسماعيل هي السبب الرئيسي في خروج الشيخ عز الدين من الشام إلى مصر .

ومن مواقفه المشهورة حيال سلاطين مصر وأمرائها قصته المشهورة مع بعض أمراء المماليك ومن بينهم نائب السلطنة فقد رأى ابن عبد السلام أن هؤلاء الأمراء ملك بيت مال المسلمين إذ لم يثبت لديه عتقهم . فأصر على بيعهم وفعلاً عرضوا في سوق الرقيق وبيعوا ووضع الثمن في بيت مال المسلمين .

ويحكى أن الظاهر بيبرس قال حين رأى جنازة ابن عبد السلام وقد خرج في تشييعها الجموع الغفيرة من أهل مصر والقاهرة قال لبعض خواصه « اليوم استقر أمرى في الملك لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس إخرجوا عليه لانتزع الملك مني » .

هذا وما يجدر قوله في هذا المقام كون ابن دقيق العيد قد أشبه أستاذه الشيخ عز الدين في التعصب للحق والتشدد في الدين ، فقد وقف ابن دقيق العيد موقفاً مشهوراً من نائب السلطنة الأمير منكوتر . إذ رفض ابن دقيق العيد قبول

شهادة نائب السلطنة حين أراد أن يثبت أخوة رجل لتاجر قد مات كى يرث ذلك الرجل تركه التاجر على ما سوف نفضله فى كلامنا عن حياة ابن دقيق العيد فى الفصل الثانى .

وهناك قصة وقعت لابن عبد السلام أيام السلطان قطز وكان ابن عبد السلام آنذاك قاضى القضاة . وتلك القصة هى أن المظفر قطز أراد أن يجمع المال من الناس لمحاربة التتار وقد طلب إلى ابن عبد السلام أن يفتى بجواز أخذ المال من الرعية فلم يجز ذلك ابن عبد السلام إلا بشرط أن يجمع الأمراء كل ما لديهم من دراهم ودنانير حتى حلى النساء ثم ينظر فإن لم يكف ذلك لتجهيز الجيش جاز للسلطان أن يأخذ المال من الرعية .

ويقال إن الأمراء قد أحضروا بالفعل جميع ما لديهم . ونفس القصة حدثت لابن دقيق العيد مع السلطان الناصر محمد بن قلاوون . فقد أراد أن يجمع المال من الرعية . وأفتى بجواز ذلك ابن الحشاش وامتنع ابن دقيق العيد على ما سوف نبسطه فى الفصل الثانى .

هذا وقد كان ابن عبد السلام عالماً مبرزاً أقر له الجميع بالفضل والتقدم فى العلم والدين والعدالة فى الحكم والنزاهة فى القضاء وإنه لم يكن يخاف فى الله لومة لائم . وقد ذكروا له كتباً ومؤلفات أربت على العشرين كتاباً منها (١) الفتاوى الموصلية (٢) ومختصر النهاية واسمه (الغاية) (٣) وشجرة المعارف (٤) والقواعد الكبرى فى الشريعة (٥) وكتاب مجاز القرآن فى الشريعة . (٦) ومختصر صحيح مسلم (٧) الإمام فى أدلة الأحكام . وبالجملة فإن كتبه لا تخرج عن دائرة العلوم الدينية إذ أن بعضها فى التفسير والحديث وبعضها فى الأصول والفقه والبعض الآخر فى التصوف . وله كتاب مشهور باسم حل الرموز ومفاتيح الكنوز وهو فى التصوف . وقد طبع هذا الكتاب فى مطبعة جريدة الإسلام بمصر سنة ١٣١٧ هـ ومعه كتاب لشيخ الإسلام زكريا الأنصارى واسمه فتح الرحمن بشرح رسالة الولي رسلان وكتاب ابن عبد السلام هذا المسمى حل الرموز ومفاتيح الكنوز يقع فى نحو ٨٦ صفحة من القطع

المتوسط وقد تصفحت هذا الكتاب وموضوعه تصوفى خلقى إسلامى . ومن يقرأ هذا الكتاب يدرك السبب الذى حدا بابن عبد السلام إلى تأليفه وهو ما كان قد شاهده من اعتراض بعض العلماء على المتصوفة وما كانوا يأتونه من سلوك وأفعال تتناقض فى ظاهرها مع ظاهر الشريعة وروح السنة والكتاب . فأراد أن يبين لهؤلاء المعارضين سر ما أنكروه على المتصوفة من أفعال وأقوال بأنفسهم وأنها بحيث تبدو غير مخالفة لكنه الإسلام وروح القرآن .

فمن تلك الأمور التى كان ينكرها أهل الظاهر على رجال التصوف ما رواه ابن عبد السلام نفسه فى مقدمة كتابه هذا عن الشيخ قضيب البان وكان ببلاد الموصل فقد ذكر ابن عبد السلام أن قضيب البان هذا لم يكن يصلى ولم يكن يتقى النجاسة وكان يظهر أمام الناس وكأنه أبله أو بعقله خلل أو خبال . فقد كان يبول على ساقه ويأوى إلى المزابل فكان الناس لذلك فى حيرة من أمره . فمن قائل إنه صديق ومن قائل إنه زنديق . ويذكر ابن عبد السلام أن قاضى المدينة مر به يوماً وهو على مزبلة فرآه وقد بال على ساقه . فقال القاضى فى نفسه : تباً لمن جعلك صديقاً وما أنت إلا زنديق فما استم الخاطر حتى قال قضيب البان يا قاضى قد أحطت بجميع علم الله ؟ فقال له لا والله . قال فأنا من ذلك العلم الذى لا تعلمه وما عليك إن كنت صديقاً أو زنديقاً . فلهذه الحالة وأشباهها وما يكتنفها عادة من غموض وما يلابسها من عبارات مبهمة على أهل الظاهر ، ألف الشيخ عز الدين كتابه هذا وقد قال بعد سرد هاتيك القصة : « فلما رأيت هذه الأقوال الصادرة عن أهل الأحوال وقد أشكل على الأفهام تعليلها وعزب عن الأفهام تأويلها أحببت أن أشرح منها ما انشرح له صدرى وسنح به فكرى وبلغ إليه قدرى » .

ومعنى هذا أن ابن عبد السلام كان يجمع بين الحقيقة والشريعة أو بين علم أهل الظاهر وعلم أهل الباطن ولا عجب فقد كان يدرس فى المدرسة الصالحية الفقه وأصول الفقه وعلوم الحديث وفى الوقت نفسه كان شيخ خانقاه سعيد السعداء وهو بهذا قد زاد على تلميذه ابن دقيق العيد إذ لم يكتب ابن دقيق العيد

في التصوف ولا تولى مشيخة خانقاه بل روى عنه ما يدل على أنه كان ينكر على المتصوفة ما كانوا يرتكبونه من أفعال وما يتفوهون به من أقوال . إذ يذكر أكثر من ترجموا لابن دقيق العيد أنه قال لتلامذته بالكاملية حين سمع متصوفاً يقول كلاماً مبهماً هل فهمتم شيئاً فقالوا لا . قال وأنا لم أفهم منه شيئاً ، وهذا يدل على أن ابن دقيق العيد لم يك من المتصوفة النظريين أو الباطنيين وإنما كان من المتصوفين العمليين على ما سوف أذكره في حديثي عنه في الفصل الثاني .

ولعل السبب في مخالفة ابن دقيق العيد أستاذه في ميدان التصوف يرجع إلى أن ابن دقيق العيد كان مصرياً صرفاً . والمصريون بطبيعتهم لا يميلون إلى التعمق والتعقيد في الآراء والأفكار بخلاف ابن عبد السلام فقد عاش جل حياته في بلاد الشام . ولعل فيما أوردته من أخبار ابن عبد السلام وذكر شيء من كتبه وبعض مؤلفاته ما يعطينا صورة توضح لنا اتجاه الثقافة والطابع العام للحركة الفكرية والعلمية في عصر ابن دقيق العيد . وهو أن جهود العلماء قد انصرفت إلى الدين واللغة وذلك بحكم الأوضاع السياسية والأحوال الدينية التي كانت تسود ذلك العصر . إذ كان الصليبيون ثم التتار قد استولوا على كثير من الأقاليم والأقطار الإسلامية حتى كادوا أن يقضوا على الدين الإسلامي ويمحوه من الوجود لولا أن الله سلم فقيض للإسلام والمسلمين أولئك الملوك والسلاطين الذين حكموا مصر من الأيوبيين ومن خلفهم من سلاطين المماليك على ما سبق أن فصلناه عند كلامنا عن الجانب السياسي من عصر ابن دقيق العيد . هذا من حيث الأوضاع السياسية .

أما من الناحية الدينية فإن روح المجتمع البشري في ذلك العصر كانت تتسم على وجه العموم بطابع الدين ، كان ذلك في البلاد المسيحية والبلاد الإسلامية على السواء ، أضف إلى هذا تلك الظاهرة التي نشأت في مصر إبان القرن السابع الهجري لدى أقباط مصر وهي طموحهم إلى الرقي بأنفسهم وبلغتهم القبطية ودينهم ، فقد كثرت مجادلاتهم ومناقشاتهم مع المسلمين المصريين وقد كان من جراء ذلك أن ارتد عن الإسلام بعض ضعاف النفوس ممن كانوا

من قبل أقباطاً واعتنقوا الإسلام . فمن أجل ذلك هب المسلمون يجادلون النصارى من الأقباط ومن كان يؤيدهم في ذلك من اليهود ويدحضون حججهم دفاعاً عن الدين الإسلامي على ما سبق أن ذكرناه عند كلامنا عن الحياة الدينية للمجتمع المصري في عصر ابن دقيق العيد .

فلذلك كله وجدنا العلماء والمفكرين يتجهون بكليتهم إلى الاهتمام بعلوم الدين وتبيان أحكام الشريعة الإسلامية وتلريس الحديث والفقه وغير ذلك من العلوم الدينية . وقد اهتموا تبعاً لذلك بالعلوم اللغوية والنحو والبلاغة . فظهر في النحو والعربية من العلماء الأعلام كالشيخ زكى الدين بن أبى الإصبع المشهور في علوم البلاغة . وكالشيخ شرف الدين المرسى أستاذ ابن دقيق العيد في العربية . وكأبى حيان أثير الدين الغرناطى تلميذ ابن دقيق العيد . فقد برز هذا أيضاً في علم النحو والصرف وقواعد العربية وقد لقب بالنحوى . فما من أحد يذكره من المؤرخين إلا قال عنه إنه أثير الدين أبو حيان النحوى .

هذا ومن مؤلفات ابن دقيق العيد وابن عبد السلام وغيرهم نستطيع أن نقول إن التأليف في هذا العصر كان في أكثره إما شرحاً لمصنفات ألفها السابقون أو اختصارات لكتبهم . والسبب في ذلك راجع إلى أن العلوم الشرعية واللغوية والفلسفية كانت قد نضجت ولم يبق ثمة مجال لأن يأتي فيه أهل القرنين السابع والثامن بجديد إذ كان النحو قد تكامل وانفصل عنه الصرف وأصبح علماً مستقلاً ، وعلوم البلاغة قد نضجت باتجاهيها الفلسفى الممثل في كتب سعد الدين التفتازانى والخطيب القزوينى . والأدبى الممثل في مؤلفات عبد العزيز الجرجانى وأبى هلال العسكري وإن كان ابن أبى الأصبع قد أوجد جديداً في البلاغة فإنما هي محسنات استنبطها من تلك المصطلحات العامة التى وضعها من سبقوه وكذلك كان الحال في علم الفقه وأصول الفقه وكتب الحديث وعلم الكلام فكل هذه العلوم كانت قد أفلحت بمؤلفات السابقين ومصنفاتهم .

أما في فن التاريخ فالمعروف عن المصريين أنهم أكثر شعوب الأرض اهتماماً بالتاريخ وتدوينه وعرفوا بذلك منذ أقدم العصور .

وأكثر من هذا فقد كان للمصريين فضل كبير في ظهور فن السير الذى تحدثوا فيه عن أبطالهم وملوكهم وعظماء رجالهم من العلماء والحكماء ورجال الدين أو القادة المحاربين . وقد تجلى تطور عناية المصريين بالتاريخ على اختلاف أنواعه وتعدد فروعها في العصر الإسلامى منذ القرن الثانى للهجرة . وقد استمر نشاط هؤلاء المؤرخين قوياً وظل تيارهم جارفاً في العصر الإسلامى وبخاصة حين استشعرت مصر ذاتيتها المستقلة في ظل الإخشيديين فمنذ ذلك الحين قوى نشاط المؤرخين المصريين وعظمت عنايتهم بمصر والشام على وجه الخصوص^(١) . أعنى أنهم لم يكونوا يحفلون فيما يكتبونه أو يدونونه من كتب تاريخية بالدول الإسلامية الأخرى أى أنهم قصروا عنايتهم على مصر والشام وحدهما دون غيرها من الأقطار الإسلامية الأخرى لأن كلا من مصر والشام يعتبر جزءاً متمماً للآخر على ما سبق أن فصلناه في حديثنا عن مكانة مصر وعلاقتها الخارجية أثناء كلامنا عن الأوضاع السياسية .

ولسنا هنا بصدد تتبع الحركة التاريخية في مصر وبيان ما وضع في ذلك من مؤلفات ومصنفات أو من ظهر في علم التاريخ من علماء أعلام في مختلف العصور وإنما نحن بصدد عصر معين بالذات وأعنى به تلك الحقبة التى عاشها ابن دقيق العيد وهى تنتظم القرن السابع إلا أقله وأوائل القرن الثامن الهجرى فى هذا العصر ظهر عدد كبير من المؤرخين ومن كتاب السير نذكر منهم على سبيل المثال لا على سبيل الحصر هذه المجاميع الكثيرة لتراجم العلماء مثل معجم الشهاب القوصى وشرف الدين الدمياطى ، ومعجم عبد اللطيف المنذرى كما كثر الحديث عن سيرة الرسول شعراً ونثراً وكتب تراجم المحدثين كما كثرت كتب المناقب ولعل أشهر المؤرخين الذين ظهوروا في مصر في حياة ابن دقيق العيد هو القاضى محيى الدين عبد الله بن عبد الظاهر المولود بالقاهرة سنة ٦٢٠ هـ والمتوفى سنة ٦٩٢ هـ وقد تولى القضاء ورياسة ديوان الرسائل للملك الظاهر . وقد وضع هذا القاضى عدة كتب تاريخية نذكر منها الروضة البهية الزاهرة والخطط المعزية القاهرة . والظاهر من اسم هذا الكتاب المفقود أنه حلقة من سلسلة حلقات

(١) محمد كامل حسين - الدكتور - أدب مصر الفاطمية ص ١٨ .

فن الخطط وهو ذلك الفن المصرى الخالص الذى بدأ به عبد الرحمن بن عبد الحكيم فى كتابه فتوح مصر ، وتحدث فيه عن خطط القسطنطينية وتبعه عدد من المؤرخين المصريين الذين تحدثوا عن الخطط أيضاً إلى أن جاء ابن عبد الظاهر وتحدث عن خطط القاهرة . ولابن عبد الظاهر كتاب آخر فى فن السير هو كتاب سيرة الظاهر بيبرس وهو غير السير الشعبية المعروفة . وله كتاب ثالث اسمه الألفاظ الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية وهو فى أخبار مصر فى عهد الأشرف خليل قلاوون انتهى به إلى حوادث سنة ٦٩٠ هـ كما كتب ابن الزبير تاريخ أسوان . ووضع فخر الدين النابلسى تاريخ الفيوم انتهى فيه بحوادث سنة ٦٤١ هـ .

أما ابن العماد الإسكندرانى المتوفى سنة ٦٧٣ هـ فقد وضع كتاباً فى تاريخ الإسكندرية ، ووضع يحيى بن حميدة المتوفى سنة ٦٤٠ هـ كتاباً فى تاريخ مصر العام مرتباً على حسب السنين كما وضع جمال الدين القفطى المتوفى سنة ٦٤٦ هـ كتاباً فى تاريخ مصر انتهى به إلى حكم صلاح الدين الأيوبي وكتب عبد الله ابن محمد المعروف بابن ميسر المتوفى سنة ٦٧٧ هـ كتابه تاريخ مصر جعله وفقاً على تاريخ الفاطميين . وكتب واصل بن الحموى المتوفى سنة ٦٩٧ هـ كتابه المعروف مفرج الكروب فى دولة بنى أيوب .

ومن هذا كله نستطيع أن ندرك أن المصريين عنوا فى هذه الفترة بتاريخ بلدهم ورجالهم شأنهم فى ذلك شأنهم فى كل العصور التاريخية .

وبالجملة فقد ظهر فى علم التاريخ والتراجم كتب كثيرة فى هذا العصر وكانت ذات اتجاهات مختلفة متغايرة من حيث الموضوع ، فمنها ما كان عاماً يشمل الدول والملوك وتراجم الأعيان ككتاب تاريخ مصر ليحيى بن حميدة ، ومنها ما كان خاصاً بإحدى المدن أو البلدان المصرية ككتاب تاريخ الإسكندرية لابن العماد ، ومنها ما كان قاصراً على تراجم الأعلام وسير الرجال وهذه بدورها متعددة أيضاً من حيث الموضوع فمنها ما كان عاماً ينتظم تراجم المشاهير والأعلام على اختلاف طوائفهم وأشكالهم وما كانوا يتمتعون إليه من المناصب والمراتب

أو العلوم والفنون وذلك ككتاب البدر السافر وتحفة المسافر وهو في تراجم مشاهير القرن السابع للإدقوى . ومنها ما كان خاصاً بأحد الأعيان أو المشاهير من العلماء أو العظماء أو الملوك والسلاطين وذلك ككتاب سيرة الظاهر بيبرس للقاضي محي الدين عبد الله بن عبد الظاهر ، ومنها ما كان وقفاً على تراجم وسير علماء إقليم خاص ككتاب الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد للعلامة كمال الدين الإدقوى .

هذا والصفة العامة التي نجدناها في جميع مؤلفات ذلك على اختلاف أنواعها وتعدد موضوعاتها سواء أكانت دينية أو لغوية أو تاريخية هي صبغة النقد الحر الدقيق . فالمؤرخ إذا ترجم لأحد سواء أكان عالماً أو أميراً معاصراً أو غير معاصر نقده في غير خوف ولا وجل ولا مدهانة ولا مراة . فالصفي مثلاً إذا ترجم لعالم أو أديب أكثر من ذكر كتبه وأشعاره ثم أصدر حكمه عليها بالحسن أو القبح مع ذكر الشواهد والأدلة . وابن فضل الله العمري في كتابة مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لا يتورع من ذكر عيوب من تصدى لترجمتهم وذكر أحوالهم فهو مثلاً حين ترجم لابن دقيق العيد وصفه بما يشبه المجنون ويقرب من الخلاعة وعدم الاكتراث بفضائل الأخلاق إذ قال عنه « إنه كان كثير التسرى والتمتع وكان يشتري الجوارى بالدين إلى أجل فإذا حان وقت أداء الدين ماطل حتى تأخذ الأريحية أصدقاءه ومحبيه فيقضون عنه الدين » .

هذا عن صفة النقد في كتب التاريخ وتراجم الأشخاص . أما في كتب الفقه والتوحيد والحديث وغير ذلك من العلوم الدينية والشرعية ، فإن صفة النقد تتجلى في كل فصل وباب بل في كل جملة من جملها . فإذا كان المؤلف شارحاً فإنه ينقد صاحب المتن الذي تصدى لشرحه أو المصنف الذي اطلع باختصاره إن كان مطولاً أو بسطه إذا ما كان مختصراً والشارح أو المختصر أو صاحب الحاشية لا يتسامح في عبارة النقد بل ينقد في شدة وعنف وتحمس شديد . وأسلوبهم في النقد لا يزال قائماً حتى عصرنا هذا . وهو يتمثل في الطريقة التي ينتهجها أساتذة الأزهر في التأليف والتدريس فتراه يقول إذا وجد

مطعناً تلمسه تلمساً أو عثر عليه بعناء في كتاب من سبقه قال هذه العبارة المشهورة .

أما قوله كذا يعنى المصنف أو المؤلف أو صاحب المتن فإنه خطأ من وجهين أو وجوه ثم يسترسل في تبيان الوجوه والأدلة التي يعتمد عليها في حكمه بتخطيء ذلك المؤلف . وإذا أراد شرح مسألة أو تفصيل قضية . قال مثلاً الكلام في هذه المسألة أو البحث فيها من عدة وجوه وإليك مثلاً ما جاء في كتاب « إحصاء الأحكام شرح عمدة الأحكام » لشيخ الإسلام تقي الدين محمد ابن علي ابن وهب المشهور بابن دقيق العيد وهو مدار هذا البحث وموضوعه . قال ^(١) في شرحه الحديث الثاني من كتاب الطهارة بعمدة الأحكام للحافظ عبد الغنى المقدسى والحديث هو عن أبي هريرة رضى الله عنه أنه قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ » قال ابن دقيق العيد بعد أن ترجم لأبي هريرة راوى ذلك الحديث ما نصه والكلام عليه من وجوه (يعنى الحديث المذكور) .

أحدها — « القبول » وتفسير معناه . قد استدل جماعة من المتقدمين بانتفاء القبول على انتفاء الصحة ، كما قالوا في قوله صلى الله عليه وسلم « لا يقبل الله صلاة حائض إلا بنحو » أى من بلغت سن الحيض .

والمقصود بهذا الحديث الاستدلال على اشتراط الطهارة من الحدث في صحة الصلاة ، ولا يتم ذلك إلا بأن يكون انتفاء القبول دليلاً على انتفاء الصحة . وقد حرك المتأخرون في هذا بحثاً . لأن انتفاء القبول قد ورد في مواضع مع ثبوت الصحة كالعبد إذا أبق لا تقبل له صلاة وكما ورد فيمن أتى عراًفاً ، وفي شارب الخمر .

فإذا أريد تقرير الدليل على انتفاء الصحة من انتفاء القبول فلا بد من تفسير معنى القبول . وقد فسر بأنه ترتب الغرض المطلوب من الشيء على الشيء

(١) إحصاء الأحكام شرح عمدة الأحكام ص ١٢ ، ١٣ .

يقال . قبل فلان عذر فلان ، إذا ترتب على عذره الغرض المطلوب منه وهو محو الجناية والذنب .

فإذا ثبت ذلك فيقال مثلا في هذا المكان الغرض من الصلاة وقوعها مجزئة بمطابقتها للأمر ، فإذا حصل هذا الغرض ثبت القبول على ما ذكر من التفسير وإذا ثبت القبول على هذا التفسير ثبتت الصحة وإذا انتفى القبول على هذا التفسير انتفت الصحة وربما قيل من جهة بعض المتأخرين . أن « القبول » كون العبادة بحيث يترتب الثواب والدرجات عليها « والأجزاء » كونها مطابقة للأمر والمعنيان إذا تغaira ، وكان أحدهما أخص من الآخر ، لم يلزم من نفي الأخص نفي الأعم « والقبول » على هذا التفسير أخص من الصحة فإن كل مقبول صحيح وليس كل صحيح مقبولا . . . إلخ .

من هذا النص نستطيع أن نتمثل في وضوح وجلاء أسلوب الفقهاء ذلك في شرح المسائل وبسط القضايا وفي أسلوب الدرس والإملاء وطريقة التأليف والتصنيف وهو أسلوب كما ترى قائم على البحث العميق والتحقيق والاستطراد في الشرح والتبيان وبالجملة فقد كان أسلوب المؤلفين والمدرسين في ذلك العصر يتسم بطابع النقاش والجدل وكثرة الاحتجاج والاستدلال .

الحركة الأدبية .

أما الحركة الأدبية في هذا العصر فقد كانت نشطة قوية على جانب عظيم من الإبداع والإبداع ، أو قل الرقي بوجه عام .

فقد أجاد شعراء ذلك العصر وكتابه وخطباؤه وكانت لهم صفة التميز والاستقلال فلم يكونوا مقلدين إلا في القليل من النثر كتلك السجعات التي كانت ترد في الرسائل التي كان ينشئها كتاب ديوان الإنشاء باسم السلطان أو الخليفة بشأن تقليد للسلطان أو وزير أو أمير أو أحد القضاة ولكنها أعنى تلك الرسائل التي كتبت في هذا العصر أو النثر الفني بوجه عام فإنها كانت وليدة

العصر والوقت والزمان والمكان . ونفس الأحداث التي كانت سبباً في إنشاء ذلك الكتاب أو تلك الرسالة ، فمثلاً كتاب ابن دقيق العيد الذي كتبه إلى نوابه في الوجهين القبلي والبحري تبدو فيه الجودة والروعة ولا تكلف فيه وإن وجدت فيه سجعات فهي عفو الخاطر لا تكلف فيها ولا اصطناع . وقد ذكرت رسالة ابن دقيق العيد تلك في الفصل الرابع من هذا البحث . والذي تحدثت فيه عن أدبية ابن دقيق العيد وشاعريته . أما شعر هذا العصر فهو أيضاً شعر له تميزه وشخصيته وكيانه الذاتي المستقل عن شعر العصور السابقة .

اللهم إلا تلك المدائح التي قبلت في مدح الرسول عليه السلام فإنها كانت في أكثرها على غرار قصائد العصر العباسي الأسبق .

أما المقطعات والقصائد الأخرى التي أنشئت في مختلف الموضوعات الأخرى كالغزل والأحماض والتفكه ووصف الطبيعة وذكر الوقائع الحربية والمعاتبة وحتى ما قيل في ذكر الأماكن المقدسة وأرض الحجاز وجزيرة العرب والحنين إلى تلك الأمكنة فإنها كانت في أسلوبها وطابعها وصور تعبيرها وليدة عصرها . وإليك مثلاً هذه المقطوعة التي أنشدها ابن دقيق العيد في الحنين إلى الأماكن المقدسة وأرض الحجاز قال رحمه الله :

تهيم نفسي طرباً عندما	أستلمح البرق الحجازياً
ويستخف الوجد عقلي وقد	أصبح لي حسن الحجازيا
يا هل أقضى حاجتي من منى	وأنحر البزل المهاريا
وأرتوى من زمزم فهو لي	ألد من ريق المهاريا

فهذا شعر كما ترى يطرق الموضوع مباشرة من غير ما ديباجة ولا تقديم فشاعر هذا العصر عصر ابن دقيق العيد لم يكن يقدم بين يدي موضوع قصيدته شيئاً مما جرى عليه الشعراء السابقون من النسيب والتشبيب أو الحل والترحال وذكر النوق والحيام أو الصحارى والقفار .

هذا ومما امتاز به هذا العصر ذلك الأدب الشعبي الذي كان يسميه المصريون آنذاك بالزكالكش وكان على أربعة أنواع هي الزجل والبليق والقرقى والمكفر .

حسب تعبير صاحب كتاب العاطل الحال والمرخص الغالى^(١) . على ما سوف أذكره بشيء من التفصيل في موضعه من الفصل الرابع إن شاء الله .

الفصل الثاني ابن دقيق العيد

نسبه - مولده - حياته بوجه عام

نسبه

ترجم له العلامة شمس الدين الذهبي في كتابه تذكرة الحفاظ فقال^(١) :
تقى الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري المنفلوطي الصعدي
المالكي الشافعي إلخ .

أما الإدقوي فقال في ترجمته ما نصه^(٢) : محمد بن علي بن وهب بن مطيع
ابن أبي الطاعة القشيري تقى الدين ذاتاً ونعتاً إلخ .

أما ابن فضل الله العمري فقد قال في كتابه مسالك الأبصار ما نصه^(٣) :
القاضي أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع بن أبي الطاعة القشيري
المنفلوطي الصعدي المالكي والشافعي تقى الدين . . إلخ .

هذا وقد ترجم له صلاح الدين الصفدي في كتابيه الوافي بالوفيات وأعيان
العصر فقال ما نصه^(٤) : محمد بن علي بن وهب بن مطيع الإمام العلامة شيخ
الإسلام أستاذ المتأخرين قاضي القضاة تقى الدين أبو الفتح بن الشيخ الإمام
مجد الدين المعروف بابن دقيق العيد القشيري المنفلوطي المصري المالكي
الشافعي إلخ .

وترجم له أيضاً كل من تاج الدين عبد الوهاب السبكي في كتابه « طبقات
الشافعية الكبرى^(٥) » والعلامة عبد الرحيم الإسنوي في كتابه المسمى أيضاً
بطبقات الشافعية^(٦) ، والعلامة تقى الدين أحمد بن علي الشهير بالمقريني

(١) انظر ج ٤ ص ٢٧٢ .

(٢) الطالع السعيد ص ٣١٧ .

(٣) مسالك الأبصار ج ٣ لوحة ٤٢٣ .

(٤) الوافي بالوفيات ورقة ٩٥٧ ج ٢ وأعيان العصر ج ٦ لوحة ٨١ .

(٥) ج ٦ ص ٢ .

(٦) ورقة ١١٤ .

في كتابه المقفى^(١) وابن حجر العسقلاني في كتابيه «الدرر الكامنة»^(٢) في أعيان المائة الثامنة ورفع الأصر^(٣) عن قضاة مصر وابن تغرى بردى في كتابيه «النجوم الزاهرة»^(٤) والمنهل الصافي^(٥) وغير هؤلاء كثير ولكن من ذكرت هم العدول الثقات المعول على كلامهم والمحتج بأقوالهم وهم جميعاً يتفقون على أن نسب ابن دقيق العيد هو هكذا «محمد بن علي بن وهب بن مطيع بن أبي الطاعة القشيري المنفلوطي المصري القوصي» ، ولقبه تقي الدين وكنيته أبو الفتح ، ولقب أبيه إجمد الدين وكنيته أبو الحسن ، وكنية جده أبو العطايا وهو مشهور بابن دقيق العيد وذلك باتفاق جميع من ترجموا له أيضاً . ويذكر الإدفوى في ترجمته لعلي بن وهب ابن دقيق العيد والد شيخنا تقي الدين أن جده^(٦) مطيع كان يلبس في يوم عيد طيلساناً أبيض ف قيل كأنه دقيق العيد فسمى به أي أن مطيعاً هذا عرف بدقيق العيد . ولما كان علي بن وهب حفيده دعاه الناس بابن دقيق العيد ومن هنا كانت شهرة الشيخ تقي الدين بابن دقيق العيد .

أما تسميته بالقشيري فلأنه من أحفاد المحدث بهزر بن حكيم علي ما ذكره ابن حجر في كتابه «الدرر الكامنة»^(٧) . وبهزر بن حكيم هذا من قبيلة قشير ابن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة وقد ذكره ابن الأثير في كتابه «اللباب في تهذيب الأنساب» فقال^(٨) «القشيري بضم القاف وفتح الشين وسكون الياء تحتهما نقطتان وفي آخرها راء . هذه النسبة إلى قشير بن كعب ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة قبيلة كبيرة ينسب إليها كثير من العلماء منهم

(١) ج ٢ لوحة ١٦٥ .

(٢) ج ٤ ص ٩١ .

(٣) ورقة ٢٤٧ .

(٤) ج ٨ ص ٢٠٦ .

(٥) ج ٣ ورقة ٢١٩ .

(٦) الطالع السعيد ص ٢٣٧ .

(٧) ج ٤ ص ٩٣ .

(٨) ج ٢ ص ٢٦٤ .

بهر بن حكيم بن معاوية بن حيدة القشيري يروى عن أبيه وعن جده وعن
زرارة بن أوفى . روى عنه الثوري والحماذان وغيرهم وكان كثير الخطأ واحتج به
أحمد بن حنبل وابن راهويه .

ومعنى هذا أن شيخنا تقي الدين سليل العلماء الأعلام من الفقهاء والمحدثين
وقد نسب إلى منفلوط لأن أباه علي بن وهب ولد فيها^(١) ونشأ وترعرع بين
ربوعها حتى ولي الحكم فيها كما نسب إلى قوص أيضاً لأنه نشأ بها علي ما سوف
ما نذكره ثم إلى مصر لأنه استقر بها في أخريات حياته حيث أسند إليه
منصب قاضي القضاة وظل كذلك حتى مات رحمه الله وعفى عنه . هذا من
جهة أبيه . أما من جهة أمه فإنها كانت بنت الشيخ الصالح التقي الورع الزاهد
مفرج بن موفق بن عبد الله الدماميني وقد ترجم له صاحب الطالع السعيد^(٢)
فوصفه بالعلم والفضل فأصلاه على حد تعبير السبكي كريمة^(٣) .

مولده

وكان مولد الشيخ تقي الدين محمد بن علي بن وهب بن دقيق العيد في
الخامس والعشرين من شهر شعبان سنة ٦٢٥ هـ على ثبج البحر وأبواه متوجهان
إلى الحجاز بالقرب من ساحل ينبع .

وقد ذكر ذلك المقرئ في كتابه (المقنى) فقال ما نصه « ولد وأبواه^(٤)
متوجهان في بحر الملح إلى الحجاز على ثبج البحر في يوم السبت الخامس
والعشرين من شعبان سنة ٦٢٥ هـ فلما قدم أبوه مكة حملة وطاف به البيت
وسأل الله أن يجعله عالماً عاملاً .

(١) الطالع السعيد ص ٢٣٦ .

(٢) ص ٣٦٩ .

(٣) الطبقات ج ٦ ص ٣ .

(٤) ج ٢ لوحة ١٦٥ .

وأما الإسنوي فقد قال ما نصه ^(١) « ولد رحمه الله على ظهر الماء المالح قريباً من ساحل ينبع وأبواه متوجهان من قوص للحج ولهذا كان يكتب الثبجي والثبج بالثاء المثلثة والباء الموحدة والجيم هو الوسط وكانت ولادته يوم السبت الخامس والعشرين من شعبان سنة ٦٢٥ هـ بناحية ينبع .

هذا وقد ذكر مولده أبو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى فى كتابه « شذرات الذهب فى أخبار من ^(٢) ذهب » فقال « ولد فى شعبان سنة ٦٢٥ هـ وتفقه على والده . . إلخ .

أما شمس الدين الذهبى فقد قال فى كتابه « تذكرة الحفاظ ^(٣) » ولد فى شعبان سنة ٦٢٥ هـ بقرب ينبع من لحجاز .

أما عبارة ابن فضل الله العمرى فهذا نصها قال ^(٤) « ولد فى شعبان سنة ٦٢٥ هـ بقرب ينبع من أرض الحجاز .

وأما رواية ابن حجر العسقلانى فى كتابه « رفع الإصر عن قضاة مصر » فهى ^(٥) « ولد بطريق مكة فى المحرم سنة ٦٢٥ هـ ويقال أن والده طاف به على يديه ودعا له بالعلم والعمل » .

أما فى كتابه « الدرر الكامنة » فقد قال ^(٦) « ولد فى شعبان بناحية ينبع فى البحر سنة خمس وعشرين وسبائة » .

أما الإدقوى فقد قال فى الطالع السعيد ^(٧) « ولد الشيخ تقي الدين ووالده متوجه إلى الحجاز الشريف فى البحر المالح فى يوم السبت ١٥ شعبان سنة ٦٢٥ هـ بساحل ينبع رأته بخطه الثبجي » .

(١) ورقة ١١٤ .

(٢) ج ٦ ص ٥ .

(٣) ج ٤ ص ٢٧٢ .

(٤) مسالك الأبصار ج ٣ قسم ٣ لوحة ٤٣٥ .

(٥) ورقة ٢٤٧ - ٢٥٠ .

(٦) ج ٤ ص ٩١ .

(٧) ص ٣١٧ .

هذا ورواية ابن تغرى بردى فى كتابه « المنهل الصافى هذا نصها^(١) » ولد سنة ٦٢٥ هـ بناحية ينبع .

فها أنت ذا ترى جميع الروايات التى أوردناها تتفق على أن مولد ابن دقيق العيد كان فى شعبان سنة ٦٢٥ هـ . وأن ذلك كان فى البحر وأبواه متوجهان إلى الحجاز لأداء فريضة الحج . وقد شذ عن هذا الإجماع (رفع الإصر) إذ ذكر أن مولده كان فى شهر المحرم من السنة نفسها وهى رواية غير صحيحة لا يعول عليها لأمرين : أولهما هو أن جميع الذين كتبوا عن ابن دقيق العيد اتفقوا على أن مولده كان فى شهر شعبان من السنة المذكورة ومن بينهم من عاصروا ابن دقيق العيد وخالطوه كصاحب الطالع السعيد العلامة الإدقوى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ أى بعد موت ابن دقيق العيد بست وأربعين عاماً . وكذلك الحافظ شمس الدين الذهبى فقد ذكر فى ترجمته لابن دقيق العيد أنه سمع من لفظه يعنى أنه سمع الحديث من لفظ ابن دقيق العيد مباشرة . والأمر الثانى هو أن جميع الروايات تتفق على أن ابن دقيق العيد ولد وأبواه متوجهان إلى الحجاز بقصد الحج . وذلك لا يكون فى شهر المحرم ولكن يكون فى شهر شعبان ولعل هذه الرواية قد وقع فيها الخطأ لا من جانب المؤلف وهو ابن حجر العسقلانى ولكن من جانب أحمد بن على السبكى الذى كتب النسخة لنفسه بخطه هو بدليل أن صاحب رفع الإصر ذكر فى الدرر الكامنة أن مولد ابن دقيق العيد كان فى شعبان وإذا فرواية رفع الإصر لا يعول عليها لما قدمت .

حياته بوجه عام

هذا وبعد أن تقصيت أحواله واستقصيت أخباره ووقفت على ما أمكن الوقوف عليه من آثاره أستطيع أن أقول إن حياة ابن دقيق العيد ذات أطوار ثلاثة :

الأول : أيام الطلب أو عهد التلمذة وفق تعبير عصرنا الحاضر .

الثانى : تصديّه للتدريس والإملاء .

الثالث والأخير : أيام القضاء وسأبدأ الحديث عنه في طوره الأول .
 فالثاني والثالث مسائراً له وفق حياته وواقع عيشه الطبيعي فأقول نشأ الشيخ
 تقي الدين في بيت من أشرف بيوتات الصعيد وأكرمها حسباً ونسباً وأشهرها علماً
 وأدباً وأرفعها مقاماً وأسماءها منزلة ولا عجب فقد كان أبوه شيخ الإسلام
 أبو الحسن علي بن وهب مشهوداً له بالتقدم^(١) على غيره في الحديث والأصول ،
 وفقه المالكية وكان ملقباً بمجد الدين وكذلك جده لأبيه وهب بن مطيع فقد
 عرف بالعلم والفضل والتقى والورع والبذل والسخاء وكان يدعى بأبي العطايا
 وكذلك كان حاله من جهة أمه فهي أيضاً كريمة المحتد شريفة النجار وكفاها
 أن أباها الشيخ الإمام المحقق تقي الدين بن المفرج الذي شدت إليه الرحال
 وقصده طلاب العلم من كل مكان .

وكانت نشأته رحمه الله في مدينة قوص بصعيد مصر وكانت آنذاك
 لا تقل كثيراً عن مصر أو القاهرة من حيث وفرة رجال العلوم الدينية واللغوية
 وقد كثر فيها المدارس ودور الحديث ومن بينها دار الحديث التي كانت في
 بيت لابن دقيق العيد .

ولعل سبب ازدهار قوص في هذا العصر وارتقائها في مضمار العلم ودنيا
 الثقافة راجع إلى أسباب ثلاثة أولها أن قوص أصبحت بعد أن سيطر الصليبيون
 والفرنجة على الكرك والعقبة طريق الحج الأمين . والثاني أنها كانت بعيدة عن
 غارات الفرنجة ومعارك الحروب فقد كانت كلها تدور إما في المنصورة
 والإسكندرية أو دمياط ورشيد . أما الوجه القبلي فقد كان بعيداً عن ذلك كله
 فكان يظله على وجه العموم الهدوء والاستقرار إذ لم يكن في يوم من أيام هذا
 العصر مسرح حرب أو قتال وأهل العلم ورجال الثقافة ينشدون دائماً الهدوء
 والاطمئنان والثالث هو أن قوص كانت في ذلك الحين قاعدة لنشر مذهب
 السنة ومقاومة مذهب التشيع الذي كان سائداً في أكثر بلدان الصعيد .

وأيا ما كان فقد كان البيت الذي انحدر منه ابن دقيق العيد بيت علم

(١) الطالع السعيد ص ٢٢٩ .

ومعرفة وكذلك كانت المدينة التي نشأ فيها مدينة علم ومعرفة أتاها العلماء والشعراء من شتى البقاع مقيمين أو عابرين وكذلك أمها طلاب العلم وعشاق المعرفة من مختلف الديار والأصقاع ولم يختلف أحد ممن أرخوا لابن دقيق العيد أو ترجموا له في أنه نشأ بقوص ما عدا أبا المحاسن ابن تغرى بردى فقد ذكر في كتابه المنهل الصافي أنه نشأ بالقاهرة وهي رواية لا يعول عليها لأمرين .

أحدهما — أن الشيخ مجد الدين على بن وهب والد شيخنا ابن دقيق العيد كان مقيماً في قوص وليس في القاهرة .

الثاني — هو أن جميع الذين تلمذوا له مباشرة أو تلمذوا لمن أخذوا عنه أو كانوا يعيشون في النصف الأول من القرن الثامن ممن ترجموا له قالوا إنه نشأ في قوص .

فالذهبي والإدقوي والصفدي وابن فضل الله العمري وغيرهم كثير وهم أسبق من ابن تغرى بردى في الزمن وأصدق منه حديثاً وأصح خبراً . ومهما يكن من أمر فقد نشأ ابن دقيق العيد في قوص على حالة واحدة من الصمت والاشتغال بالعلوم ولزوم الصيانة والديانة والتحرز في أقواله وأفعاله والبعد عن النجاسة متشدداً في ذلك . وقد حكى زوجة أبيه أم أخيه الشيخ تاج الدين بنت البيقاش قالت ^(١) « بنى عليّ والده والشيخ تقي الدين ابن عشر سنين فرأيتة ومعه هاون وهو يغسله مرات زمناً طويلاً فقلت لأبيه ماذا يفعل هذا الصغير فقال له يا محمد أى شيء تعمل . فقال أريد أن أركب حبراً وأنا أغسل هذا الهاون .

وهذا غاية في التطهير والبعد عن النجاسة وسر ذلك فرط التدين الأمر الذي جعل الوسواس يلزمه طيلة حياته . هذا وقد بدأ ابن دقيق العيد حياته العلمية بقراءة كتاب الله العظيم حتى حصل منه على حظ جسيم ثم درس فقه المالكية على أبيه وفقه الشافعية على تلميذ أبيه البهاء القفطى ودرس أثناء إقامته في قوص النحو وعلوم اللغة وقد قرأ العربية على الشيخ محمد أبي الفضل المرسى وحضر عند شمس الدين محمود الأصبهاني لما كان حاكماً بقوص وسمع دروسه وكان

أبعد ما يكون عن العبث ودروب اللهو وقد ذكروا أنه لعب مرة الشطرنج مع زوج أخته تقي الدين بن ضياء الدين فلما حان وقت العشاء قاما فصليا ثم قال ابن دقيق العيد لصهره نعود إليها يعني الشطرنج فقال له صهره إن عادت العقرب عدنا إليها يعني الشطرنج فلم يلعبها بعد مدى الحياة .

وهذا يعني أنه كان مثال الجهد والاجتهاد من جهة وأنه ينتصح وينصاع لقول الخير من جهة أخرى .

وقد حكى أنه كان في مجلس شرف الدين^(١) أبو الفضل محمد المرسى فسألهم عن شيء في النحو فسكت من بالمجلس فقال شرف الدين المرسى أراني أتكلم مع حمير . فلم يعد ابن دقيق العيد إلى مجلسه بعد أن سمع منه ذلك .

وهذا يدل على مدى محافظته على العزة والكرامة ثم ارتحل إلى القاهرة حيث اتصل بالشيخ العز عبد العزيز بن عبد السلام ولازمه حتى مات رحمه الله . وقد أخذ عنه الأصول وفقه الشافعي وعلماً كثيراً لكنه كان في أثناء حضوره على ابن عبد السلام يتردد إلى قوص وفي سنة ٦٦٠هـ^(٢) ارتحل إلى دمشق حيث سمع من أحمد بن عبد الدايم والزين خالد وغيرهما وعاد بعد ذلك إلى مصر وزار شيخه البهاء الذي كان قد استقر في إسنا وصادف أن تهيأت أثناء زيارته لشيخه المدرسة المجدية^(٣) للدراسة فطلب إليه واقفها أن يدرس بها بغية التبرك فأجابه ابن دقيق العيد إلى طلبه وكان أول من درس بتلك المدرسة^(٤) .

وهذا يدل على مدى ما عرف به ابن دقيق العيد من التقى والصلاح في أثناء الطلب والتحصيل .

(١) الطالع السعيد ص ٣٢٦ .

(٢) ج ٢ لوحة ١٦٥ المقتنى .

(٣) بنيت سنة تسعين الطالع السعيد ص ٤٠١ .

(٤) طبقات الشافعية ورقة ١١٦ .

المرحلة الثانية من حياته

ثم عاد إلى قوص وأخذ يدرس بالمدرسة النجيبية^(١) وبدأ المرحلة الثانية من حياته وهى مرحلة التدريس والإملاء وكان ذلك وسنه لم تتجاوز بعد السابعة والثلاثين ويقول الإسئوى^(٢) إنه ولى قضاء قوص على مذهب المالكية لما كانت بقية المذاهب الفقهية تشرك مذهب الشافعى فى القضاء بكبريات مدن مصر كالمحلة وقوص .

وهذا يعنى أن ابن دقيق العيد لم يكن قد تشفع حتى ذلك الحين ثم تركها إلى القاهرة وهو دون الأربعين يدل على ذلك ما رواه ابن حجر فى « الدرر الكامنة »^(٣) عن شهاب الدين أحمد بن إدريس المالكى أنه قال أقام الشيخ تقي الدين أربعين سنة لا ينام الليل إلا أنه كان إذ صلى الصبح اضطجع على جنبه حيث يتضحى النهار ودرس بالفاضلية^(٤) والكاملية^(٥) والصالحية^(٦) بالقاهرة كما درس بالناصرية^(٧) قرب مقام الشافعى وكان قد درس المذهبين الشافعى والمالكى وروى الحديث وله أربعون تساعية ولكنه كان قليل التحدث لتشده فى التثبت والتحري وكان فى بعض الأحيان يرفض أن يحدث عن بعض من سمع عنهم لأنهم لم يبلغوا فى تقديره مرتبة الثقات وإن كانوا ثقة فى نظر غيره من معاصريه، وجاءه أحد طلابه بحديث كتبه بخطه ليحقق عليه سماعه فقال له ابن دقيق العيد حتى أنظر فيه فغاب عنه مدة ثم قال له هو خطى ولكن ما أحقق سماعه .

(١) بناها النجيب بن هبة الله القوصى سنة سبع وستمائة - انظر الطالع السعيد ص ٢٣٠ .

(٢) طبقات الشافعية ورقة ١١٦ .

(٣) ج ٤ ص ٩١ .

(٤) نسبة إلى القاضى الفاضل الذى أنشأها

(٥) نسبة إلى الملك الكامل الذى أنشأها سنة ٦٢١ هـ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٨ .

(٦) نسبة إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب الذى أنشأها سنة ١٣٩ هـ - المرجع السابق .

(٧) نسبة إلى السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي الذى أنشأها سنة ٥٧٢ هـ .

وهذا لعمري غاية في الدقة والتحري واشتهر في هذه الفترة من عمره بالتقى والورع والانقطاع للعلم والعبادة فكان لا ينام الليل إلا قليلا . قال ابن حجر العسقلاني في كتابه الدرر الكامنة ما نصه^(١) «قرأت بخط الشيخ الحافظ أبي الحسين ابن أبيك المصري سمعت الصباح بهاء الدين رحمه الله تعالى قال :

كان ابن دقيق العيد يقيم في منزلنا بمصر في غالب الأوقات فكنا نراه في الليل إما مصليا وإما يمشي في جوانب البيت وهو مفكر إلى طلوع الفجر فإذا طلع الفجر صلى الصبح ثم اضطجع إلى ضحوة وقد كان ذكيا ألعيا ثباتا حجة فيما يقول ويروى فإذا حدث أمتع وإذا تكلم أبدع وإذا قال لم يترك مجالا لقائل ، ومع ذلك فقد كان طويل الصمت قليل الكلام حتى قال فيه تاج الدين السبكي وابن فضل الله العمري والإدقوي وغيرهم ينعتونه بكثرة الاشتغال وقلة الكلام ما نصه^(٢) « ولم يزل حافظا للسانه مقبلا على شأنه وقف نفسه على العلوم وقصرها ولو شاء العاد أن يعد كلماته لحصرها . فأوقاته كلها معمورة بالدرس والمطالعة أو التحصيل والإملاء فإن أراح نفسه من بعض ذلك العناء فلا يرى إلا قائما يصلي في المحراب أو جالسا يتلو كلام الله أو ماشيا يتفكر في خلق الله متدبرا بديع صنعه مستدلا بذلك على قدرة الله ووحدانيته ، وقد وصفه الإدقوي بما هو أهله فقال^(٣) « طالما لازم السهر حتى اصفر وجهه الإصباح مشغلا بالذكر والفكر لا بذاوت الألفاظ الفصاح والوجوه الصباح .

وتبدي له الدنيا من الحسن جملة بهم بها النساك لو شاهدوا البعض
 فيعرض عنها لا هيا عن جمالها ويوسعها بعدا ويرفضها رفضا
 ويسهر في ذكر وفكر وفي علا ومن بات صبيا بالعلا جانب الغمضا

فهو منصرف بجسمه وفكره سواد ليله وبياض يومه إلى البحث والتحقيق والاستنباط والتدقيق أو الصلاة والقيام وتقديس الله الملك العلام وأصدق مرآة

(١) ابن حجر - الدرر الكامنة ج ٤ ص ٩٤ - ٩٥ .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ج ٦ ص ٣ .

(٣) الطالع السعيد ص ٧١٣ ج .

لحياته في هذه الفترة من عمره قوله :

الجسم تذيبه حقوق الخدمة والقلب عذابه علو المهمة
والعمر بذاك ينقضي في تعب والراحة ماتت فعلها الرحمة

فهو مسهد العينين مؤرق الجفنين لا يذوق النوم إلا قليلاً أضنى فؤاده
علو همته في درك العلا ونيل المرام فهو دائم الدرس دائم التحصيل شغل فكره
بتحقيق المسائل الدينية واستنباط الأحكام الشرعية وفي حفظ الحديث وروايته
وغير ذلك من العلوم العقلية والتقليية ما يريحه من ذلك إلا الصلاة والقيام
أو تلاوة القرآن، فهو بحق قد أذابت الطاعة جسمه وعذب علو المهمة قلبه وشغل
فكره ولبه طلب العلا وبلوغ المنى وقد عرف في هذا الطور من حياته بالصلاح
والتقوى حتى قال فيه الإسنوي^(١) والسبكي وغيرهما في وصفه إنه التقى لقباً ونعتاً،
والولى سمة وسمتاً، وذو الطريقة التي لا عوج فيها ولا أمتا، وقد تمسك من التقوى
بالسبب الأقوى فلم يشتر أحد في زمانه اشتهاره ولا حاز قوته على الاستنباط
واقتراده، شيخ الدهر بلا نزاع ووجه العصر بغير دفاع. وقد ألف وأملى وصنف
كتباً كثيرة في الأصول والفقه والحديث ومصطلح الحديث، وسوف أبسط الكلام
في هذا المقام إن شاء الله في الفصل الثالث الذي سوف أتناول فيه بالشرح
والتبيان شخصيته العلمية والفقهية. هذا وقد كان عفا الله عنه لا يأخذ المسئء
إليه بإساءته بل يعفو ويصفح، يدل على ذلك ما روى من أن أثر الدين^(٢)
أبا حيان الغرناطي قال يوماً في مجلس ابن بنت الأعز وهو يفسر قوله تعالى
(خسر الذين قتلوا أولادهم . . . الآية) فقال أبو حيان قدموا أولادهم يا مولانا
وابن بنت الأعز لم يفهم ما يعنيه أبو حيان بقوله هذا ما معنى هذا يا أبا حيان .
فقال يا مولانا ابن دقيق العيد نزل عن المدرسة القلانية لابنه فلان وقد نقل ذلك
إلى ابن دقيق العيد فقال . أما أبو حيان فقيه دعاة أهل الأندلس ومجونهم
وأما أنت يا قاضي القضاة فيبدل القرآن في حضرتك وقد غضب الوزير والسلطان

(١) طبقات السبكي ج ٦ ص ٢ وطبقات الاسنوي ورقة ١١٤ .

(٢) ج ٦ مجلد ١ لوحة ٨١ - ١٠٢ .

كلاهما بسبب ذلك على ابن بنت الأعز وكان جميع العلماء قد أفتوا بقتله ولم يبق إلا ابن دقيق العيد فذهب إليه النقباء بالمحاضر ليوقع عليها كما وقع جماعة العلماء فلم يرض أن يوافق على ذلك ابن دقيق العيد وكان هو السبب في إنقاذ ابن بنت الأعز من ضرب العتق . وهذا أدل شيء على ورعه وتقواه وكان إلى جانب هذا مستجاب الدعوة .

يحكى أنه دعا على نور الدين بن الصاحب فخر الدين عمر بن عبد العزيز ابن الخليلي لأمر آله به فمات في تلك المدة .

وشهد له الجميع بالكرامات فقد روى السبكي والإسنوي والإدقوي وابن فضل الله العمري وجميع من ترجموا له أنه قال في يوم الجمعة عن واقعة التتار^(١) بوطأة حمصى مع الملك المنصور قلاوون (سنة ٦٨٠ هـ خامس عشر رجب) انفصل الحال من أمس العصر . فقيل له نخبر عنك فقال نعم . فقال له كمال الدين محمد بن علي بن الهمداني هذا بيقين . فقال أو يقال هذا عن غير يقين . فقال له عن معاينة أو خبر ؟ فقال بل عن خبر . وكان الحال كما قال .

ابن دقيق العيد في القضاء

أما الطور الثالث أو الفصل الأخير من حياته فهو أيام القضاء ، وهذه الفترة على قصرها إذ لم تزد مدتها على سبعة أعوام . كانت أكثر سني عمره وأيام حياته خطراً وأعظمها شأنًا فقد كان من قبل بعيداً عن الدولة وأربابها والسياسة وأصحابها وإن كان له بذلك اتصال في بعض الأحيان فهو لا يعدو ما هو بسبيله من أمور الشرع والدين . أعنى أن اتصاله بالدولة وأمرائها كان اتصالاً ضعيفاً أو من وجه بعيد .

أما بعد أن ولي منصب قاضي القضاة فقد أصبح على اتصال وثيق بالسلطان

(١) الطالع السعيد ص ٣٢٤ .

ونائب السلطان والوزير والأمير وشئون الدولة العليا فهو بمثابة وزير العدل في عصرنا هذا، بل هو أشرف منزلة وأعظم خطراً إذ كان السلطان إذا أراد أن يستنفر الناس للجهاد، أو شاء أن يأخذ من أموالهم لتجهيز الجيش والتقوى على العدو لا يستطيع أن يفعل شيئاً من ذلك حتى يقره على ذلك قاضي القضاة، ومن هنا كانت الصلة وثيقة بين القضاة والسلاطين والأمراء .

ولى ابن دقيق العيد منصب قاضي القضاة في يوم السبت الثامن عشر جمادى الأولى سنة ٦٩٥ هـ وقد ذكر ابن حجر العسقلاني في كتابه رفع الإصر عن قضاة مصر توليته القضاء فقال ما نصه^(١) « وكان الذى أشار به على المنصور لاجين - الضياء المعتدى - فقال أدلك على محمد بن إدريس الشافعى وسفيان الثورى وإبراهيم بن أدهم ، وولى القضاء بعد موت التقي عبد الرحمن ابن بنت الأعز ثامن عشر جمادى الأولى سنة ٦٩٥ هـ . ومعنى هذا أن الذى عين ابن دقيق العيد في منصب قاضي القضاة هو السلطان لاجين ، في حين أن المقرئ يذكر في كتابه المقفى أن الذى عينه هو السلطان زين الدين كتبغا المنصورى . إذ قال ما نصه^(٢) ثم ولاه السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى قضاء القضاة بالديار المصرية بعد وفاة قاضى القضاة ذى الرياستين تقي الدين عبد الرحمن بن بنت الأعز في يوم السبت ثامن عشر جمادى الأولى سنة ٦٩٥ هـ ، وعندى ألا تعارض بين الروایتين وأن كليهما صحيحة لأن السلطان لاجين كان يشغل منصب نائب السلطنة أيام السلطان كتبغا إذ يصح أن يكون السلطان لاجين هو الذى قلده ابن دقيق العيد منصب قاضى القضاة وهو نائب السلطان كتبغا .

هذا وقد ذكر السبكي في طبقاته وكذلك الإسئوى في طبقات الشافعية والصلاح الصفدى في أعيان العصر أن ابن دقيق العيد تردد في قبول منصب القضاء حين عرض عليه وأبى الامتناع والرفض لولا أن تحايلا عليه على حد قول

(١) ورقة ٢٤٧ - ٢٥٠ .

(٢) ج ٢ ورقة ١٦٥ .

الإسنوى ، إذ قالوا له عن شخصين لا يصلحان عنده للقضاء إن فلاناً وفلاناً قد انحصر فيهما الأمر إن لم تفعل ، ويقول الإسنوى والظاهر أنه كان كذلك فرأى ابن دقيق العيد لذلك أن تولية القضاء أصبحت واجباً دينياً لا مناص من القيام به وقول الإسنوى هذا به تناقض ظاهر . فبينما نراه يقول في صدر كلامه تحاولوا عليه نراه يعود فيقول والظاهر أنه كان كذلك أى أنهم لم يحاولوا عليه وإنما ذكروا له واقع الحال . ولعل السبب الذى حدا بالإسنوى إلى هذا التناقض فى الكلام هو أنه يريد أن يبرر قبول الشيخ تقي الدين ذلك المنصب الذى عده ابن فضل الله العمري زلة من زلات الشيخ تقي الدين وكذلك صاحب الطالع السعيد العلامة الإدفوى إذ قال مانصه^(١) « لكنه تولى القضاء فى آخر عمره وذاق من حلوه ومره ، وحط ذلك عند أهل المعارف والأقدار من علو قدره وحسن الظن ببعض الناس ، فدخل عليه البأس وحصل له من الملامة نصيب ، والمجتهد يخطئ ويصيب . . إلخ .

وقال ابن سيد الناس وهو أحد من أخذوا عن الشيخ تقي الدين ولو لم يدخل فى القضاء لكان ثورى زمانه وأوزاعى أوانه ، وفى رأى أن ابن دقيق العيد كان يتمنى هذا المنصب منذ زمن بعيد يدل على ذلك قوله :

الحمد لله كم أسعى بعزى فى نيل العلا وقضاء الله ينكسه
كأننى البدر أبغى الشرق والفلك الأعلى يعارض مسعاه فيعكسه

فهو قد سعى بجده وعزمه فى نيل العلا لكن الله سبحانه وتعالى لم يشأ له أن يبلغه ولست أفهم معنى يمكن أن يقصد إليه ابن دقيق العيد من قوله نيل العلا سوى الوصول إلى منصب قاضى القضاة ، لأن هذا المنصب كان فى أيامه هو أسنى ما يصبو إليه رجال الدين ، ولو أراد أحد أن يفهم كلمة العلا بوجه آخر كأن يقول إن المقصود من كلمة العلى هنا العلو المعنوى وليس العلو فى المناصب فإنى أجيب على ذلك بأن ابن دقيق العيد قد بلغ بتفوقه وغزارة علمه ، وحسن تدبيره

(١) الطالع السعيد ص ٣٣٥ .

وعظم تورعه ما لم يبلغه أحد سواه من رفعة المكانة وسمو المنزلة لدى الجميع من معاصريه ؛ فقد كان مقدماً عند الأمراء والوزراء وعامة الشعب على جميع أقرانه في العلم والدين ، وإذا فلم يكن ابن دقيق العيد يطلب الاحترام والتقدير من الناس وإحلاله من نفوسهم المكانة اللائقة به ، لأن ذلك كان أمراً واقعاً وإنما كان يريد إلى جانب الرفعة المعنوية رفعة في المنصب والمرتبة وليس ثمة منصب يطمع فيه ابن دقيق العيد أكثر من منصب قاضى القضاة . هذا على أن له قصيدة أخرى ذكرها تاج الدين السبكي في كتابيه (معيد النعم ومبيد النقم ، وطبقات الشافعية الكبرى) وأثبتها في موضعها من الديوان مطلعها :

يقولون لى هلا نهضت إلى العلا فما لذ عيش الصابر المتقنع
فهذه القصيدة تدل دلالة واضحة على أن ابن دقيق العيد كان يطمع في منصب قاضى القضاة إذ يقول فيها :

وهلا شددت العيس حتى تحلها بمصر إلى ظل الجنباب المرفع
ففيها من الأعيان من فيض كفه إذا شاء روى سيله كل بلقع
وفيها قضاة ليس يخفى عليهم تعين كون العلم غير مضيع

فهو كما ترى يقول إن الناس ينصحون له بالذهاب إلى مصر حاضرة البلاد ومقر السلاطين والأمراء حيث يجد لديهم المال الوفير ويظفر منهم بالحفاوة والتقدير إذ كان الأمراء والسلاطين في ذلك الوقت إذا أعجبوا بعالم ولسوا لديه الكفاءة والجدارة أسندوا إليه منصباً يليق به . وأهم مناصب ذلك العصر بالنسبة لرجال الدين كان منصب قاضى القضاة ، ويبدو من هذه القصيدة أن ابن دقيق العيد كان متردداً في العمل بتلك النصيحة إلا أنه عاد فانتصح بها حيث ترك قوص إلى القاهرة لا للتعلم كما كان الحال من قبل في حياة شيخه ابن عبد السلام ، وإنما ليجرب حظه في هذا البلد الكبير الذى كان يخلص بالعلماء والأدباء من أهل مصر والشام والعراق والأندلس وغير ذلك من بقاع الإسلام . لكنه لم يظفر بادئ الأمر بأكثر من وظيفة التدريس فدرس بالفاضلية والصالحية ثم الناصرية

وأخيراً صار شيخ دار الحديث الكاملة .

والقصد من هذا إن أقول أن ابن دقيق العيد حين ترك قوص ليستقر في القاهرة ، كان يصبو إلى الظفر بمنصب قاضي القضاة . والقصيدة هذه تدل على ذلك . غير أنه لم يستطع أن يصل إلى ذلك المنصب إلا في أخريات حياته .

والسبب في ذلك راجع فيما أعتقد إلى أن ابن دقيق العيد كان معترأ بنفسه حافظاً لماء وجهه لا يجرى وراء الأمراء ولا يقف على أعتاب السلاطين ، يدل على ذلك قوله في هاتيك القصيدة التي أسلفت طرفاً منها قوله :

وفيها وفيها والمهانة ذلة	فقم واسع واقصد باب رزقك واقرع
فقلت نعم أسعى إذا شئت أن أرى	ذليلاً مهاناً مستخفياً بموضعي
وأسعى إذا ما لد لي طول موقني	على باب محجوب اللقاء ممنع
وأسعى إذا كان النفاق طريقي	أروح وأغدو في ثياب التصنع
وأسعى إذا لم يبق في بقية	أراعى بها حق التقى والتورع

فهذا الشعر كما ترى واضح صريح في أن المراتب والمناصب في عصر ابن دقيق العيد لم تكن لتنال في أكثر الأحيان إلا بالمصانعة والمداهنة والنفاق وبذل ماء الوجه واحتمال المهانة وقبول المذلة . وتلك خصال لا تتوفر في غير مرضى النفوس وضعاف الإيمان .

أما التقى^١ الورع الذي اتخذ الدين شعاره كابن دقيق العيد فإنه لا يعقل أن يتصف بوحدة من تلك الحلال . وبالتالي فإنه من غير الميسور على مثله أن يلي منصب قاضي القضاة . هذا على أن هناك ظاهرة لا يستطيع إنكارها أحد ، وهي أن ابن دقيق العيد كان مالكيًا ثم اعتنق مذهب الشافعي ، وقد أجمع على ذلك كل من ترجم له وذلك دليل واضح وبرهان قاطع على أن ابن دقيق العيد كان يطمع منذ أن أنهى مرحلة التعلم من حياته وبدأ مرحلة التدريس والإملاء في تولي منصب قاضي القضاة الذي كان وفقاً آنذاك على علماء الشافعية ، وإلا فأى شيء حمل ابن دقيق العيد على ترك مذهب الإمام مالك وهو مذهب

أهل الصعيد بوجه عام ومذهب أبيه على بن وهب بوجه خاص .
ومهما يكن من شيء فقد تولى ابن دقيق العيد منصب قاضى القضاة
للديار المصرية ومكث فيه حتى توفاه الله فى ١١ صفر سنة ٧٠٢ هـ
هذا على أنه كان متبرماً بالقضاء يتحين الفرص للتخلص منه ، يدل على
ذلك ما ذكره ابن حجر العسقلانى فى كتابه (رفع الإصر عن قضاة مصر)
قال مانصه ^(١) « فإن سمع ما يكره عزل نفسه ، فعل ذلك مراراً » وقد عزل نفسه
مرة بسبب أوقاف كان بعض الأمراء قد اقتطعها ولم يعد إلى القضاء حتى
أعيدت . ومرة أخرى بسبب الأمير منكوتر نائب السلطنة أيام السلطان لاجين
وذلك فى خبر طويل ذكره المقرئى فى كتابه المقفى . وقد آثرت أن أذكر
القصة كما رواها صاحب المقفى بنصها لما تحمله فى ثناياها من صور تكشف لنا
عن مدى تمسك الشيخ بنى الدين وتشبثه بالدين وصلابته فى الحق وأنه لا يخاف
لومة لائم .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإنها تبين لنا كيف أن الأمراء وأرباب الدولة
من المماليك كانوا يتدخلون فى أمور القضاء لتحقيق مآربهم وإليك النص
قال ^(٢) « واتفق له فى ولايته القضاء أن بعث إليه الأمير منكوتر النائب يعلمه
أن تاجراً مات وترك أخاً من غير وارث سواه ، وأراد أن يثبت استحقاق الأخ
لجميع الميراث من مجرد هذا الأخبار ، فأبى ذلك وترددت الرسل بينهما إلى أن
اشتد غضب منكوتر وبعث إليه كرت الحاجب . فلما دخل عليه سلم ووقف
فرد عليه القاضى السلام وقام له نصف قومة وأمره فجلس وأخذ يتلطف
بالقاضى فى إثبات أخوة التاجر بشهادة منكوتر . فقال وماذا ينبى على شهادة
منكوتر . فقال يا سيدى ما هو عندكم عدل . فقال سبحانه الله . ثم أنشد :
يقولون هذا عندنا غير جائز ومن أنتمو حتى يكون لكم عند
وكرر هذا البيت ثلاث مرات ثم قال : « والله هى لم تقم بينة شرعية تثبت
عندى وإلا فلا حكمت كل شيء بسم الله » قم فقام كرت وهو يقول : هذا والله

(١) ورقة ٢٤٧ .

(٢) ج ٢ لوحة ١٦٥ .

هو الإسلام ، وبلغ ذلك الأمير منكوتر واعتذر إليه فلم يقبل عذره فلما طلع القاضي للخدمة بالقلعة على العادة ومر بدار النيابة ومنكوتر جالس بالشباك تسارع إليه الحجاب واحداً بعد واحد يقولون: يا سيدى الأمير ولدك يريد الاجتماع بخدمتك ، فلم يلتفت إلى أحد منهم وهم يكررون السؤال فقال: قولوا له ما وجبت طاعتك على ثم التفت إلى من معه وقال: « أشهدكم أنى عزلت نفسى قولوا له فليول غيرى ، ورجع من غير أن يدخل إلى الخدمة السلطانية ودخل بيته وأغلق بابه وبعث إلى النواب فى الحكم بمنعهم ، فشق ذلك على السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين ، وأنكر على الأمير منكوتر وبعث إلى القاضي بالشيخ نجم الدين حسين بن محمد بن عبود والطواشى مرشد ، فما زال به حتى ركب معهما إلى القلعة فعندما رآه السلطان قام إليه وتلقاه ، وأخذ بيده ليجلسه على المرتبة فبسط خرقة كانت فى كفه فوق المرتبة وكانت من حرير ثم جلس دون المرتبة وأراد وضع الخرقة فوق المرتبة ستر الحرير حتى لا يراه وهو جالس ، وأخذ السلطان يعرض عليه العودة إلى القضاء ويتطلف به وهو يأتى ذلك إلى أن قبل الولاية فقال له السلطان يا سيدى هذا ولدك منكوتر وأشار إليه يكون خاطرك معه ادع له ، فنظر إلى منكوتر ساعة وصار يفتح يديه ويقبضها ثم قال منكوتر ما يحىء منه شىء يكررها مرات وقام .

وهذا يدل دلالة واضحة على أمور كثيرة ذات بال ولها وزنها فى هذا المقام ، فهو يفيد أن ابن دقيق العيد كان قاضياً عادلاً نزيهاً لا يجامل فى الحق ولا يمالئ فى القضاء فهو لا يقبل شهادة الأمير لأنه عنده غير عدل فى حين أن جميع العظماء والكبراء والعلماء والفقهاء يتملقونه ويتقربون إليه ، بل أكثر من هذا فابن دقيق العيد يحقره ويزدريه لا بل إنه يزدرى جميع المماليك إذ يقول رداً على الأمير كرت الحاجب حينما قال له ما هو بعدل عندك يا سيدى قال :

يقولون هذا عندنا غير جائز ومن أنتمو حتى يكون لكم عند

فالممالك إذن فى رأى ابن دقيق العيد لا تقبل شهادتهم حتى ولو كانوا فى منزلة لا تختلف كثيراً عن منزلة السلطان ، كوظيفة نائب السلطنة وهى التى

كان يتبوؤها آنذاك الأمير منكوتر . ثم إن هذه القصة تدل من جهة أخرى على فضل ابن دقيق العيد وسمو مكانته لدى الأمراء وأصحاب النفوذ والمكانة العليا في الدولة بما في ذلك السلطان، وبالطبع لم تكن له تلك المنزلة عند أولئك الممالك لولا أنهم رأوا تقدير الناس له وتعظيمهم إياه وأنه مقدم لدى عامة الشعب وخاصتهم في العلم والدين على جميع أقرانه . . . وما يدل على تشدد ابن دقيق العيد في الحق وتمسكه بأحكام الدين وقوانين الشريعة ومحافظته عليها من أن يعيث بها الجهلاء الطامعون أو العلماء الضالون الذين يقدمون العاجلة على الآجلة ويفضلون الدنيا على الآخرة ويبيعون دينهم وضمايرهم في سبيل حصولهم على المناصب والمراتب أو عرض تافه لا يلبث أن يزول . يدل على ذلك موقفه من بيبرس الجاشنكير وسلار نائب السلطان وكان لهذين آنذاك أمور الدولة والتصرف في شئونها أعنى سنة ٦٩٩ هـ لما كان العسكر^(١) قد عادوا من الشام مهزومين في حربهم مع التتار وقد أراد هذان الأميران أن يجمعوا المال من الشعب لمواجهة عسكر التتار، وكان القاضي مجد الدين عيسى بن الحشاش قد أراد أن يتقرب إلى بيبرس وسلار فأفتى بأنه يجوز للسلطان أن يأخذ من كل فرد ديناراً ليتقوى به على حرب العدو، وقد اعتمد في ذلك على فتوى ابن عبد السلام بجواز ذلك أيام سيف الدين قطز مع عظم الفارق بين الحالتين، فلما طلب من ابن دقيق العيد أن يفتى بذلك أبي وامتنع فلما احتج عليه ابن الحشاش بفتوى عز الدين بن عبد السلام قال : « إن ابن عبد السلام لم يفت في ذلك إلا بعد أن أحضر جميع الأمراء كل ما لديهم ولدى نسائهم وأولادهم من حلى وأموال وذهب، وفضة، ثم ذكر في صراحة أن الأمراء لديهم الأموال والذهب وأن فيهم من جهز ابنته لتزف إلى زوجها وأنه عمل في شوارها الجواهر والآلئ والحلى والذهب واتخذ لها الأواني من الفضة، وأن منهم من رصع مداس زوجته بالجواهر . يريد بذلك الأمير بيبرس سرس ثم قال : « وكيف يحل مع ذلك أخذ شيء من أموال الرعية، لا والله لا جاز لأحد أن يتعرض لدرهم من أولاد الناس إلا بوجه شرعى » .

وهذا أدل شيء على عدالة ابن دقيق العيد ونزاهته في الحكم والقضاء ، وأنه لم يكن يخاف غير الله فإن كان غيره يحاملون الأمراء ويتقربون إلى السلاطين على حساب الدين كما رأينا ذلك عند ابن الحشاش فإن ابن دقيق العيد يراقب الله في قوله وعمله ولا يفتي بغير ما أنزل الله مهما كانت النتائج أو العواقب ، فهو غير متمسك بمنصب قاضي القضاة ولا وهو من المتكالبين على المراتب والوظائف ولو كان على شيء من هذا لولى منصب قاضي القضاة قبل أن وليه بسنين لكنه لم يكن من أولئك العلماء الذين يسعون إلى الأمراء . وما يدل على سداد رأيه وصحة حكمه وأنه يتوخى في قضائه وآرائه وفتاواه الدقة والعدالة ما حدث إثر واقعة اليهود والنصارى التي حدثت في شهر رجب سنة ٧٠٠ هـ من أنهم ألزموا بترك زى المسلم وأن لا يركبوا الخيل ولا البغال وأن تكون عمائم النصارى زرقاء وعمائم اليهود صفراء ، وكان الفقيه نجم الدين أحمد بن الرفعة قد أفتى بوجوب هدم كنائسهم من أجل أنها حدثت في الإسلام فجمع القضاة والفقهاء لذلك ، فلم يوافق ابن دقيق العيد على هدمها وقال ^(١) « أحتاج إلى بينة تشهد أنها حدثت في الإسلام ، فإن قامت البينة بهذا أفيت وحكمت بهدمها ، ومتى لم تقم البينة على له بذلك لا يجوز هدمها » فوافق الجماعة على ذلك وامتنع الناس من هدم الكنائس بعد ما هدموا منها بأعمال مصر عدة . ومن هنا أستطيع أن أقول إن القضاء كان مرآة تجلت فيه شخصية ابن دقيق العيد ووضحت وضوحاً تاماً بصفاتها الدينية والعلمية ، وقد كانت أعماله وتصرفاته أيام توليته القضاء دليلاً قاطعاً وبرهاناً ساطعاً على فرط نزاهته وشدة ورعه وعظم تقواه ، ومعنى هذا أنى أعد دخول ابن دقيق العيد في القضاء من الأمور التي تحملنا على نعته بالتقوى والصلاح وصدق الإيمان وسلامة الدين . وهذا على خلاف ما روى عن ابن سيد الناس أنه قال ^(٢) « ولو لم يدخل في القضاء لكان ثوري زمانه وأوزاعى أوانه » يعنى أنه اعتبر القضاء من الأمور التي تحط من تدين ابن دقيق العيد وتقدمه على غيره في

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩١٢ .

(٢) الطالع السعيد ص ٣٢٤ .

التقى والصلاح . ولعل ابن سيد الناس كان متأثراً في مقاله هذا بما كان يقول به عليه المغرضون أو الشانتون ، وإليك مثلاً على ذلك ما رواه الإدفوى قال ^(١) « وحكى شرف الدين يعقوب البيار المالكي وكان من الفقهاء العدول قال : كان في نفس الصاحب تاج الدين من الشيخ ، وكان ابن الأرسوف وصي بوصية ومات فقال الصاحب لفقير من المصريين رح إلى الشيخ واطلب منه شيئاً من الوصية وقل له كذا وكذا فإذا قال فرغت قل له لو كان فلان القوصي وفلاتة دفعتم له ورثتم . فحضر بجامع مصر وذكر ما رتب فيه . فلما فرغ وخرج رفسه بغل فمات من ساعته » .

وهذا يدل دلالة واضحة على أن أعداء ابن دقيق العيد كانوا كثيراً ما يقولون عليه وينسبون إليه ما لم يفعله ، وقد قال الصلاح الصفدي بعد أن أورد ما وقع من أثير الدين أبي حيان الغرناطي بين يدي ابن بنت الأعز الذي كان آنذاك قاضي القضاة ، وكان يفسر قوله تعالى (خسر الذين قتلوا أولادهم) فقال أثير الدين يا مولانا القاضي قدموا أولادهم ، قدموا أولادهم ، وابن بنت الأعز لا يفهم ما يعنيه أثير الدين فقال ما معنى هذا يا أبا حيان فقال . يا سيدي ابن دقيق العيد نزل عن المدرسة الفلانية لابنه فلان ، وقد سبق أن ذكرت القصة بجملتها . فلما فرغ الصفدي من سرد القصة وما كان بعد ذلك من ابن دقيق العيد في حق أبي حيان وهو أن ابن دقيق العيد كان إذا خلت وظيفة وقال الناس هذه تصلح لأبي حيان ، كان ابن دقيق العيد يعين فيها سواه . قال الصفدي بعد ذلك كله « لا يصح أن يرجع أو يعول على قول المعاصرين بعضهم في بعض لمثل هذه الأشياء التي ذكرناها » يعني أن المعاصرين كثيراً ما يحقد بعضهم على بعض ويضطغن عليه ، ومن هنا فلا يجوز للباحث أو المحقق المنصف أن يعتمد في أحكامه على أقوال أرباب الضغائن والأحقاد من المعاصرين وبخاصة إذا كانوا من الشعراء فإنهم كثيراً ما يلبسون الباطل ثوب الحق والحق ثوب الباطل فيما يروونه في شعرهم من أخبار أو يصدرونه على بعض الأفراد أو الجماعات من

(١) الطالع السعيد ص ٣٢٤ .

أحكام ، وقد وصفهم القرآن بما هم أهله إذ قال سبحانه وهو أصدق القائلين :
 (والشعراء يتبعهم الغاؤون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون) .
 هذا على أن ما قيل في حق ابن دقيق العيد من هجاء جرى على ألسنة
 بعض الشعراء لم يكن يطابق الواقع ولا يصور شيئاً من الحقيقة ولست أقول هذا
 تعصباً لابن دقيق العيد وإنما هو حقيقة تم عنها ظروف ذلك الهجاء وقصته ،
 وإليك ما رواه لنا الإدفوي في هذا المقام قال ^(١) « وأخبرني برهان الدين المصري
 الحنفى الطيب وكان قد استوطن قوص سنين . قال كنت أباشر وفقاً فأخذه منى
 شمس الدين بن أخى الشيخ وولاه آخر ، فعز على ونظمت أبياتاً فى الشيخ
 فبلغته فأنا أمشى مرة خلفه وإذا به قد التفت إلى وقال : « يا فقيه بلغنى أنك
 هجوتنى » فسكت زماناً ، فقال : أنشدنى وألح على فأنشدته :

وليت فولى الزهد عنك بأسره وبان لنا غير الذى كنت تظهر
 ركنت إلى الدنيا وعاشت أهلها ولو كان عن جبر لقد كنت تعذر

فسكت زماناً وقال : « ما حملك على هذا » فقلت « أنا رجل فقير وأباشر
 وفقاً أخذه منى فلان » فقال ما علمت بهذا أنت على حالك . فباشرت الوقف
 مدة وخطر لى الحج فجئت إليه أستأذنه فدخلت خلفه فالتفت إلى وقال :
 « أمعك هجو آخر ؟ » فقلت « لا ولكنى أريد الحج وجئت أستأذن سيدى .
 فقال مع السلامة ما نغير عليك » . ثم ذكر بعد ذلك الإدفوي هجاء فى الشيخ
 قاله عبد اللطيف بن القفصى (ويعرف بعبد اللطيف القوصى) وهو عبارة عن
 بليقة أولها :

قاضى القضاة عزل نفسه . لما ظهر للناس نحسه

وهذا هجاء كما ترى لا يدل فى شيء على جور ابن دقيق العيد أو ظلمه
 ولا على أنه ارتكب فعلة تشينه بوصفه قاضياً أو رجلاً من رجال الدين .
 أما البليقة فلأنها إن دلت على شيء فإنما تدل على ما عرف به المصريون

(١) الطالع السعيد ص ٣٢٨ .

من التندر والتفكه وكثرة التنكيت على رجال الحكم وأرباب الدولة فهم لا يدعون حاكماً أو رئيساً مصاحاً كان أو مفسداً، عادلاً كان أو ظالماً إلا ويكثرون في مجالسهم من التندر به وبأفعاله وهم كثيراً ما ينسجون حوله القصص والحكايات بقصد الضحك والتفكه تارة أو الدم والتشنيع تارة أخرى .

أما هجاء برهان الدين المصرى فهو أيضاً لا يدل على ظلم ابن دقيق العيد أو جوره لأن الأوقاف أخذت من برهان الدين دون علم ابن دقيق العيد كما هو واضح من القصة آنفاً . وهى فى جملتها تدل على نزاهة ابن دقيق العيد فى الحكم وعدالته فى القضاء .

هذا وخير شىء يصور لنا شخصية ابن دقيق العيد القضائية كتابه الذى أرسله إلى نوابه فى الوجهين القبلى والبحرى يعظهم فيه ويرسم لهم الدستور الذى يجب عليهم أن ينتهجوه ويلتزموه فى أحكامهم وكيفية معالجتهم مشاكل الناس وقضاياهم . وإليك نص ذلك الكتاب الذى هو أشبه شىء بما نطلق عليه فى عصرنا الحاضر اسم المنشور . قال رحمه الله بعد البسملة ما نصه^(١) (يا أيها الذين آمنوا قو أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) .

صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس السامى وفقه الله لقبول النصيحة وأتاه لما يقربه قصداً صالحاً ونيةً صحيحة . أصدرناه إليه بعد حمد الله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ويمهل حتى يلتبس الإهمال بالإهمال على الغرور نذكره بأيام الله فإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ، ونحذره صفقة من باع آخرته بدنياه فما أجد سواه مغبوناً عسى الله أن يرشده بهذا التذكار وينفعه ويأخذ هذه النصائح لحجزته عن النار ، فإنى أخاف أن يتردى فيخر من ولاه والعياذ بالله معه ، والموجب لإصدارها ما تلمحناه من الغفلة المستحكمة على القلوب ومن تقاعد الهمم عن القيام بما يجب للرب على المربوب ومن أنسهم بهذه الدار

(١) المقرئى - الملقى لوحة ١٦٥ وما بعدها .

وهم يولون عنها، وعلمهم بما في أيديهم من عقبة كثود وهمة لا يتحققون منها ولا سيما القضاة الذين تحملوا أعباء الأمانة على كواهل ضعيفة، وظهروا بصور كبار وهم نحيفة، والله إن الأمر لعظيم وإن الخطب لجسيم، ولا أرى أن مع ذلك أمناً ولا قراراً ولا راحة، اللهم إلا رجلاً نبذ الآخرة وراءه واتخذ إلهه هواه وقصر همه وهمته على حظ نفسه ودنياه، فغاية مطلبه حب الحياة والرغبة في قلوب الناس وتحسين الزى والملبش والركبة والمجلس غير مستشعر خسة حاله ولا ركافة مقصده، وهذا لا كلام معه فإنك لا تسمع الموتى وما أنت بسمع من في القبور فاتق الله الذى يراك حين تقوم، واقصر أملك عليه فالمحروم من فضله غير مرحوم، وما أنا وأنتم أيها النفر إلا كما قال حبيب العجمي رضى الله عنه وقد قال له قائل: ليتنا لم نخلق. فقال: قد وقعتم فاحتالوا. وإن خفى عليك بعض هذا الخطر وشغلته الدنيا أن تقضى من معرفته الوطر فتأمل قوله صلى الله عليه وسلم: القضاة ثلاثة. وقوله صلى الله عليه وسلم مشفقاً لا تأمرن على اثنين ولا تلين مال يتيم. لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. وما أنا والسير في متلف يرح بالذكر الضابط. هيات. جف القلم ونفذ أمر الله فلا راد لما حكم. ومن هنالك شم الناس من فم الصديق رائحة الكبد المشوية، وقال الفاروق ليت أم عمر لم تلده، واستسلم عثمان وقال من أغمد سيفه فهو حر، وقال على والخزائن بين يديه مملوءة: من يشتري منى سبى هذا ولو وجدت ما اشتري به مداً ما بعته. وقطع الخوف نياط عمر بن عبد العزيز فمات من خشية العرض. وعلق بعض السلف في بيته سوطاً يؤدب به نفسه إذا فتر. أفترى ذلك سدًى؟ أم وضح أن نحن المقربون وهم البعداء، وهذه والله أحوال لا تؤخذ من كتاب السلم والإجارة والحنائات. نعم كلها تنال بالخضوع، والخشوع وبأن تظماً وتعجوع وتحمى عينيك المهجوع، وبما يعينك على هذا الأمر الذى دعوتك إليه وتزودك في سفرك للعرض عليه. أن تجعل لك وقتاً تعمره بالتذكير والتفكير، وأياماً تجعلها لك معدة بجلاء قلبك. فإنه إن استحكمت صداه صعب تلافيه وأعرض عنه حق هو أعلم بما فيه. فاجعل همك الاستعداد للميعاد والتأهب لجواب الملك الجواد فإنه يقول:

(فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) ، ومهما وجدت من همتك قصوراً أو استشعرت من نفسك عما بدا لها نفوراً فاجأر إليه وقف ببابه . فإنه لا يعرض عمن صدق ولا يعزب عن علمه خفايا الضمائر (ألا يعلم من خلق) . هذه نصيحتي إليك وحجتي بين يدي الله إن فرطت عليك ، أسأل الله لي ولك قلباً واعياً ولساناً ذا كراً ونفساً مطمئنة بمنه وكرمه ^(١) .

فهذا منشور لا يضع قانوناً ولا يبين أحكاماً يلتزم القاضى تطبيقها والحكم بمقتضاها ، وإنما هو وعظ وإرشاد وترهيب ونصح وتوجيه . وكأن ابن دقيق العيد أدرك أن صحة الحكم وعدالة القضاء إنما تصدر عن نفس خيرة تخشى الله وتتقى عذابه وعقابه . فهو لا يريد أن يبسط لهم القضايا الفقهية والأحكام الشرعية لأنها موجودة في كتب الفقه ، وهم ، أعنى نوابه في الحكم ، قد درسوها واستوعبوها . فهم إذن ليسوا بحاجة إلى من يشرحها لهم أو ينبههم إليها وإنما هم في حاجة إلى من يذكرهم بعقاب الله الشديد وغضبه على من جار أو ظلم . إذاً فابن دقيق العيد قد علم ذلك كله علم اليقين فأرسل إليهم كتابه الذي أراد به أن يعالج مرض النفوس وسقم القلوب كيما تصح الأحكام وتسود العدالة فيأخذ لكل ذى حق حقه ولا يظلم أحد فتيلاً .

هذا ولو عرفنا ما كان عليه أرباب الحكم والقضاء في ذلك العصر من ظلم الناس والعسف بالرعية والتقرب إلى الملوك والسلاطين على حساب الشعب كما رأينا ذلك عند ابن الخشاب حين أفنى بجواز أخذ المال من المصريين ليتقرب بذلك إلى السلطان أو القائمين على الأمر باسمه من أمراء الماليك ، لو عرفنا ذلك وجعلناه في حسابنا ، لعرفنا كيف استحق ابن دقيق العيد أن يقول عنه الصفدى والإسنوى وغيرهما . « إنه قام بالحق وكل قاعده » . ولألعرفنا لماذا وصفه العلماء الثقات المعتمد بقولهم كالصفدى والإدقوى والإسنوى وغير هؤلاء كثير بالتزاهة والتقى والورع والتقدم على جميع معاصريه في العلوم الدينية ، والفنون

(١) قابلنا بين رواية المقرئى وما رواه الإدقوى في الطالع السعيد ص ٢٣٦ فاستخلصنا الصورة التى أثبتناها .

الشرعية وبأنه محيى الشريعة ومصحح الأوضاع الدينية وبأنه ينطبق عليه الحديث النبوى الذى معناه أن الله سبحانه وتعالى يبعث على رأس كل مائة عام من يحدد للأمة أمر دينها، وفى هذا يقول العلامة السبكى فى كتابه طبقات الشافعية الكبرى ما نصه ^(١) « ولم ندرك أحداً من مشايخنا يختلف فى أن ابن دقيق العيد هو العالم المبعوث على السبعمائة المشار إليه فى الحديث المصطفوى النبوى صلى الله عليه وسلم » .

ولا عجب فإن ابن دقيق العيد كما هو واضح مما أسلفت من مواقفه إزاء أرباب الدولة وأمرائها من المماليك كان يطبق الأحكام الشرعية على الجميع لا فرق عنده فى ذلك بين الحاكم والمحكوم ولا بين السيد والمسود فهو يراقب ربه فى كل ما يأتى أو يندر فلم يفت من أجل السلطان والأمراء بجواز ما يرى أنه غير جائز ولم يقبل شهادة نائب السلطنة مع ما كان عليه من الجبروت والهيمنة والسلطان. لا بل أنه احتقر المماليك وازدراهم ولم يقيم لمقالة أحدهم وزناً، وشاهد ذلك قوله ردّاً على الأمير كرت الحاجب الذى أوفده إليه منكوتمر ليحكم لشقيق التاجر الذى مات باستحقاقه لإرثه وكان الأمير كرت الحاجب قد قال لابن دقيق العيد يا سيدى ما هو عندكم عدل، يعنى الأمير منكوتمر فقال ابن دقيق العيد . هذا يقولون هذا عندنا غير جائز ومن أنتمو حتى يكون لكم عند

وقد كان له مآثر أخرى كثيرة فى دنيا القضاء أهمها أنه ارتفع بمنزلة القاضى وحافظ على كرامة القضاء ، فلم يجر خلف الأمراء والسلاطين ولا سار فى ركابهم كما أنه أخذ من بعض الأمراء ما كانوا قد استقطعوه من الأوقاف وأنشأ المودع الحكيمى فقد قال ابن حجر العسقلانى فى كتابه الدرر الكامنة ما نصه ^(٢) « وهو أول من عمل المودع الحكيمى وقرر أن من مات وله وارث إن كان كبيراً أقبض حصته، وإن كان صغيراً أحمل المال فى المودع ، وإن كان للميت وصى خاص ومعه عدول يندبهم القاضى لينضبط أصل المال على كل تقدير، واستمر

(١) طبقات الشافعية الكبرى ج ٦ ص ٣ .

(٢) ج ٤ ص ٩٣ .

الحال على ذلك» . ويشبه صنيع ابن دقيق العيد هذا بالتركة والورثة ما يعرف اليوم باسم الديوان الحسبي وهي لعمرى فضيلة لا ينكرها عليه جاحد: وكان له فوق هذا كله من الأعمال ما هو عنوان التقى والورع ، وذلك كخلعه على القضاة الصوف وكانوا من قبل يخلع عليهم الحرير واستمر الحال بعده على ذلك أيضاً .

هذا ومن الصفات التي لازمت ابن دقيق العيد وكانت بارزة في حياته هي الكرم والسخاء . يدل على ذلك ما حكاه الإدقوى في كتابه الطالع السعيد إذ قال ما نصه^(١) « وكان كريماً جواداً سخياً . أخبرنا الشيخ العلامة علاء الدين القونوي رحمه الله تعالى أنه كان يعطيه في كثير من الأوقات الدراهم والذهب » . ثم قال : « وحكى الشيخ نجم الدين محمد بن عقيل اليالس أنه قدم في الحفل فحضر عنده وتكلم فأرسل إليه مائتي درهم ثم ولاه النيابة بمصر » ثم قال : « وحكى صاحبنا محمد بن الحواسبي القوصي وكان من طلبة الحديث وأقام بالقاهرة مدة في زمن الشيخ قال : كان الشيخ يعطيني في كل وقت شيئاً فأصبحت يوماً مفلساً فكتبت ورقة وأرسلتها إليه فيها المملوك محمد القوصي أصبح مضروراً . فكتب لي شيئاً . ثم ثاني يوم كتبت المملوك الحواسبي فكتب لي بشيء . ثم ثالث يوم كتبت المملوك محمد فطلبني وقال لي : من هو ابن الحواسبي . فقلت المملوك . قال ومن هو القوصي ؟ قلت المملوك . قال تدلس على تدليس المحدثين . قلت الضرورة . فتبسم وكتب لي » . وهذا لعمرى غاية في الدلالة على كرم ابن دقيق العيد وحلمه وحسن خلقه ، على أنه كان في أكثر أوقاته في فاقة . وقد ذكر ذلك الإدقوى والمقرئزي وغيرهما كابن فضل الله العمرى في كتابه مسالك الأبصار . وسأكتفي من أقوال هؤلاء جميعاً في هذا المقام . بقول العلامة الإدقوى وإليك النص قال^(٢) « لكنه كان غالباً في فاقة تلزمه الإضاعة فيحتاج إلى الاستدانة . وقد تفضي به إلى بذل الوجه المعروف بالصيانة » .

ولست أريد أن أكثر من إيراد النصوص في هذا الصدد وذكر الروايات المختلفة التي تتحدث عن فقره حتى أيام توليته منصب قاضي القضاة إذ قال

(١) الطالع السعيد ص ٣٢٣ .

(٢) الطالع السعيد ص ٣٣٤ .

المقريزى فى مقفاه ما نصه^(١) « وطلب مرة وهو متولى الحكم درهماً من أولاده
ليشترى به شمعة فلم يجدوه » . لست أريد أن أكثر هنا من ذكر النصوص
والأقوال فى مسألة فقره فإن شعره قد كفانا مثونة ذلك إذ يقول :

لعمري لقد قاسيت بالفقر شدة وقعت بها فى حيرة وشتات
فإن بحت بالشكوى هتكت مروءتى وإن لم أبج بالصبر خفت مماتى
فأعظم به من نازل بعلمة يزيل حياثى أو يزيل حياثى

وهذا يدل على أن ابن دقيق العيد قد ذاق مرارة الفاقة وقاسى من الفقر
الكثير وأنه كان يبلغ به الفقر إلى درجة يكون لا مناص معها له من أحد
أمرين . إما أن يبذل ماء الوجه الذى عرف بالصيانة على حد تعبير الإدفوى
أو أنه يحفظ ماء وجهه ويربأ بكرامته فلا يستجدى الناس .

ومعنى هذا أنه سوف يموت جوعاً وبالطبع كان يختار الأولى بحكم غريزة
حب البقاء ، على أن استجداء الناس لم يكن تصريحاً، ولكنه كان فيما أعتقد . وكما
يدل عليه شعره تلميحاً أو تلويحاً . يدل على ذلك ما ذكره ابن الكويك التاجر
أنه قال^(٢) « وجدته مرة فى فاقة فقلت له ألا تكتب ورقة إلى صاحب اليمن ؟
اكتبها وأنا أقضى فيها الشغل فكتب ورقة لطيفة جاء فيها قوله » :

تجادل أرباب الفضائل إذ رأوا بضاعتهم موكوسة الحظ فى الثمن
وقالوا عرضناها فلم نلف طالباً ولا من له فى مثلها نظر حسن
ولم يبق إلا رفضها واضطراحها فقلت لهم لا تعجلوا السوق باليمن

وقوله هذا كما ترى ليس فيه الاستجداء الصريح وإنما هو تعريض أو تلميح
وأما ما ذكره ابن فضل الله العمري فى كتابه مسالك الأبصار^(٣) من أنه كان
كثير التمتع والتسرى وأنه كان يشترى الجوارى ويغالى فيهن الثمن، ولكن إلى أجل
فإذا حان أداء الدين غداً وهو رهينه فيتسامع بحاله من ربطهم عليه حب دينه

(١) ج ٢ لوحة ١٦٥ .

(٢) الطالع السعيد ص ٣٣٥ .

(٣) ج ٣ ق ٣ لوحة ٤٣٤ .

وعلمه فيؤدون عنه ما عليه من الدين فذلك كله فيما أعتقد غلو ومبالغة إذ أجمع الرواة من معاصريه أو معاصري تلامذته أنه كان يديم الدرس والمطالعة والسهر في القراءة والعبادة وما إلى ذلك مما هو من العلم والدين بسبيل . وهذا يعني أن ابن دقيق العيد لم يك منصرفاً إلى الدنيا وملذاتها، وإنما كان منصرفاً بكلية إلى الدرس والتحصيل وعبادة الله وتلاوة كتابه، وأعتقد أن كل من نسب التمتع والتسرى لابن دقيق العيد قد نقل عن ابن فضل الله العمري الذي كان يهمله أن تستقيم جملة وتصح سجعاته أكثر من تحقيق المسائل الهامة والتي كانت أولى منه بالاهتمام، فصاحب مسالك الأبصار حين تكلم عن ابن دقيق العيد لم يك يلتزم الدقة والتحري فيما يروى وينقد، فهو وإن كان قد سمع ما كتب فهو إنما سمع من أعداء ابن دقيق العيد والحاقيقين عليه من أمثال أثير الدين الغرناطي والصاحب تاج الدين . ومهما يكن من أمر فإن ابتياع الجوارى واقتناءهن أمر أحله الشرع وأباحه الدين والله تعالى يقول في كتابه العزيز: « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » الآية . على أنه لا يوجد في الأحاديث النبوية الصحيحة، ولا في الآيات القرآنية ما يشتم منه لا من قريب ولا من بعيد أن التلذذ والتمتع بالمحلات يتعارض مع التقى والورع والصلاح . وأيا ما كان فإن الجميع قد شهدوا لابن دقيق العيد بالتقى والورع وحسن الدين وصحة اليقين . هذا ومن تأمل أحواله وتتبع أخباره وتدبر أشعاره عرف أنه كان متصوفاً رغم أنه لم تسند إليه مشيخة إحدى الزوايا أو الخوانق، ولا قيل عنه إنه كان شيخاً لإحدى الطرق الصوفية فقد رويت له كرامات كغيره من أئمة الصوفية ونسبت إليه نبؤات . فالصاحب تاج الدين قد عجل الله بموته بسبب ابن دقيق العيد على ما سبق أن ذكرت ، ثم إنه تنبأ فيما زعموا لأحد الأمراء بأنه لا يرجع إلى مصر من سفره فلم يرجع، ومسألة انتصار المسلمين على التتار التي كان قد أخبر بها ابن دقيق العيد مشهورة، وكل من ترجم له ذكرها . وشعره يدل على تصوفه وذلك كقوله :

الجسم يذبيبه حقوق الخدمة والقلب عذابه علو الهمة
والعمر بذاك ينقضي في تعب والراحة ماتت فعليها الرحمة

وكتوله أيضاً :

أتعبت نفسك بين لذة كادح طلب الحياة وبين حرص مؤمل
وأضعت نفسك لا خلاعة ماجن حصلت فيه ولا وقار مبجل
وتركت حظ النفس في الدنيا وفي الأخرى ورحت عن الجميع بمعزل

فشعره هذا يدل على أنه كان يسلك في تصوفه مسلكاً يعتمد على ذكر
الله وعبادته ويدعو إلى الزهد والورع والبعد عن المعاصي وترك الموبقات .
أى أنه لم يكن من فريق المتصوفة النظريين الذين اعتنقوا مذاهب ونظريات
هى إلى الفلسفة أقرب منها إلى الدين كنظرية الحلول عند الحلاج ووحدة الوجود
عند محي الدين بن العربي . هذا ولو أردت أن أستوعب مناقبه لاحتجت
إلى زمن طويل وسجل كبير . ومن قبل قال العلامة الإدفوى ما نصه^(١)
«وبالجملة فالاستغراق في مناقبه يخرج عن الإمكان ويحوج إلى توالى الأزمان» .

وفاته

هذا وقد كانت وفاته رحمه الله يوم الجمعة ٢١ صفر سنة ٧٠٢ هـ . ولم
يذكر لنا أحد ممن كتبوا عنه الظروف والملابسات التى اكتنفت وفاته وإنما
اقتصروا على ذكر الزمان الذى مات فيه والمكان الذى دفن فيه . فهذا الإدفوى
يقول ما نصه^(٢) «توفى يوم الجمعة ١١ صفر عام ٧٠٢ هـ ، ودفن يوم السبت
بسفح المقطم وكان ذلك يوماً مشهوداً عزيزاً في الوجود سارع الناس إليه ووقف
جيش مصر ينتظر الصلاة عليه .

هذا ورواية المقرئ تتفق في لفظها ومعناها مع رواية الإدفوى هذه التى
أثبتناها وكلتا الروایتين تصور لنا مدى التكريم والحفاوة التى أحيطت بها جنازة
شيخنا تقي الدين .

(١) الطالع السعيد ص ٣١٨ .

(٢) الطالع السعيد ص ٣٣٨ .

وكانت وفاته عن سبع وسبعين عاماً قضاها في التعلم والتعليم والدرس والتحصيل وفي تلاوة القرآن والصلاة بالليل والناس نيام .

عاش عفا الله عنه معظماً مبعجلاً . ومات رحمه الله معززاً مكرماً . وقد أنجب من الأولاد عشرة سماهم بأسماء الصحابة عرف منهم بالعلم والفضل ابنه الشيخ محب الدين ^(١) الذي مات بعده بأربعة عشر عاماً .

الفصل الثالث

ابن دقيق العيد - العالم الفقيه

قلنا في الفصل السابق إن ابن دقيق نشأ في بيت من أشرف بيوت أهل الصعيد وإن هذا البيت قد عرف أفرادَه بالعلم والدين . والذي يعنينا هنا ، هو الشيخ تقي الدين محمد بن علي بن وهب ، ولا نريد أن نتحدث عنه حديثاً عاماً مجملاً يتناول جميع صفاته ، ووجوه حياته ، وإنما أقصر الحديث هنا عليه من وجهة خاصة ألا وهي شخصيته العلمية أو الفقهية .

ذكرنا في الفصل السابق أن ابن دقيق العيد نشأ في قوص وأنه أخذ العلم عن أبيه وعن الشيخ بهاء الدين هبة الله القفطي وغيرهما ، ثم ارتحل إلى القاهرة فسمع بها الحديث واتصل بالشيخ عز الدين بن عبد السلام وأخذ عنه علماً كثيراً ، ثم ارتحل إلى دمشق سنة ٦٦٠ هـ وسمع من أحمد بن عبد الدايم وزين الدين خالد وغيرهما من علماء دمشق . وقال ابن سيد الناس^(٢) في ترجمة له : «سمع الحديث بمصر والشام والحجاز على تحر في ذلك واحتراز» . وقد ذكر آخرون كصاحب الطالع السعيد وطبقات الشافعية الكبرى أنه سمع الحديث أيضاً بالإسكندرية . ويؤيد ذلك ما ذكره العبدري^(٣) في رحلته من أنه لقي الشيخ تقي الدين أبا الفتح محمد بن علي بن وهب بالإسكندرية سنة ٦٨١ هـ . ومهما يكن من شيء فإن ابن دقيق العيد كان قبل أن يكون فقيهاً عالماً من علماء الحديث سمعه وارتحل في طلبه ثم رواه إلى الناس على تحر واحتراز . روى الإدفوي عن الحافظ محمد بن سيد الناس اليعمرى أنه قال في ترجمته له ما نصه^(٤) «لم أر مثله فيمن رأيت ولا حملت عن أجل منه فيما رأيت ورويت

(١) ج ٢ لوحة ١٦٥ .

(٢) الطالع السعيد ص ٣١٨ .

(٣) رحلة العبدري .

(٤) الطالع السعيد ص ٣١٨ .

وكان للعلوم جامعاً وفي فنونها بارعاً مقدماً في معرفة علل الحديث على أقرانه منفرداً بهذا الفن النفيس في زمانه .

وهذا يدل على مبلغ تمكن ابن دقيق العيد من الحديث وعلومه وقد كتب في هذا الفن كتاباً أسماه « الاقتراح في معرفة الاصطلاح » وكل من ذكره أطرى عليه ووصفه بأنه كتاب جليل الفائدة ، وقد أخرج الشيخ تقي الدين لنفسه أربعين تساعية وقد درس الحديث بقوص ثم بمصر وبخاصة في دار الحديث الكاملية ، فما حدث به ما رواه صاحب الطالع السعيد قال ^(١) « أخبرنا شيخنا العلامة أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف الغرناطي ، حدثنا الشيخ الفقيه الإمام العالم الأوحى المتقن مفتي الفريقين الحافظ الناقد تقي الدين محمد بن الشيخ الفقيه الإمام العالم الورع الزاهد مجد الدين أبي الحسن علي بن أبي العطايا وهب بن مطيع ابن أبي الطاعة القشيري رضي الله عنهم يوم الأحد المبارك ثاني شهر رمضان المعظم من سنة ٦٨٦ هـ بمنزله من دار الحديث الكاملية بالمعزية إملاء من لفظه . قال « قرأت على الإمام المفتي أبي الحسن علي بن أبي الفضائل هبة الله بن سلامة الشافعي اللخمي بمصر على الإمام الحافظ أبي الطاهر السلفي قراءة عليه بالإسكندرية » . أخبرنا الشيخ الرئيس أيوب عبد الله القاسم بن الفضل الثقفي بأصبهان . حدثنا أبو الفتح هلال بن جعفر بن سعدان . قراءة عليه ببغداد حدثنا أبو عبد الله الحسن بن يحيى بن عباس القطان . حدثنا أبو الأشعث أحمد ابن المقدم العجلي . حدثنا حماد بن زيد عن عاصم بن سليمان عن عبد الله ابن سرجس قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا سافر : اللهم إني أعوذ بك من وعشاء السفر وكآبة المنقلب ومن الحور بعد الكور ودعوة المظلوم وسوء المنظر في الأهل والمال » . وقيل لعاصم ما الحور بعد الكور ؟ قال حار بعد ما كار . قال شيخنا أثير الدين قال لنا الشيخ تقي الدين « هذا حديث صحيح ثابت من حديث عاصم الأحول » . أخرجه مسلم من حديث جماعة عنه وفيه نوعان من أنواع العلو . أحدهما العلو إلى النبي صلى الله عليه وسلم فإنه

(١) الطالع السعيد ، ص ٣٢٠ .

أعلى ما يقع لنا بالأسانيد الجيدة . الثاني العلو إلى إمام أئمة الحديث وهو حماد ابن زيد .

وبهذا الإسناد إلى الثقفى . قال حدثنا على بن محمد بن عبد الله بن بشران حدثنا إسماعيل بن محمد الصفار . حدثنا سعدان بن نصر بن منصور . حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو سمع جابر بن عبد الله يقول . لما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم » قال : أعوذ بوجهك أو من تحت أرجلكم » قال : « أعوذ بوجهك » أو يابسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض » قال : هاتان أهون وأيسر » قال شيخنا أثير الدين أبو حيان قال لنا الشيخ هذا حديث ثابت صحيح من حديث سفيان بن عيينة وفيه النوعان المتقدمان من العلو مع كونه بدلاً فإن البخارى أخرجه عن على ابن المدينى عن سفيان . وفيه نوع زائد من العلو وهو المسمى بعلو التزويل : فإن الثقفى كان سمعه من صاحب البخارى ، وبه إلى الثقفى . حدثنا أبو عمرو محمد ابن محمد بن بالويه الصائغ قراءة عليه بنيسابور . حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب بن يوسف الأهوى حدثنا العباس بن محمد الدورى . حدثنا خالد بن مخلد . حدثنا سليمان بن بلال . حدثنا عمارة بن غزيرة عن نعيم بن عبد الله عن أبي هريرة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « أنتم الغر المحجلون يوم القيامة من إسباغ الوضوء فمن استطاع منكم فليطل غرته وتحجيلة » . صحيح متفق عليه من حديث نعيم المجرم وهو من حديث عمارة انفرد به مسلم . وهذا يعطينا صورة لتحديث ابن دقيق العيد وكيفية روايته الحديث ثم هو يدل على مدى معرفة ابن دقيق العيد لعلم مصطلح الحديث وأنه كان به مكيناً وقد كان يمتنع عن رواية الحديث لأدنى شك يخامرهم إما فى الشيخ أو فى كيفية تحمله عن الشيخ ، فقد ذكر ابن حجر فى كتابه الدرر الكامنة^(١) « أن قطب الدين الحلبي قال أتيت (يريد ابن دقيق العيد) بجزء سمعه عن ابن رواح والطبقة بخطه فقال حتى أنظر فيه ثم عدت إليه . فقال هو خطى ولكن ما أحقق سماعه ولا أذكره

ولم يحدث به ثم قال ابن حجر وكذلك لم يحدث عن ابن المقير مع صحة سماعه منه لكن شك هل نعس حال السماع أم لا ؟ .

وهذا أكبر شاهد على أن ابن دقيق العيد كان يتشدد في رواية الحديث فلا يروى حديثاً إلا عن تحرر واحتراز على ما سبق أن ذكرت . وقد ترجم له الذهبي في كتابه تذكرة الحفاظ على أنه أحد حفاظ الحديث الأعلام الموثوق بروايتهم والمقطوع بصحة ما يحدثون به عن النبي عليه السلام . غير أنه كان قليل التحدث لا لقلة ما حفظه من الأحاديث ولكن لفرط التحري والاحتراز فهو لم يكن يسمح لنفسه أن يروى حديث الرسول عليه السلام وفي نفسه من روايته أقل وهم أو أدنى ارتياب ، كما روينا ذلك في حديث قطب الدين الحلبي . فهو لم يرض أن يروى له الجزء الذي جاء به ليصحح عليه سماعه رغم أن الطبقة كانت بخط ابن دقيق العيد كما أنه لم يرض أن يروى عن ابن المقير مع صحة سماعه منه لأنه شك في كيفية تحمله عنه إذ لم يستطع أن يتذكر حاله التي كان عليها أثناء سماعه هل كان ينعس أم كان يقظاً .

وبالجملة فابن دقيق العيد عالم من علماء الحديث وهو أحد الحفاظ الثقات وليس غريباً أن يكلف ابن دقيق العيد برواية الحديث ودراسة علوم الحديث وأن يعنى بذلك عناية كبرى ليس في ذلك أى غرابة . إذا عرفنا أن ابن دقيق العيد كان إماماً من أئمة الفقه فمعرفة علم الفقه على الوجه الأكمل تقتضى دراية الحديث ومعرفة علله وطرق الجرح والتعديل في الرواية والسند لأن الأحكام الفقهية إنما هي مستمدة من كتاب الله الكريم والسنة النبوية الشريفة وهي عبارة عن أقوال الرسول وأفعاله وتقريراته . ومن هنا كانت عناية العلماء والفقهاء وبخاصة المجتهدون شديدة بالحديث وطرق روايته لأن الحديث كان عرضة للوضع والتدليس ، وقد كثرت الكذابين في الحديث بسبب تعدد الفرق الإسلامية من جهة وظهور الشعوبية من جهة أخرى ثم العصبية الإقليمية التي كان لها دخل كبير في وضع كثير من الأحاديث . فالشيعة كانوا كثيراً ما ينسبون إلى النبي عليه السلام أحاديث تتعلق بإمامة علي وذريته . وكذلك رجال علم الكلام كالمعتزلة

والقدرية والأشاعة وغير هؤلاء كثير . فكل فرقة منهم كانت تنسب إلى النبي عليه السلام من الأحاديث ما يؤيد وجهة نظرها، ثم تلك الأحاديث التي وضعها أهل الأمصار في تفضيل أمصارهم فأهل المدينة وأهل مصر وأهل الشام وأهل مكة كل ينسب إلى النبي حديثاً في أن بلده تفضل جميع البلدان . ولست بصدد تبين ذلك وبسطه وإنما القصد أن أقول إن حاجة الفقيه إلى الحديث وعلومه ماسة جداً وشديدة فلو لم يكن الفقيه على دراية تامة بعلم الحديث ومعرفة وجوه الصحة والضعف لاختلط عليه الأمر ولوقع منه استنباط حكم شرعي من حديث مكذوب وفي ذلك ما فيه من الإضرار بالشرعية الإسلامية . فابن دقيق العيد إذا كان عالماً محدثاً قبل أن يكون عالماً من علماء الفقه ثم إن الفقيه لا بد له من الإحاطة بالنحو والصرف وعلوم البلاغة وغير ذلك من علوم اللغة .

وهذا ما رأيناه في شخص ابن دقيق العيد إذ كان رحمه الله حاذقاً في جميع تلك العلوم بشهادة تلامذته والذين كتبوا عنه أو قالوا شيئاً في حقه وكانوا يعيشون في القرن الثامن وإليك طرفاً من أقوال وآراء أولئك العلماء الأعلام المعتمد بآرائهم والموثوق بأقوالهم من أولئك الذين ترجموا لابن دقيق العيد . قال الإدقوي^(١) ينعت ابن دقيق العيد ويصفه بغزارة العلم والتفوق فيه والتقدم على غيره . قال : « هو الشيخ الإمام علامة العلماء الأعلام وراوية فنون الجاهليين وعلوم الإسلام ذو العلوم الشرعية والفضائل العقلية والفنون الأدبية والمعارف الصوفية ، والباع الواسع في استنباط المسائل ، والأجوبة الشافية لكل سائل والاعتراضات الصحيحة التي يجعلها الباحث لتقرير المشكلات وسائل ، والخطب الصادحة الفصيحة البليغة التي تستفاد منها الوسائل إن عرضت الشبهات أذهب جوهر ذهنه ما عرض ، أو اعترضت المشكلات أصاب شاكلتها بسهم فهمه فأصاب الغرض » .

وقول الإدقوي هذا دليل على أن ابن دقيق العيد كان على إحاطة تامة

(١) الطالع السعيد ص ٣١٧ .

ومعرفة صادقة باللغة العربية وعلومها ، وأوضح من هذا في هذا المقام ما ذكره ابن حجر في كتابه الدرر الكامنة^(١) قال ما نصه : « وما يدل على تقدم الشيخ تقي الدين في العلم أن زكي الدين عبد العظيم بن أبي الإصبع صاحب البديع ذكره في كتابه فقال : « ذكرت آية للفقير الفاضل تقي الدين محمد بن علي بن وهب القشيري أبقاه الله تعالى وهو من الذكاء والمعرفة على حالة لا أعرف أحداً في زمني عليها ، وذكرت له عدة وجوه المبالغة منها وهي عشرة ولم أذكرها مفصلة وغبت عنه قليلاً ثم اجتمعت به فذكر لي أنه استنبط فيها أربعة وعشرين وجهاً من المبالغة يعني قوله تعالى : (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب) الآية فسأله أن يكتبها لي فكتبها بخطه وسمعتها منه بقراءتي واعترفت له بالفضل في ذلك » . ثم قال ابن حجر « وقد عاش الشيخ تقي الدين بعد ابن أبي الإصبع زيادة عن أربعين سنة » . ومعنى هذا أن هذه القصة وقعت لابن أبي الإصبع مع ابن دقيق العيد وهو في الثلاثين من عمره أو فوق ذلك بقليل لأن ابن دقيق العيد عاش سبعة وسبعين عاماً . فلو فرضنا أن القصة المذكورة حدثت قبل وفاة ابن أبي الإصبع بعام أو عامين وأن ابن دقيق العيد عاش بعده أكثر من أربعين سنة كما يقول ابن حجر . لو قدرنا ذلك كله لكان عمر ابن دقيق العيد وقتذاك لا يزيد عن أربعة وثلاثين عاماً . وهذا يعني أن ابن دقيق العيد رحمه الله كان مبرزاً في جميع العلوم ومن بينها البلاغة في سن مبكرة وفي عهد الطلب « أي أيام التلمذة » . هذا وقد كان يجيد معرفة علم التفسير وأصول الفقه وغير ذلك من العلوم العقلية والنقلية لإجادة تامة . وفي هذا المعنى يقول الإدفوي ما نصه^(٢) « إن ذكر التفسير فمحمد فيه محمود المذهب ، أو الحديث فالقشيري فيه صاحب الرقم المعلم والطراز المذهب ، أو الفقه فأبو الفتح العزيز الإمام الذي إليه الاجتهاد ينسب ، أو الأصول فأين ابن الخطيب من الخطيب وهل يقرن الخطي بالمصيب ؟ » ثم قال بعد ذلك بقليل « وقام بوظيفة التحقيق والتدقيق التي لا يطيقها غيره من

(١) ج ٤ ص ٩٥ .

(٢) الطالع السعيد ص ٣١٧ .

أهل زمنه ولا عليها يقوى مع ترك المباهاة بما لديه من الفضائل والسلامة من الدعوى وجعل وظيفة العلم والعمل له ملة حتى قال بعض الفضلاء من مائة سنة . ما رأى الناس مثله حاز علماً وديناً ونزاهة فعظم قدراً وجاهاً ووجاهة . وهذا دليل على رسوخ قدم ابن دقيق العيد في العلم وتفوقه في شتى أنواعه على جميع أقرانه مع التواضع وترك المباهاة والبعد عما ابتلى به كثير من العلماء من مرض الادعاء وحب الظهور وقد وصفه ابن سيد الناس ، الحافظ فتح الدين اليعمرى في ترجمته له بما هو أهله وإليك النص وفق ما جاء في طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي قال ما نصه (١) « وكان حسن الاستنباط للأحكام والمعاني من السنة والكتاب بلب يسحر الأبواب وفكر يفتح ما يستغلق على غيره من الأبواب ، مستعين على ذلك بما رواه من العلوم ، مستبين ما هنالك بما حواه من مدارك الفهوم مبرز في العلوم العقلية والعقلية والمسالك الأثرية والمدارك النظرية .

وكان من العلوم بحيث يقضى له من كل علم بالجميع »

وكلام اليعمرى هذا حجة فيما نذهب إليه من القول بأن ابن دقيق العيد كان من العلماء الراسخين الذين جمعوا بين المعقول والمنقول وأخذوا من كل علم بناصيته . هذا وقد وصفه الصفدى بما يكشف لنا عن مقدرته العلمية وطاقته العقلية . قال (٢) « بصيراً بعلم المنقول خبيراً بعلم المعقول :

يروى فيروى كل ذى ظمأ له يحمى الحديث تعلق وهيام
ببليهة في العلم يقسم من رأى ذاك التسرع أنه إلهام »

ثم قال : « وكيف لا يكون ذلك وهو الذى بعثه الله على رأس المائة السابعة ليجدد للأمة أمر دينها ويبين مما ما اشتبه من قواعد شريعته عند تثبتها . هذا وإن جميع أقوال الثقات تتفق على أن ابن دقيق العيد كان ضليعاً في جميع العلوم

(١) طبقات الشافعية الكبرى ج ٦ ص ٢ - ٣ .

(٢) الوافى بالوفيات ورقة ٩٥٧ وأعيان العصر ج ٦ لوحة ٩١ .

اللغوية والشرعية والعقلية فهو قد درس النحو والصرف والبلاغة وبقية العلوم اللغوية لأن ذلك ضرورى لفهم كتاب الله وسنة رسوله وبدون ذلك لا يتأتى له بحال من الأحوال تبين المسائل الدينية واستنباط الأحكام الشرعية .

أما العلوم العقلية كالمنطق والمقولات العشرة والمقدمات الفلسفية والبراهين العقلية التى تزخر بها كتب علم الكلام فذلك أيضاً ضرورى ، لأن أصول الفقه الذى يرسم طرق الاجتهاد ويبين وسائل الاستنباط يعتمد فى أكثر مباحثه على قواعد منطقية ومسائل فلسفية . وبعد هذا التبيان لشخصية ابن دقيق العيد العلمية وطاقته العقلية والفكرية بصورة عامة أعرض إلى مكانته الفقهية بصورة خاصة محاولاً الإجابة على هذا السؤال ، هل كان ابن دقيق العيد فقيهاً شافعيّاً أو مالكيّاً أو أنه كان مجتهداً أو صاحب مذهب خاص بحيث يصبح فى عداد الأئمة المجتهدين وليس فى عداد علماء الفقه المقلدين وحتى يكون الجواب صحيحاً والحكم سديداً لابد لى من أن أستعرض فى إيجاز لا تفريط فيه ولا تقصير أقوال العلماء المنصفين ممن ترجموا لابن دقيق العيد مما يمت بصلة وثيقة لهذه المسألة بالذات أو يلقى عليها ضوءاً يعين على تبينها فى وضوح . اتفق الرواة والمترجمون على أن ابن دقيق العيد أخذ فقه مالك عن أبيه وفقه الشافعى عن تلميذ أبيه البهاء هبة الله القفطى . ثم عن الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام وأنه درس أصول الفقه عليه وعلى أبيه وهو لا يختلف فى شيء ذى بال عند الشافعية عنه عند المالكية والأزهر يوحى فى وقتنا الحاضر دراسة الأصول بالنسبة للمذاهب الثلاثة . مالك والشافعى وابن حنبل . ويفرد لأصول الأحناف منهجاً خاصاً ودراسة خاصة تغاير مغايرة تامة أصول الشافعية والمالكية والحنابلة .

ومعنى هذا أن المذاهب الثلاثة تعتمد فى استنباطها الأحكام الشرعية على طريقة أو أصول واحدة . أما الأحناف فهم يعرفون بأهل رأى لأنهم يعتمدون فى استنباط أحكامهم الشرعية على العقل فهم فى علم الفقه يشبهون المعتزلة فى علم الكلام . والقصد من هذا أن أقول إن التقارب والتشابه كبير بين مذهبي الإمام مالك والشافعى . وقد ذكر الطالع السعيد أن ابن دقيق العيد

درس على أبيه فقه مالك وفقه الشافعي معاً .

ولعل هذا مجرد استنتاج أو تقدير من الإدفوى لأنه يعلم أن علي بن وهب كان يعرف المذهبين . أعني مذهب مالك والشافعي على ما ذكره هو في ترجمته للشيخ مجاهد الدين والد الشيخ تقي الدين .

ومهما يكن من شيء فإن ابن دقيق العيد قد درس المذهبين ودرس فيهما ، فقد ذكر الإسنى في كتابه طبقات الشافعية أن ابن دقيق العيد اشتغل بتدريس المذهبين في المدرسة الفاضلية وأنه درس مذهب الشافعي في المدرسة الناصرية التي أنشأها صلاح الدين الأيوبي بجوار قبة الإمام الشافعي رضي الله عنه . وكان رحمه الله قد حذق المذهبين وتمكن منهما في ريعان الصبي وشرح الشباب ، يدل على ذلك ما رواه الصفدي في كتابه أعيان العصر^(١) أن الشيخ ركن الدين محمد بن محمد بن القويح مدح ابن دقيق العيد بقصيدة طنانة جاء فيها قوله :

صبا للعلم صباً في صباه فأعل بهمة الصب الصبي
وأقن والشباب له لباس أدلة مالك والشافعي

وهذا يدل على أن ابن دقيق العيد لم يكن قد درس المذهبين وعرف مسائلهما فقط ، وإنما جاوز ذلك بأن وقف على أدلة قضايا كل من المذهبين وتلك مرتبة المحققين المدققين الذين يعرفون لدى الفقهاء بمجتهدى المذاهب ، لأن الفقيه إذا عرف الأحكام على مذهب من المذاهب وعرف بعد ذلك أدلة تلك الأحكام كان معناه أنه خرج من دائرة التقليد إلى دائرة الاجتهاد فرجال الدين الذين يدرسون المذاهب الفقهية ويستظهرون أقوال الأئمة المجتهدين دون أن يبحثوا عن أدلة ذلك يكونون مقلدين . وهذا معنى كون العالم شافعيّاً أو مالكيّاً مقلداً فإن بحث عن الأدلة وتعرف البراهين استطاع أن يفاضل بين الآراء ويميز بين الأقوال قوة وضعفاً ولكن في إطار المذهب وهؤلاء أمثال الرافعي والرملي من الفقهاء الشافعية فقد كان الرملي يرجح آراء لا يرجحها الرافعي وكذلك كان

الرافعي يرجح أقوالا ويستصوب أحكاماً لا يستصوبها الرملي ولا يعدها من الأقوال المعتمدة التي يصح أن يعول عليها . وبناء على هذا فابن دقيق العيد لم يك في شبابه مقلداً لا لمالك ولا للشافعي وإنما كان أولاً مجتهداً في نطاق المذهبين ثم انتهى به الأمر إلى أن أصبح في عداد الأئمة المجتهدين الذين يقلدون ولا يقلدون، وهو قد حكى ذلك عن نفسه، وكان لا يرضى أن ينسب إلى المذهب الشافعي أيام توليته القضاء . فقد روى الصفدي في كتابه أعيان العصر . « قال شيخنا أبو الفتح وما كان الشيخ تقي الدين يرضى قول من يقول قاضي القضاة الشافعي فإذا قلنا قاضي قضاة الشافعية قال . إيه هذا » .

وذكر الصفدي^(١) في موضع آخر أن ابن دقيق العيد قال : « وافق اجتهدى اجتهد الشافعي إلا في مسألتين . إحداهما أن الابن لا يزوج أمه . والأخرى (ولم يذكرها الصفدي فلعله نسيها) ، ثم قال وحسبك بمن يتزل ذهنه على ذهن الشافعي . قلت أما مسألة الابن وعدم تزويجه لأمه ، فلأنه متفرع عن أصليين : أحدهما أبوه ولا ولاية له في تزويج أمه . والثاني أمه وما لها أن تزوج نفسها فبطل أن يكون للابن ولاية في تزويج أمه » . ووضح من شرح الصفدي لمسألة تزويج الولد أمه أنه يؤيد ابن دقيق العيد ويفضل رأيه على رأى الشافعي .

هذا وقد قال الإدفوي في هذا المقام ما نصه^(٢) « وكتب له بقية المجتهدين وقرأ بين يديه فأقر عليه ولا شك أنه من أهل الاجتهاد ولا ينازع في ذلك إلا من هو من أهل العناد، ومن تأمل كلامه علم أنه أكثر تحقيقاً وأمتن وأعلم من بعض المجتهدين فيما تقدم وأتقن » ثم قال . « وحكى لنا صاحبنا الفقيه الفاضل العدل علم الدين أحمد الإسنوي . قال ذكره شيخنا العلامة علاء الدين علي بن إسماعيل القونوي . فقلت له ادعى الاجتهاد فسكت ساعة مفكراً . وقال والله ما هو ببعيد » وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الذين عاصروا ابن دقيق العيد وعرفوه عن كثب ، أقروا له بالاجتهاد . هذا ولقد قال الإسنوي في

(١) الوافي بالوفيات ج ٢ ورقة ٩٥٧ .

(٢) الطالع السعيد ص ٣١٨ .

طبقاته أثناء ترجمته لابن دقيق العيد قال يصفه بالتقى والورع والدين الصحيح وبالتفوق في شتى ميادين العلم وأنواع المعرفة في العلوم الدينية واللغوية والنقلية والعقلية وأنه متفوق في ذلك كله على جميع أبناء عصره وإليك النص^(١) .

قال : «شيخ الدهر بلا نزاع ووجه العصر بغير دفاع ، ذو المناقب المشهورة والكرامات الماثورة ، تمسك بالسبب الأقوى من التقوى وقام من الاجتهاد بعبد لا يطيق أحد حمله ولا يقوى ، الجامع للعلوم الشرعية والعقلية واللغوية حافظ الوقت خاتمة المجتهدين » . وهذا القول يسعفنا فيما ذهبنا إليه ويعضدنا كل التعضيد ويؤيدنا كل التأييد من أن ابن دقيق العيد قد انتهى إلى مرتبة الاجتهاد لا بل قد ختم به الاجتهاد على حد تعبير العلامة الإسنوي وهو بلا شك حجة في هذا الشأن لأنه كان فقيهاً أصولياً . وكتابه في علم أصول الفقه على مذهب الشافعي دليل على مكانته العلمية ، فالإسنوي حين قال إن ابن دقيق العيد خاتمة المجتهدين كان يفهم قوله ذلك تمام الفهم . وبالحملة فقد أقر لابن دقيق العيد بالتقدم في العلم والرسوخ فيه وباليد الطولى والباع الواسع في البحث والتحقيق أقر له بذلك العدو والصديق والموافق والمخالف قال الإدفوي^(٢) . «أما نقده وتدقيقه فلا يوازي فيه» . ثم قال «جرت ذكر ذلك مرة عند الشيخ صدر الدين بن الوكيل وكان لا يحبه وكان يتكلم في شيء يتعلق به ويذكر أنه ليس كثير النقل فشرعت أذكر له شيئاً إلى آخر الكلام . ذكرت بحثاً له . فقال لا يا سيدى . أما إذا نقد وحرر فلا يوفيه أحد» . وهذه شهادة بفضل ابن دقيق العيد وعلو قدره في العلم ورسوخه فيه صادرة عن الشيخ أسد الدين الذى يقول عنه الإدفوي . إنه كان يكره ابن دقيق العيد ويتكلم فيه . يعنى أنه كان يطعن عليه ولعل طعنه هذا كان في أمور تتعلق بوظيفة القضاء . ومهما يكن من شيء فإنها في رأي شهادة لها كل وزن وتقدير في الدلالة على تفوق ابن دقيق العيد على جميع أقرانه وأنه جاوز منزلة التقليد إلى مرتبة الاجتهاد . والمثل العربى يقول . والفضل ما شهدت

(١) الإسنوي - طبقات الشافعية ورقة ١١٤ .

(٢) الطالع السعيد ص ٢٢٥ .

به الأعداء . هذا وإن كتب ابن دقيق العيد ومصنفاته لتنطق بغزارة علمه وعظم قدرته على التحقيق والتدقيق، وهي عديدة كثيرة بعضها في الفقه وبعضها في أصول الفقه وبعضها في الحديث وعلومه، وقد وصف المقرئ في كتابه المقتنى^(١) أمالي ومصنفات ابن دقيق العيد فقال مانصه: «وصنف وأملى فمن أماليه شرح عمدة الأحكام وهو يدل على منزلته في العلم . وشرح كتاب الإمام وهو يتضمن من الفوائد النقلية والقواعد العقلية والأنواع الأدبية والنكت الخلافية والمباحث المنطقية واللطائف البيانية والمواد اللغوية والأبحاث النحوية والعلوم الحديثية والملح التاريخية والإشارات الصوفية، لو كمل لأغنى عن كل مصنف في هذا المعنى وخرج لنفسه أربعين تساعية . وشرح كتاب العمدة للحافظ عبد الغنى المقدسى، وشرح المطرزية في النحو وكتاب الاقتراح في معاني الإصلاح، وكتاب الأربعين في الرواية عن رب العالمين . وشرح كتاب ابن الحاجب في الفقه على مذهب مالك، وشرح كتاب ابن الحاجب أيضاً في الأصول» .

وأما الصفدى فقد قال في كتابه أعيان العصر^(٢) «وله التصانيف البديعة كالإمام والإمام شرحه ولم يكمل ولو كمل لم يكن للإسلام مثله . وكان يجيء في خمس وعشرين مجلداً، وله علوم الحديث وشرح العمدة في الأحكام الذي أملاه على ابن الأثير فاضل العصر الذي يعرفه وهو إمام . وشرح مقدمة المطرز في أصول الفقه، وألف الأربعين في الرواية عن رب العالمين، وشرح بعض مختصر ابن الحاجب . وشرح ابن الحاجب في فروع المالكية . وشرح مختصر التبريزي في فروع الشافعية» .

ويفهم من كلام الصفدى أن كتاب الإمام هو شرح كتاب الإمام في حين أن الإسنى قد ذكر العكس إذ قال ما نصه^(٣) «وكان رحمه الله قد أكمل كتابه الكبير العظيم الشأن المسمى بالإمام بهمزة مكسورة بعدها ميم، وهو

(١) ج ٢ لوحة ١٦٥ - ١٧٢ .

(٢) ج ٦ لوحة (٨١) .

(٣) الإسنى - طبقات الشافعية ورقة ١١٤ .

الذى استخرج منه كتابه المختصر المسمى بالإمام بزيادة اللام فحسده عليه بعض كبار هذا الشأن ممن في نفسه عداوة فلس من سرق أكثر هذه الأجزاء وأعدمها . ويؤيد قول الإسنوي هذا ما ذكره ابن حجر العسقلاني في كتابه رفع الإصر عن قضاة مصر إذ قال ما نصه ^(١) « وصاحبنا جمال الدين لم يفرق بين الإمام وبين شرح الإمام كأنه كغيره من الطلبة يظن أن الإمام شرح الإمام وليس كذلك ، فالإمام كتاب في أحاديث الأحكام على الأبواب الفقهية وكان استمداد الإمام منه والموجود منه قطعة نحو الربع ولكنها مفرقة إلى آخره .

وأيا ما كان فإن ابن دقيق العيد قد ألف وصنف وشرح وأملى كما هو واضح من الأقوال التي ذكرتها وغيرها مما لم أذكره في الفقه على المذهبين الشافعي ومالك . ولعل هذا كان أثناء قيامه بتدريسهما معاً في المدرسة الفاضلية وأيضاً في أصول الفقه ورواية الحديث وعلم مصطلح الحديث وغير ذلك من العلوم الدينية ، واللغوية ، ومؤلفاته في جملتها تدل على أن ابن دقيق العيد إمام مجتهد له شخصيته المستقلة في استنباط الأحكام الفقهية واستخراج القواعد الشرعية ، وكتابته المسمى بإحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام يزخر بالمباحث الأصولية والفقهية التي هي صورة واضحة يتمثل فيها اجتهاد ابن دقيق العيد وتتجلى بها شخصيته الفقهية المستقلة . وليس هذا قاصراً على الأحكام الفقهية وإنما هو أيضاً يشمل المصطلحات الأصولية . أعني أنه ذو شخصية واضحة في الأصول والفروع فمثلاً تواطأ الأصوليون على أن يجعلوا الخاص في مقابلة العام والمطلق في مقابلة المقيد أما هو فلم يلتزم هذه القاعدة وجعل المقيد يقابل العام كما هو واضح من أول بحث يواجهنا في كتابه إحكام الأحكام وأسلوبه فيه يدل في وضوحه ويسر عبارته وسهولة مأخذه على حسن تصور ابن دقيق العيد للمعاني والأحكام ووضوح المسائل الشائكة المعقدة في ذهنه . فأنت تقرؤه وكأنك تقرأ كتاب أحد المعاصرين لما به من سهولة التعبير ووضوح الغرض ، وهذا أدل شيء على تمكن ابن دقيق العيد من العلم . غير أن مباحثه في جملتها وعلى كثرتها

في جل كتبه إنما تتعلق بالعلم من حيث هو حديثاً وأصولاً وقواعد كلية ولا سيما فقه الحديث والاستنباط منه مما لا يتوافر في العادة أو المؤلف إلا عند الأئمة المجتهدين . وإليك على سبيل المثال طرفاً مما جاء في شرحه للحديث الأول من كتاب الطهارة في عمدة الأحكام لعبد الغنى المقدسى مما يتجلى فيه وضوح الأسلوب وصفاء اللفظ وسلامة التعبير من التعقيد من جهة ثم الإفصاح عما كان عليه ابن دقيق العيد من غزارة العلم والقدرة الفائقة على البحث والتحقيق وتوضيح المشاكل وحل المضكلات مما لا يتوافر في العادة أو المؤلف إلا عند الأئمة المجتهدين من جهة أخرى . وذلك الحديث هو قوله صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » . الحديث . فقد قال في شرحه رحمه الله بعد أن ترجم لراويته وهو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما نصه « ثم الكلام على هذا الحديث من وجوه^(١) أحدها أن المصنف رحمه الله بدأ به لتعلقه بالطهارة ، وامثل قول من قال من المتقدمين إنه ينبغي أن يبتدىء به في كل تصنيف ووقع موافقاً لما قال .

الثاني — كلمة « إنما » للحصر على ما تقرر في الأصول ، فإن ابن عباس رضى الله عنهما فهم الحصر من قوله صلى الله عليه وسلم « إنما الربا في النسيئة » وعورض بدليل آخر يقتضى تحريم ربا الفضل . ولم يعارض في فهمه للحصر . وفي ذلك اتفاق على أنها للحصر . ومعنى الحصر فيها إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما عداه وهو نفيه عما عداه ، بمقتضى موضوع اللفظ ، أو هو من طريق المفهوم فيه بحث .

الثالث — إذا ثبت أنها للحصر فتارة تقتضى الحصر المطلق ، وتارة تقتضى حصراً مخصوصاً ويفهم ذلك بالقرائن والسياق كقوله تعالى (١٣ - ٧) إنما أنت منذر وظاهر ذلك الحصر للرسول صلى الله عليه وسلم في النذارة . والرسول لا ينحصر في النذارة بل له أوصاف جميلة كثيرة . كالبشارة وغيرها . ولكن مفهوم الكلام يقتضى حصره في النذارة لمن لم يؤمن ، ونفى كونه قادراً على

(١) أحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام ج ١ ص ٩١ .

إنزال ما شاء الكفار من الآيات . وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي » معناه حصره في البشرية بالنسبة إلى الإطلاع على بواطن الحصوص ، لا بالنسبة إلى كل شيء . فإن للرسول صلى الله عليه وسلم أوصافاً أخرى كثيرة . وكذلك قوله تعالى (إنما الحياة الدنيا لعب) يقتضى — والله أعلم — الحصر بالنسبة لمن أثرها . وأما بالنسبة إلى ما هو في نفس الأمر . فقد تكون سبيلاً إلى الخيرات ، أو يكون ذلك من باب التغليب للأكثرية في الحكم على الحصر في شيء مخصوص . فقل به . وإن لم يكن في شيء مخصوص . فاحمل الحصر على الإطلاق . ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات » والله أعلم . وهكذا يمضى ابن دقيق العيد في ذكر وجوه شرح الحديث وتبيان معناه حتى أوصلها إلى عشرة وجوه .

هذا ومن الأمور التي تعكس لنا صورته الاجتهادية وتوضح لنا شخصيته الفقهية المستقلة . رأيه في حديث القلتين وهو قوله صلى الله عليه وسلم « إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثاً » . فالشافعية والمالكية قد أخذوا جميعاً بهذا الحديث وقالوا في كتبهم الفقهية تفريعاً على هذا الحديث . إذا تجمع الماء في موضع بما يبلغ مقدار قلتين ويشرحونه بتعبير عصرنا هذا فيقولون بمقدار جرتين فإنه لا ينجس هذا الماء أى شيء يقع فيه من أنواع النجاسات ، والفقهاء جميعاً قد اتفقوا على صحة هذا الحديث وصحة العمل به . أما ابن دقيق العيد فقد وافقهم على صحة الحديث من جهة النقل والرواية ونسبته إلى النبي عليه الصلاة والسلام . ولكنه خالفهم فيه من حيث صحة العمل به أو عدمها فهم قد صححوا العمل بهذا الحديث وأجازوه . أما هو فلم يصحح العمل به ولم يجزه لا لمعارض أرجح منه ولكن لأنه لم يثبت لديه بطريق شرعى صحيح تعيين مقدار القلتين . ومن المسائل الفقهية التي خالف فيها الشيخ تقي الدين الإمام الشافعى المسألة التي سبق أن ذكرتها نقلاً عن الصلاح الصفدى . وأعنى بها مسألة تزويج الولد أمه ، فإن الشافعى يرى أن الولد يزوج أمه . ومعنى هذا أن الشافعى يجعل للولد الولاية على الأم . أما ابن دقيق العيد فقد رأى أن الولد لا يزوج أمه مخالفاً بذلك

الإمام الشافعي . والحجة العقلية في هذا تؤيد ابن دقيق العيد لأن الولد إذا استحق الولاية على أمه فهو إنما يستحقها لأحد أمرين اثنين . الأول كونه ابن أبيه وهذا لا يعطيه الحق في الولاية لأن أباه وإن رثه وتركته فإنه لم يستطع أن يورثه حق الولاية على أمه لأن أم ابنه زوجته والزوج ليس من حقه أن يزوج امرأته، لأنها إما أن تكون على ذمته أو تكون مطلقة فإن كانت على ذمته فلا يتصور بحال من الأحوال أن يزوجها . وإذا كانت مطلقة، فإن ولاية أمرها في هذه الحالة إما أن تكون إلى أبيها أو من له حق الولاية عليها أو أن يكون بيدها هي . فهي حرة أمرها إن شاءت تزوجت وإن شاءت لم تتزوج . وإذن فالمنطق في هذا الوجه يؤيد ابن دقيق العيد وهو أن الولد لا يملك بوصفه ابن أبيه أن يزوج أمه . وأما الثاني وهو أن يزوجها بوصفه ابنها فهو أيضاً لا يصح أن يكون ذريعة أو سبباً في إعطاء الولد حق ترويج الأم لأنها في هذه الحال صاحبة الشأن في أمر زواجها وليس هناك من الأسباب الشرعية أو العقلية ما يمنعها من أن تكون ولية أمرها بنفسها، وبناء عليه تكون نظرية ابن دقيق العيد أصح وأسلم بالاعتبارين .

هذا وإني لأرجو أن أكون قد وفقت في هذا الفصل إلى رسم صورة توضح لنا شخصية ابن دقيق العيد العلمية بوجه عام والفقهية بوجه خاص كما أرجو أن يحظى رأيي في ابن دقيق العيد بالقبول والتأييد . وهو أنه أمام مجتهد وليس فقيهاً مقلداً .

وخيراً ما أختتم به هذا الفصل هو ذكر شيوخ ابن دقيق العيد وتلامذته . أما شيوخه فهم أولاً والده فقد سمع منه الحديث ودرس عليه الفقه والأصول . ثم بهاء الدين هبة الله القفطي وقد سمع منه الحديث أيضاً ودرس عليه فقه الشافعية وكان يعترف له بالفضل عليه ويقول البهاء معلماً، ومن أهم شيوخه وأجلهم الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام فقد درس عليه ابن دقيق العيد فقه الشافعية وعلم أصول الفقه وسمع الحديث في مصر والإسكندرية والشام فمن سمع منهم الحافظ عبد العظيم المنذرى وأبو الحسن بن الأنجب أبو عبد الله ابن عبد الرحمن

الصوفي البغدادي البغال . والحافظ أبو علي الحسن بن محمد بن محمد التيمي البكري ، وأبو العباس أحمد بن عبد الدائم بن نعمة المقدسي ، وأبو الحسن عبد الوهاب بن محمد بن الحسن الدمشقي . وأبو الحسن علي بن أحمد بن عبد الواحد المقدسي . وقاضي القضاة أبو الفضل يحيى بن قاضي القضاة أبو المعالي محمد بن علي بن محمد القرشي ، وأبو المعالي أحمد بن عبد السلام ابن المطهر وأبو الحسن عبد اللطيف بن إسماعيل . والحافظ أبو الحسن يحيى العطار ، والنقيب أبو الفرج العز الحرائين . وأخذ العربية عن الشيخ وأخيه محمد أبي الفضل المرسى ، وحضر على شمس الدين محمود الأصبهاني لما كان حاكماً بقرص .

أما تلامذته أو الذين أخذوا عنه فهم عدد كبير وجمع غفير أذكر منهم على سبيل المثال والاختصار لا على سبيل الحصر والاستقصاء . قاضي القضاة شمس الدين محمد بن أحمد بن حيدرة وقاضي القضاة شمس الدين محمد بن أحمد بن عدلان ، وشيخنا قاضي القضاة شيخ الشيوخ علاء الدين علي ابن إسماعيل القونوي ، وشيخنا أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف الغرناطي والشيخ فخر الدين عثمان المعروف بابن بنت أبي سعيد ، وشيخنا تاج الدين محمد بن الدشناوي والشيخ فتح الدين محمد بن محمد اليعمرى وشرف الدين محمد بن القاسح الأحميمي ، والشيخ قطب الدين عبد الكريم بن عبد النور الحلبي .

الفصل الرابع

ابن دقيق العيد - الشاعر الأديب

بينت في الفصل السابق شخصية ابن دقيق العيد العلمية، والفقهية وخلصت فيه إلى القول بأن ابن دقيق العيد كان حاذقاً مدققاً ذكياً ألمعياً، برّز في الفنون العقلية والنقلية وتفوق في العلوم الدينية والشرعية وبلغ في ذلك مرتبة الاجتهاد . وفي هذا الفصل أقول إن ابن دقيق العيد ذو شخصية متميزة مستقلة لا في العلم والدين فقط، ولكن في الشعر والأدب كذلك أيضاً . فإن كان أرباب فن القول يمتاز كل منهم بنوع من أنواعه أو فن من فنونه كأن يبرز أحدهم في الشعر والقريض، والآخر في الكتابة والإنشاء والثالث في الخطابة فإن ابن دقيق العيد قد جمع بين تلك الفنون الثلاثة مع الإجادة والإبداع وشهد له بذلك معاصروه ومن ترجموا له من أهل العدالة والإنصاف .

قال : الإدفعوى يصفه بالبلاغة والإجادة والإبداع والتفوق في الخطابة والكتابة قال « إذا خطب أسهب في البلاغة وأطنب في البراعة، أو كتب فوحى الكلام يتنزل على يراعه^(١) » .

فهو كما ترى يصفه بالقدرة على الخطابة والإسهاب فيها ببلاغة رائعة وبراعة فائقة وأنه إذا كتب كانت كتابته وحيّاً وطبعاً خالية من التكلف والاعتساف . ثم وصفه في موضع آخر بالتفوق في نظم الشعر إذ يقول ما نصه « فإن اقتضت قلت : نابغة زمانه، وإن اختصرت قلت : حبيب^(٢) » .

وهذا يعني أن الإدفعوى قد عدّ ابن دقيق العيد في طبقة الشعراء المفلّحين في الجاهلية وبعد الإسلام فهو في مرتبة النابغة الذبياني أو في منزلة أبي تمام حبيب ابن أوس الطائي وكل منهما كان مقدماً على أقرانه مشهوداً له بالإبداع الشعري في

(١) الطالع السعيد ص ٣١٧ .

(٢) المصدر السابق .

زمانه . ثم نقل الإدفعوى عن ابن سيد الناس فتح الدين محمد اليعمرى أنه قال في ترجمته لابن دقيق العيد ما نصه^(١) «وله مع ذلك في الأدب باع وساع وكرم طباع لم يخل في بعضها من حسن انطباع ، حتى لقد كان محمود الكاتب المجيد في تلك المذاهب المشهود له بالتقدم فيما يشاء من الإنشاء على أهل المشارق والمغارب . يقول لم تر عيني آدب منه» ثم قال الإدفعوى في موضع آخر^(٢) بعد أن وصفه بالتقى والصلاح قال : ومع ذلك فكان خفيف الروح لطيفاً على نسلك وورع ودين متبع ينشد الشعر والموشح والزجل والبليق والمواليا ، وكان يستحسن ذلك» ثم قال «حكى لي صاحبنا فتح الدين محمد بن كمال أحمد بن عيسى القليوبى قال : «دخلت عليه موة وفي يده ورقة ينظر فيها زماناً ثم ناولنى الورقة وقال اكتب من هذه نسخة فأخذتها فوجدت فيها بليقة أولها :

كيف أقدر أتوب ورأس إيرى مثقوب

وقال لي شيخنا تاج الدين محمد بن أحمد الدشناوى سمعته ينشد هذه البليقة

جلد العميرة بالزجاج ولا الزواج

ويقول بالزجاج يا فقيه» . والطريف في هذا النص الذى نقلته عن الإدفعوى والذى ذكر مضمونه كثير ممن ترجموا لابن دقيق العيد . الطريف في ذلك هو أنه يدل دلالة واضحة على أن ابن دقيق العيد التقى الورع العالم المبعوث على رأس السبعمائة ليجدد للأمة أمر دينها كان ظريفاً خفيف الروح ينشد الأشعار الشعبية التى تتحدث عن الأمور الجنسية وأنه كان يستحسن ذلك ويحب سماعه وإنشاده يدل على ذلك ما رواه الإدفعوى إذ قال^(٣) «وحكى لي صاحبنا الفاضل الأديب الثقة مجد الدين عمر بن اللطيف . قال كنت مرة بمصر في حاجة وطلعت إلى القاهرة فقالوا الشيخ طلبك مرات فجئت إليه فقال

(١) المصدر السابق ص ٣١٩ .

(٢) الطالع السعيد ص ٣٢٧ .

(٣) نفس المرجع .

أين كنت ؟ قلت بمصر في حاجة فقال طلبتك سمعت إنساناً يتشد خارج
الكاملية :

بكيت قالوا عاشق سكت قالوا قد سلا
صليت قالوا ذا كسر ما أكثر فضول الناس

قال فأعجبني وليس في ذلك غرابة لأن ابن دقيق العيد كان مصرياً
والمصريون بحكم طبيعة بلادهم ومناخها مرحون بهم دعابة وظرف لا يعشقون
الترمت ، ولا يميلون بطبعهم إلى السكنينة المملة والوقار الثقيل .

هذا وقد وصفه الإسنوي^(١) بأنه أديب نظماً ونثراً وأنه ذو بلاغة تامة إذ قال
ما نصه . «صاحب النظم الرائق والنثر الفائق المجمع على كماله في العلم والدين
والزهد والورع مع البلاغة التامة» . ثم استشهد على قوله هذا بذكر شهادة الشهاب
محمود الكاتب بتفوق ابن دقيق العيد في الميدان الأدبي فقال : «قال الشهاب
محمود الكاتب ما رأيت أعرف منه بصناعة الأدب» . وقال الإسنوي أيضاً ما نصه
«وللشيخ رحمه الله خطباً بليغة مشهورة أنشأها لما كان خطيباً بقوص . وله أيضاً
شعر بليغ رقيق» . هذا وقد وصفه الصفدي^(٢) بأنه كان نحويّاً أديباً ناظماً ناثراً
عجيباً لا يباريه في كل فنّه مبار ولا يجاريه في مضمارها مجار ولا تعلق له
الريح إذا أم غاية بغبار . وكان ناقداً جهيداً يقترب في النقد الأدبي عند
الصفدي من منزلة كبار الأدباء الناقدين فقد قال الصفدي في كتابه أعيان
العصر ما نصه . «أخبرنا شيخنا العلامة أبرالثناء قال لي يوماً الشيخ تقي الدين
قول أبي الطيب :

لو كان صادف رأس عازر سيفه في يوم معركة لأعبي عيسى

في هذا شيء غير إساءة الأدب ففكرت ساعة ثم قلت . نعم كون الموت
ما يتفاوت إن كان بالسيف أو بغيره فالأحياء من الموت سبيل واحدة فقال لي

(١) الاسنوي - طبقات الشافعية من ورقة ١١٤ إلى ١١٦ .

(٢) أعيان العصر وأعيان النصر ج ٦ لوحة ٨١ .

أحسن يا فقيه»، وقد عقب على هذا النص الدال على توفر ملكة النقد الأدبي لدى ابن دقيق العيد عقب على هذا النص الصفدى فقال « وهذه المؤاخذة لا تصدر إلا من أديب كبير كالجاحظ أو غيره ». وتلك شهادة الصفدى لابن دقيق العيد وهو أعنى الصفدى من عرف بالتقدم فى الأدب وروايته وبصحة أحكامه على ما يرويه من الأشعار وبلغ الكلام .

ثم قال الصفدى أيضاً^(١) « قال لى شيخنا شهاب الدين ما رأيت فى أهل الأدب مثله ، وناهيك بمن يقول مثل الشهاب محمود فى حقه » .

هذا وقد كان شيخ الأدب فى زمانه يعنى (الشهاب محمود) . فمن هذه النصوص وغيرها يظهر لنا فى وضوح أن ابن دقيق العيد كان كما قلت فى صدر هذا الفصل يجيد الأدب بفنونه الثلاث التى كانت سائدة فى عصره ، وهى الشعر والخطابة والكتابة . ولما كان موضوع بحثنا هو جمع شعره وإخراج ديوان له إلى حيز الوجود أرى أن أتكلم أولاً فى شىء من العناية عن شعره وعن الفنون التى مارسها بعد أن جمعت شعره أو على الأصح جمعت كل ما استطعت العثور عليه من أشعاره .

أقول إنه زاول أولاً الغزل أو النسيب . ثانياً — مديح الرسول عليه السلام . ثالثاً — الحنين إلى الأماكن المقدسة . رابعاً — المديح التقليدى وهو الذى يقال فى وصف العظماء من الأمراء والوزراء ومن إليهم . خامساً — الزهد والحكمة أو الوعظ والإرشاد .

وهذا كله فى إطار الشعر التقليدى . أما الشعر الشعبى أو الفنون الحديثة ، فقد قال الزجل اولوشح والبليق والمواليا . وكان وكان . ولما كانت هذه الفنون جميعاً لم يصلنا عنه فيها شعر أو نظم فستكلم على الفنون التى عثرنا له فيها على شعر وهى أولاً — مديح الرسول عليه السلام ، وعندنا له فيه قصائد ثلاث هامة . إحداها وهى أشهرها ومطلعها .

يا سايراً نحو الحجاز مشمراً اجهد فديتك فى المسير وفى السرا

(١) الصفدى — أعيان البصر وأعوان النصر ج ٦ لوحة ٨١ .

ولم يذكر أحد ملابسات هذه القصيدة والظروف التي قالها فيها ولا نعرف أيضاً متى وأين أنشأها ولكن مطلع القصيدة نفسه يوحى بالسفر والترحال . ومعناها العام يجعلنا نزعّم أنه قالها وهو متجه إلى الحجاز في طريقه إلى أداء فريضة الحج وزيارة النبي عليه السلام إذ يقول فيها :

فالقصد حيث النور يشرق ساطعاً والطرق حيث ترى الثرى متعطرا
قف بالمناهل والمنازل من لـدن وادى قباء إلى حمى أم القرى

وهي في جملتها تفيض بالأحاسيس والشعور وتسود ألفاظها السهولة والعذوبة مع الرصانة والمتانة وجودة السبك وصدق التعبير . والثانية مطلعها :

شرف المصطفى رفيع عماده ليس يحصى لكثرة تعداده

وهذه القصيدة تبدو فيها الصنعة ويترأى في أكثر عباراتها التكلف بشكل ظاهر كما أنك لا تحس وأنت تقرؤها بحرارة العاطفة وصدق الشعور . الأمر الذي يحملنا على القول بأنه كان يقصد إظهار قدرته على نظم الشعر في القوافي الضعيفة .

وأما الثالثة فهي خمس ومطلعها :

ذروا في السرى نحو الجناب الممنع لذيد الكرى واجفوا له كل مضجع
وأهدوا إذا جثتم إلى خير مربع تحية مضنى هائم القلب موجع
سريع إلى داعى الصباية طيع

وهذه القصيدة كما هو واضح من مطلعها تفيض برقة الإحساس وصدق الشعور وإن كانت لم تخل من تكلف بعض الكلمات دعت إليها ضرورة القافية وذلك في مثل قوله :

يقوم بأحكام الهوى وقيمها فكم ليلة قد نازلت هومها
فسامرها حتى تولت نجومها له فكرة فيمن يحب نديمها
وطرف إلى اللقيا كثير التطلع

فألفاظه في هذا الخمس بها بعض الفتور والعبارات فيها رائحة التكلف وهو واضح كل الوضوح في الشطرة الرابعة وهو قوله: « له فكرة فيمن يحب نديمها » فالضمير في قوله نديمها راجع بلاشك إلى الليلة، والضمير في له راجع إلى النديم وعليه فيكون تقدير الكلام هكذا « لنديمها فيمن يحب فكرة أو تفكير » وذلك هو السبب فيما يدعيه من السهر ومنادمة الليل . وفي هذا ما فيه من التكلف والاعتساف، على أن قوله في صدر هذا الخمس يدل ولو من بعيد على أن ابن دقيق العيد أنشأ هذه القصيدة بعد أن ولي منصب قاضي القضاة في الديار المصرية إذ يقول: « يقوم بأحكام الهوى وبقيمها » . وهذا الفن أعنى المدائح النبوية ظهر في مصر إبان العصر الأيوبي وكثر في عصر المماليك . ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن المصريين كانوا قد اعتادوا أثناء قيام الدولة الفاطمية التوسل بالآئمة أو الخلفاء الفاطميين . فلما قامت دولة الأيوبيين وتلاشت دولة الفاطميين ساد مذهب أهل السنة ربوع مصر وهو يحظر على الناس وبخاصة الشعراء أن يمدحوا خلفاء الفاطميين أو أن يتوسلوا بأنتمهم . فكان لابد والأمر كما ذكرت أن يبحث شعراء مصر عن يتوسلون به مع المحافظة على أنفسهم من بطش السلطان وتنكيله، فمدحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرضوا بذلك أنفسهم وأرضوا عنهم أصحاب الأمر والسلطان .

وهناك سبب آخر وهو ما كان قد لحق بالمسلمين من ضيم وأسى بسبب احتلال الصليبيين أماكن وبقاعاً عزيزة عند العرب والمسلمين كبيت المقدس وعسقلان وعكا وغير ذلك من مدن الشام .

هذا على أن العرب في مصر والشام كانوا يشعرون في قرارة أنفسهم دون شك بالمرارة الأولى لزوال السلطان والملك عنهم في تلك الديار وصيرورته إلى الأيوبيين . ومن بعدهم المماليك وهم جميعاً من عناصر آرية يختلفون في الجنس واللغة وأصل الدار عن العرب تمام الاختلاف فلذلك رأينا شعراء العرب في مصر والشام يكثر من مديح رسول الله فخر العرب ومصدر مجدهم لما في ذلك من تعلق لهم وتعزية عما فقدوه من الملك والسلطان . وهناك عوامل أخرى ساعدت

على الإكثار من المدائح النبوية في ذلك العصر أهمها .

أولاً - كثرة المجاعات بسبب إجداب الأرض وانخفاض منسوب ماء النيل من جهة، وبسبب ظلم المماليك للشعب وعسفهم بالرعية ثم كثرة تلك الحروب التي كانت تدور رحاها في مصر والشام على ما سبق أن فصلناه في كلامنا عن الجانب الاقتصادي في الفصل الأول .

ثانياً - تلك الموجة الصوفية التي غمرت البلاد وعظم فيها خطرها منذ أن ولي صلاح الدين ملك الديار المصرية فقد كثرت الزوايا والخوانق في مصر ولقيت تشجيعاً كبيراً وعناية بالغة من سلاطين الأيوبيين والمماليك أجمعين . وأخيراً وليس آخراً الحجيج، فقد أخذ المسلمون من جميع الأقطار المغربية والإفريقية والأقاليم المصرية نفسها يذهبون إلى الحجاز عن طريق قوص وهي في أعلى الصعيد في مصر . الأمر الذي كان يحرك في نفوس المسلمين ذكر الرسول والتشوق لزيارته فكان ذلك الشعور يصاغ في تلك القصائد والأشعار التي كان ينظمها الشعراء في مديح الرسول عليه السلام .

هذا وما يجدر الحديث عنه هنا هو ما نلاحظه من فرق كبير بين المدائح النبوية قديمة وبينها في عصر ابن دقيق العيد وهو أن المدائح النبوية لم تكن في القديم غرضاً ولا فناً بذاته . فحسان بن ثابت حين كان يمدح الرسول عليه السلام لم يكن غرضه من ذلك مديح الرسول فقط وإنما كان يقصد هجاء المشركين من أهل مكة ومن كان يؤيدهم في محاربتهم المسلمين كيهود خيبر ومن إليهم . وكذلك الحال في تلك المدائح التي نظمها شعراء الشيعة في عصر بني أمية كالكميت وفي عصر بني العباس كدعبل الخزاعي فإن هؤلاء الشعراء جميعاً حين كانوا يمدحون رسول الله لم يكونوا يمدحونه لذاته وإنما كانوا يتوسلون بذلك إلى مديح علي والأئمة من بنيته .

أما في عصر ابن دقيق العيد فقد كان فناً قائماً بذاته إذ كان الشاعر ينشئ القصيدة وليس له غرض سوى مدح الرسول والتوسل به عليه السلام إلى الله عز وجل .

وأما الفن الثاني الذى زاوله ابن دقيق العيد فى إطار الشعر التقليدى فهو
النسيب وهو يفيض فى أكثره بالركة والعذوبة وصدق الشعور وإليك مثلاً على
ذلك قوله :

أحباب قلبى والذين بذكرهم وترداده طول الزمان تعلق
لئن غاب عن عيني بديع جمالكم وجار على الأبدان حكم التفرق
فما ضرنا بعد المسافة بيننا سرائرنا تسرى إليكم فنلتقى

فهو غزل أو نسيب كما ترى رقيق عفيف فى لفظه لا فحش فى معناه
وقد قال فى هذا الفن من الشعر ما هو غاية فى الرقة والعذوبة وسهولة الألفاظ
وجودة التعبير كقوله :

كم ليلة فيك وصلنا السرى لا نعرف والغمض لا نستريح
واختلف الأصحاب ماذا الذى يزيل من شكواهم أو يريح
فقل لى تعريسهم ساعة وقلت بل ذكراك وهو الصحيح

وهذه الأبيات تصور لنا فى صدق ووضوح ما كان عليه الشيخ تقي الدين
من الظرف وخفة الروح .

أما المديح التقليدى وهو ذلك الشعر الذى كان ينشأ فى وصف الأمراء
والوزراء والخلفاء والسلاطين وغيرهم من الوجهاء والكبراء بأحب الصفات إليهم
وآثرها لديهم، وذلك بقصد الاستجداء وأخذ العطاء فلم يرو عن الشيخ تقي الدين
أى شعر فيه اللهم إلا تلك الأبيات التى وجدت فى الورقة التى كتبها إلى
صاحب اليمن وهى قوله :

تجادل أرباب الفضائل إذ رأوا بضاعتهم موكوسة الحظ فى الثمن
وقالوا عرضناها فلم نلف طالبا ولا من له فى مثلها نظر حسن
ولم يبق إلا لفظها واطراحها فقلت لهم لا تعجلوا السوق باليمن

فهذه الأبيات كما ترى وإن كان القصد منها الحصول على المال من

صاحب اليمن فإنها قد خلت تماماً من تلك الصفات التي كان الشعراء يبالغون في خلعها على ممدوحهم .

هذا على أنه مدح بعض الأشخاص ولكن في غير غلو كقوله في بعض الوزراء :

مقبل مدبر بعيد قريب محسن مذنّب عدو حبيب
عجب من عجائب البحر والـ بر ونوع فرد وشكل غريب

فهو يصف الممدوح بأنه مقبل على الخير مدبر عن الشر بعيد عن اللهو قريب من الله محسن إلى ذوي الحاجة من المسلمين مذنّب في حق الزنادقة والمارقين عدو لأعداء الدين حبيب للمؤمنين والمسلمين . فهو كما ترى لم يصفه بأى وصف فيه غلو أو مبالغة وليس فيه تجاوز للحق أو انتحال لصفات لا يحتمل وجودها في الممدوح .

هذا وأسلوبه في هذا النوع من المديح أسلوب جديد إذ كان الشعراء قد جروا في مدائحهم على أن يبدؤوا قصيدة المديح بالغزل والنسيب وذكر السفر والترحال أو غير ذلك من المقدمات التي كانوا يجعلونها بين يدي موضوع القصيدة والغرض الذي قيلت من أجله وأعني به نعت الممدوح ووصفه بأحب الصفات وأحسنها .

أما ابن دقيق العيد فإنه لم يصطنع النسيب ولا التشبيب ولا أى شيء آخر من مقدمات القصيدة . وإنما كان يطرق الموضوع مباشرة . هذا وقد قال شيخنا تقي الدين الشعر في الحنين إلى الأماكن المقدسة فما أنشأه في هذا الموضوع قوله :

يهم قلبي طرباً عندما أستملح البرق الحجازيا
ويستخف الوجد عقلى وقد أصبح لى حسن الحجازيا
يا هل أقضى حاجتى من منى وأنحر البزل المهاريا
وأرتوى من زمزم فهى لى ألد من ريق المهاريا

وهذا الفن مما أبدعه المصريون وأكثروا فيه على نحو ما رأيناه في مديح النبي عليه الصلاة والسلام . فالفنان كلاهما مصرى وإن كان ثمة فرق بينهما فهو أن شعر الحنين إلى الأماكن المقدسة وأرض الحجاز كان أسبق إلى الظهور من شعر مديح الرسول عليه السلام إذ أن شعر الحنين إلى الأماكن المقدسة كان قد ظهر إبان العصر الفاطمى عند أمثال المهذب بن الزبير^(١) وأخيه الرشيد وعند بنى عرّام .

هذا والملاحظة الجديرة بالذكر هنا أن شعراء الصعيد كانوا من أسبق شعراء مصر في ذكر الأماكن المقدسة والحنين إليها في قصائدهم ولا سيما شعراء قوص وأسوان وإدفو . ولعل السبب في ذلك راجع إلى أن قوص وما جاورها كانت تزخر بالذاهبين إلى مكة والمدينة والآيين منهما . أعنى أن تلك البلاد كانت طريق الحج الأمين ولا شك في أن رؤية الحاج وهو متوجه إلى أرض الحجاز أو استقباله وهو راجع عنها تثير في نفوس الشعراء وعواطفهم ذكر تلك الأماكن المقدسة وهاتيك البقاع المباركة فتتوق إليها نفوسهم وتتحرق قلوبهم شوقاً إليها . فلا غرو إذن أن يكثر شعراء مصر وبخاصة من كانوا بأعلى الصعيد من ذكر الأماكن المقدسة في أشعارهم والحنين إليها في قصائدهم .

أضف إلى هذا أن من بين أهل الصعيد عدداً كبيراً من أحفاد أولئك العرب الحجازيين الذين هم نزحوا إلى صعيد مصر في العصور السابقة فراراً مما كانوا يلقونه من اضطهاد الولاة وعسف الحاكمين وهم حين تركوا أرضهم وديارهم واستقروا بأرض الصعيد كانوا دون شك يحملون في جوانحهم وبين أحشائهم نفساً كثيفة حزينة كليمة تفيض بالشوق والحنين إلى أرضهم وديارهم التي خرجوا منها مكرهين . وعلماء النفس يعترفون بأن العواطف والانفعالات إذا كانت مكينة في النفس متوغلة في أعماق القلب تورث كغيرها من الصفات البدنية أو الجسمية الأخرى .

(١) الإدقوى - الطالع السعيد من ص ١٠٠ - ١٠٥ .

وأما الزهد والحكمة فقد وجدنا له فيه شعراً غير قليل أذكر منه على سبيل المثال قوله :

وقائلة مات الكرام فن لنا إذا عضنا الدهر الشديد بنابه
فقلت لها من كان غاية قصده سؤالا مخلوق فليس بنابه
لئن مات من يرجي فعطيم الذي يرجونه باق فلسوذي ببابه

هذا وشعره في الزهد والحكمة يفيض بالصدق والإخلاص . أقول الزهد والحكمة ولا أقول التصوف لأن شعر الصوفية في هذا العصر قد زخر بالنظريات والآراء الفكرية التي تتمثل في وحدة الوجود عند محيي الدين بن العربي وفي نظرية القطب أو تنقل النور المحمدي كما وجدناه في شعر إبراهيم الدسوقي فابن دقيق العيد لم يكن من هؤلاء الشعراء الذين تغنوا في شعرهم بوحدة الوجود أو الاتحاد بين الخالق والمخلوق أو نظرية الحب الإلهي التي نجدها في ديوان ابن الفارض .

أقول إن ابن دقيق العيد لم يكن من نوع هؤلاء لأن شعره الذي بين أيدينا لم يتضمن أية نظرية يمكن اعتبارها في عداد النظريات الفلسفية، وإنما هو في شعره زاهد واعظ يرشد الناس إلى ما فيه الخير والصلاح .

وأما الأشعار الشعبية والفنون الحديثة الأخرى كالموشح والزجل وكان والموالي، فلم نعر له فيها على شيء . وأما البليق وهو فن مصري خالص وإن كان لا يخرج في أوزانه عن الأزجال التي كانت تعرف في مصر والذي أصلها يرجع إلى الأندلس فقد ذكروا أنه أنشد فيه ، ولكن لم يذكروا سوى مطلع بليقتين الأول قوله :

وكيف أقدر أتوب ورأس ليرى مثقوب

والثاني قوله :

جلد العميرة بالزجاج ولا الزواج

واسم هذا الفن البليق نسبة إلى طائر جميل الشكل حسن المنظر، واسم الواحدة

منه بليقة وتجمع على بلاليق والتسمية والجمع كل أولئك يرجع إلى اللغة المصرية الشعبية . والبليق كالزجل ولكنه كان أكثر ما يقال في الموضوعات الجنسية أو على حد تعبير صفي الدين الحلبي^(١) في الهزل والحلاعة والأحماض وهو أشبه شيء بالأدب المكشوف ، ودليلنا على أن البليق نوع من أنواع الزجل وأنه مصري خالص ما ذكره صفي الدين الحلبي في كتابه العاقل الحالى والمرخص الغالى وذلك في معرض حديثه عن فن الزجل وإليك نص ما قال^(٢) « وقد قسمه مخترعوها (يعنى الزجل) على أربعة أقسام يفرق بينها بمضمونها والمفهوم لا بالأوزان والوزوم . فلقبوا ما تضمن الغزل والنسيب والحمري والزهدى زجلا . وما تضمن الهزل والحلاعة والأحماض بليقاً » . ثم قال بعد ذلك « وقد تتفق هذه الألقاب الأربعة في وزن واحد وقافية واحدة ويكون الفارق بينها ما تقدم ذكره من اختصاص كل واحد منها بقصد الناظم وباقى البلاد لا يعتبرون هذا الفرق بل يسمون كل ما أعرب موشحاً وكل ما خلا من الإعراب زجلا وما اشترك فيه الإعراب واللحن مزماً في أى فن قصد الناظم » .

وهذا النص الصريح في أن البليق فن مصري خالص في اسمه وموضوعه . وبالجملة فإن الصفات العامة التى نستخلصها من شعر ابن دقيق العيد هى أولاً السهولة والعدوبة مع الجزالة فى الألفاظ وحسن السبك وعدم التنافر بين الكلمات مع قرب المأخذ ووضوح المعنى وصدق الشعور وحيوية العاطفة ، كما أننا نلاحظ فى شعره وجود العبارات الدينية والمصطلحات الفقهية وأساليب الشيوخ فى الشرح والإفتاء والبحث والتحقيق مع عدم الإخلال والإفساد إذ كانت الشاعرية أو الفنية لا تتأثر بتلك العبارات والأساليب والمصطلحات فى شيء ، بل أستطيع أن أقول إنها كانت تزيد فى جمال الشعر وروعته كما نرى ذلك واضحاً فى قوله :

(١) العاقل الحالى والمرخص الغالى ص ١٠ .

(٢) المصدر السابق .

كم ليلة فيك وصلنا السرى لا نعرف الغمض ولا نستريح
واختلف الأصحاب ماذا الذى يزيل من شكواهم أو يريح
فقل تعريسه ساعة قلت بل ذكراك وهو الصحيح

وأفضل شيء يقال فى هذا المقام ما عقب به الصفدى على هذا القول فى كتابه الغيث المسجى فى شرح لامية العجم إذ قال بعد أن أورد الأبيات السالفة الذكر ما نصه^(١) « انظر إلى هذا النظم ما ألطف تركيب ألفاظه وأحلاه وكونه استعمل طريق الفقهاء فى البحث فى ذكر اختلاف الأصحاب وأنه قيل كذا وقيل كذا وهو الصحيح كأنه إمام الحرمين ، وقد أتى درساً فى مسألة فيها خلاف بين الأصحاب وقد رجح ما رآه هو عنده من الدليل وما رأيت أحسن من هذا . بينا هو يصف أحوالهم فى السرى ومشاقهم فى التعب وتشاورهم فيما بينهم وما أشار به كل منهم فى إزالة ما حصل لهم من العناء إذا به قد برز من بينهم برأى أدخل فيه ذكر الممدوح ونص على تصحيحه ، فكأنه فى حلقة الدرس وقد شرع فى مسألة خلافية ويحرم هذا النظم على غير الشيخ تقي الدين » .

وهذا أوضح دليل وأقوى برهان على عظم توفر الشاعرية لدى ابن دقيق العيد وتفوقه فى نظم القريض وعلى ضوء ما تقدم وبعد تتبع أشعاره نستطيع القول بأن ابن دقيق العيد لم يكن يتعمى فى أسلوبه وطريقة شعره إلى إحدى المدرستين اللتين كانتا سائدتين فى أوائل العصر الأيوبنى وهما مدرسة الكتاب التى كان يمثلها أو يترجمها القاضى الفاضل . ومدرسة الرقة والسهولة وهى التى تزعّمها البهاء زهير . وإنما هو أعنى ابن دقيق العيد مزاج بين المدرستين إذ ظهرت الرقة والسهولة فى شعره إلى جانب وجود الصنعة والمحسّنات البديعية التى كانت الطابع العام لمدرسة الكتاب .

وأما خطابته فقد شهد له الجميع بالبراعة والإبداع ومدحه بالفصاحة والبلاغة

(١) الغيث المسجى شرح لامية العجم ج ١ ص ١٨٧ .

وفرط الإجادة فيها أبو الحسين الجزار إذ قال فيه بعد أن سمعه يخطب بقوص
مادحاً :

يا سيد العلماء والأدباء والـ	بلغاء والخطباء والحفاظ
شنت أسماع الأنام بخطبة	كست المعاني رونق الألفاظ
أبكت عيون السامعين فصولها	فزكت ^(١) على الخطباء والوعاظ
وعجبت منها كيف حازت رقة	مع أنها في غاية الإغلاظ
ستقول مصر إذ رأتك لغيرها	ما الدهر إلا قسمة وأحاظ
ويقول قوم إذ رأوك خطيبهم	أنسيتنا قسماً بسوق عكاظ

على أن خطبه لم يصلنا منها شيء اللهم إلا تلك الخطب التي كان يكتبها
بين يدي كتبه كمقدمة شرح الإمام وإليك طرفاً منها قال^(١) : «أما بعد حمد الله
فإن الفقه في الدين منزلة لا يخفى شرفها وعلاها ولا تحتجب عن العقول طوالها
وأضواها وأرفعها بعد فهم كتاب الله المنزل البحث عن معاني حديث نبيه
المرسل إذ بذلك تثبت القواعد ويستقر الأساس وعنه يقوم الإجماع ويصدر
القياس وما تعين شرعاً تعين تقديمه شروعاً وما يكون محمولاً على الرأس لا يحسن
أن يجعل موضوعاً .. إلخ » .

وهذه الخطبة كما ترى تمس من المخاطبين العاطفة الدينية وتحرك في نفوسهم
حب العلم والجد في طلبه ، وعباراتها كما ترى سهلة واضحة لا تعقيد فيها ولا غموض
ولا وحشية فيها ولا إبهام والسجع فيها جار على الطبع لا تكلف فيه ولا تصنع
وبالجملة فهي فصيحة بليغة تؤثر على القارئ أو السامع بالغ التأثير .

وأما نثره فهو أيضاً بديع رائع شهد له بذلك من هو حجة في الحكم على
الأدب وتقديره . أعني الصلاح خليل بن أبيك الصفدي . فقد قال في كتابه
أعيان العصر بعد ذكره كتاباً وقع إليه من كتبه^(٢) « ما أعرف من كتب

(١) طبقات الشافعية الكبرى ج ٦ ص ١٢ .

(٢) أعيان العصر ج ٦ م ١ لوحة ٨١ - ١٠٢ .

الإنشاء بعد القاضي الفاضل رحمه الله تعالى مثل القاضي محي الدين بن عبد الظاهر وما له مثل هذه المكاتبة إذ لم تعتبر التورية علم ذلك من علمه أوجهله من جهله .

وإليك نبذة من ذلك الكتاب الذي أرسله الشيخ تقي الدين إلى قاضي القضاة شهاب الدين الخوئي شافعاً ومتشوقاً على حد تعبير الصفدي قال ^(١) « ولا برح يطر على القضاة سحايب كرمه ويروى الرواة من بحار علوم تمتد من قلمه ويجلو أبكار الأفكار مقلدة مما نظم السحر من حلّ كلمه ، ويبرز خفيات المعاني منقاداً بأيدي ذهنه وأيدي حكمه ، ويسمو إلى غاية المعاني حتى يقال أين سمو النجم من هممه .

وهذا كما ترى كلام تكثر فيه المحسنات البديعية كالطباق والجناس وكذلك أنواع البيان كالتشبيه والاستعارة المكنية ثم هو سهل سلس يسوده السجع الذي يأتي في أكثره عفو الخاطر وإن وجد فيه تكلف فهو قليل .

وأخيراً وفي ختام هذا الفصل أقول كما قلت في أوله إن ابن دقيق العيد كان ممتازاً متفوقاً في أدبه نظماً ونثراً وخطابة يكاد لا يجاريه فيه أحد فهو وإن أشبهه أو ماثله أحد في الشعر على حدة ، أو في النثر على حدة أيضاً فإننا لم نجد أحداً يشبهه أو يدانيه في الجمع بين هذه الفنون الثلاثة مع الإجادة والإتقان في إبداع رائع وبلاغة تكاد تكون منقطعة النظير .

وبالجملة فهو قد بز أقرانه وفاق معاصريه في فنون الأدب كما بزهم وتفوق عليهم في ميدان العلم والاجتهاد .

(١) المرجع السابق .

مقدمة الديوان

لم يكن أهل العلم والمعرفة وأصحاب الشعر والأدب في هذا الجيل وسابقه يعرفون عن ابن دقيق العيد شيئاً ، اللهم إلا فئة قليلة وأكثرهم من الأزهرين كانوا وما زالوا حتى هذا الحين يعرفون ابن دقيق العيد على أنه عالم من علماء الدين وربما كثر علم أحدهم بأخبار ابن دقيق العيد واتسعت فيه معرفته ، فعلم أنه كان قاضى قضاة مصر وأنه من علمائها العاملين .

هذا هو مبلغ علم الناس فيما اعتقد بابن دقيق العيد .

أما كونه شاعراً أو أديباً فلم يكن أحد من المعاصرين ولا من الذين عاشوا في القرن الماضي ممن يعنون بالشعر والأدب أزهرين كانوا أم جامعيين لم يكن أحد من أولئك ولا هؤلاء يعرف عن شاعرية ابن دقيق العيد شيئاً . إذ لم نجد أحداً منهم ذكره في كتاب له أو مقال على أنه شاعر أو كاتب أو خطيب أو على الأقل ، روى لنا شيئاً من شعره . ولو من ذلك النوع الذى نظمه رحمه الله في الزهد والحكمة .

على أن شعر الزهد والحكمة كثيراً ما يتردد على ألسنة الأدباء والعلماء من المدرسين والكاتبين ، ولعلمهم في ذلك معذورون إذ لم يكن ثمة ديوان مطبوع ولا مخطوط يضم بين دفتيه شتات ما روى عن ابن دقيق العيد من قصائد ومقطوعات . اللهم إلا ذلك المجموع الذى جمع فيه صلاح الدين الصفدى مختارات من دواوين بعض الشعراء كالأمير تميم والعزازى وأبى الحسين الجزار فإنه قد اشتمل على قصائد ومقطوعات لابن دقيق العيد . ولست أدرى على وجه التحقيق لماذا أغفل المعنيون بجمع الشعر ونشر الدواوين قصائد ابن دقيق العيد وأشعاره ، إلا أنى أبيح لنفسى القول بأن السبب فى ذلك راجع إلى أمرين .

أولهما — كون ابن دقيق العيد لم يكن يعنى بتدوين شعره وجمعه لا بنفسه ولا بواسطة أحد تلاميذه أو خلطائه ومحبيه . إذ لم يذكر لنا أحد ممن سمعوا منه

الشعر مباشرة أو نقل إليهم لم يذكر أحد من هؤلاء ولا أولئك أنه وجد شعراً مكتوباً بخط ابن دقيق العيد على أنه قائله ، ولا أنه أملى على طلابه لنفسه شعراً .

والثاني — كون ابن دقيق العيد غلبت عليه صفة العلم وصبغة الدين مما جعل العلماء والمتأدين لا يحفلون بجمع شعره وروايته كثيراً بل صرفوا جهدهم في تعرف كل ما له صلة بشخصيته العلمية والدينية وأن ذكروا له شعراً ، فإنما يذكرونه عرضاً أو على سبيل الاستطراد .

لذلك كله وجدتني بعد أن وافق مجلس كلية آداب القاهرة الموقر على أن يكون موضوع البحث الذي أتقدم به لنيل درجة الماجستير في الآداب « حياة ابن دقيق العيد وديوانه » الذي هو عبارة عن تلك القصائد والمقطعات التي ذكرها الصفدى في مجموعه الذي أسلفنا له ذكراً ، وجدت أنى لا أقوى على المضى في بحث هذا الموضوع ودراسته إذ هو دون شك صعب المسلك وعمر السبيل حتى كدت أعترم العدول عنه إلى غيره ، لولا أن أستاذى الجليل الدكتور محمد كامل حسين هوّن على الأمر وما هو بهين . ولكن توجيهاته وإرشاداته هي التي شرحت صدرى للموضوع وبفضلها بعد عون الله مضيت يجد وعزم باذلاً قصارى جهدى في تحقيق ما اختاره الصفدى من شعر قاضى القضاة تقي الدين أبو الفتح محمد بن على المعروف بابن دقيق العيد ولم أقصر على ذلك بل جهدت كل الجهد في جمع ما أمكن الوقوف عليه مما لم يذكره الصفدى في مجموعه من شعر ابن دقيق العيد فكان نتيجة الجهد وثمرة الاجتهاد هذا الديوان الذى أحمد الله تعالى على أن وفقنى في جمع شتاته وتحقيق أجزائه حتى خرج مما كان عليه من حالة هي أشبه ما تكون بالعدم أو الفقدان إلى حيز العالم الثقافى والوجود الأدبى . وهو قسمان .

الأول : خاص بتلك القصائد والمقطعات التي اختارها الصلاح الصفدى في مجموعة من شعر ابن دقيق العيد . وهذا المجموع كتاب أفرد فيه الصفدى من كتابه المعروف بالتذكرة مختارات من شعر القاضى الفاضل والوراق والأمير

والعزازى وأبى الحسين الجزار وختمه بقصائد ومقطوعات اختارها من شعر ابن دقيق العبد والموجود منه فيما نعلم نسخة واحدة بخط المؤلف نفسه وهى محفوظة بمكتبة أيا صوفيا فى بلاد الأتراك تحت رقم ٣٩٤٨ ، وقد تحصلنا على صورة لتلك النسخة بالفوتستات ، ولم نعر لها على نسخة أخرى حتى نستعين بها فى تحقيق ما أخذنا على عاتقنا تحقيقه ونشره مما جاء فى ذلك المجموع من شعر ابن دقيق العيد .

لذلك كان كل اعتمادنا فى تحقيق ذلك الجزء على تلك الروايات المختلفة التى عثرنا عليها لنفس هاتيك القصائد والمقطعات التى اشتمل عليها مجموع الصفدى وذلك فى بطون الكتب المختلفة التى ترجمت لابن دقيق العيد وذكرت له شعراً . أما القسم الثانى من هذا الديوان ، فهو تلك القصائد والمقطعات التى ظفرت بها أثناء البحث والتنقيب ، ولم يذكر الصفدى فى مجموعته شيئاً منها . وقد رتب هذا القسم على حروف المعجم لأن ذلك أدعى إلى الضبط وأيسر فى الحصر وأسهل فى التناول .

هذا ، والكتب التى رجعت إليها فى تأليف هذا البحث بقسميه كثيرة جمة ذكرتها جميعاً فى ثبت خاص جعلته فى آخر الرسالة ، ولكنى أقصر هنا على ذكر ما هو أوثق رواية وأصدق خبراً وأصح حديثاً ، وذلك كالطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد للعلامة كمال الدين الإدفعوى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ . ومسالك الأبصار فى ممالك الأمصار لابن فضل الله العمرى المتوفى أيضاً سنة ٧٤٨ هـ . وكتاب طبقات الشافعية للقاضى جمال الدين عبد الرحيم ابن الحسن بن على بن عمر المشهور بالإسنوى والمتوفى سنة ٧٧٢ هـ . وطبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين أبى نصر عبد الوهاب بن شيخ الإسلام على المعروف بتقى الدين السبكى . وتاج الدين هذا توفى سنة ٧٧١ هـ أى قبل العلامة الإسنى بعام . ثم كتاب أعيان العصر وأعوان النصر . والوفى بالوفيات وكلاهما للعلامة صلاح الدين الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ . وكتاب فوات الوفيات لابن شاعر الكتبى المتوفى أيضاً سنة ٧٦٤ هـ . وكتاب المقفى لتقى الدين أحمد بن على

المقریزی المتوفى سنة ٨٤٥ هـ . وكتاب رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر العسقلانی .

وأخيراً المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافی وهو لأبي المحاسن يوسف بن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ . وقد قدمت فى التوثيق رواية الطالع السعيد على على رواية ابن فضل الله العمرى مع أنهما ماتا فى سنة واحدة لأن الإدفوى صعيدى مصرى من جهة ولأنه يعد أحد تلامذة ابن دقيق العيد من جهة أخرى . كما أنى قدمت أيضاً كتاب الإسنى على كتاب السبكى مع أن تاج الدين السبكى توفى قبل جمال الدين الإسنى بعام . وذلك لأن الإسنى ولد سنة ٧٠٤ هـ أى قبل مولد عبد الوهاب السبكى بأربع وعشرين سنة، إذ أجمع الذين ترجموا لتاج الدين السبكى على أنه ولد سنة ٧٢٨ هـ وقد قدمتهما معاً على الصلاح الصفدى رغم أنه ولد ومات قبلهما . وذلك لأن كلا من السبكى والإسنوى كان مصرياً . والمصريون بعضهم أدرى بأخلاق بعض . وبالتالي فهم أصبح من غيرهم فهماً لروح المجتمع المصرى وطابعه الخلقى ، فإن وثق أحدهم رواية أحد روى عن ابن دقيق العيد فإنما يوثقه عن بينة . هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن الصبغة الدينية والطابع الفقهى قد غلبا على كل من السبكى والإسنوى . الأمر الذى يجعلهما أكثر تحرياً فى النقل والرواية بخلاف الصفدى فإنه غلبت عليه صناعة الأدب والإنشاء ورواية الشعر وآداب العرب، والذين هم يعرفون باتجاههم الأدبى وكلفهم بالشعر ونظم القريض يعتبرون أقل من رجال الفقه والدين من حيث العناية والضبط فى النقل والرواية . وكذلك قدمت ابن شاکر الکتبى على تقي الدين المقریزی لأن ابن شاکر عاش ومات ولما يكد المقریزی يحبو على وجه الأرض، لأن المقریزی ولد سنة ٧٦١ هـ فى حين مات ابن شاکر الکتبى سنة ٧٦٤ هـ على ما أسلفت . ومعنى هذا أن ابن شاکر مات وعمر المقریزی لا يكاد يجاوز ثلاثة أعوام . كما قدمت المقریزی أيضاً على ابن حجر رغم أنه مات قبل المقریزی بثلاثة أعوام وذلك لأن المقریزی مصرى

والقول فيه على نحو ما قلناه عند توضيح السبب الذي من أجله قدمت الإسنى والسبكى على العلامة الصفدى .

وأخيراً تأتى مكانة ابن تغرى بردى لأنه ولد ومات فى القرن التاسع الهجرى هذا والله أسأل أن ينفع بهذا الديوان وذلك البحث رجال العلم والأدب ، وأن يقينى نقد الناقدين ولوم اللأئمين على ما جاء فى هذه الرسالة بقسميها من خطأ وتقصير فإنى بشر أتعرض إلى ما يجوز أن يقع فيه غيرى من بنى الإنسان من الخطأ والنسيان .

ترجمة العلامة الصفدى

صاحب المجموع

هو العلامة أبو الصفاء صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدى . وقد ترجم له كثير ممن عاصروه وخالطوه كتاج الدين أبى نصر عبد الوهاب بن شيخ الإسلام تقي الدين السبكي^(١) ومن جاءوا بعده كابن حجر العسقلانى فى كتابه الدرر الكامنة^(٢) وابن تغرى بردى فى كتابه النجوم الزاهرة^(٣) وأورد له يوسف إلیاس سركيس ترجمة فى (معجم المطبوعات العربية والمعربة^(٤)) .

وقد عنى به وبكتبه جماعة من المستشرقين فنشرت جمعية المستشرقين الألمانية تاريخه الكبير المعروف باسم الوافى بالوفيات سنة ١٩٣١ . وترجم له كل من (كارل بروكلمان وفريتس كرنكو) . وإليك ترجمته ملخصة من كتابي (الدور الكامنة لابن حجر ، وطبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي) قال ابن حجر ما نصه « خليل بن أبيك بن أبيك عبد الله الأديب صلاح الدين الصفدى أبو الصفا ولد سنة ست أو سنة سبع وتسعين وسمائة . »

ومعنى هذا أن بن حجر يشك فى تحديد سنة مولده على حين جزم ابن تغرى بردى فى كتابه (النجوم الزاهرة بأن مولده كان سنة ست وتسعين على سبيل التعيين ويؤيده فى ذلك رواية عبد الوهاب السبكي إذ ذكر أن مولد الصفدى كان سنة ست وتسعين . وعبد الوهاب السبكي حجة فى ذلك إذ كان من خلطاء الصفدى وأصدقائه والذين هم كانوا على صلة به حتى مات رحمه الله .

(١) طبقات الشافعية ج ٦ ص ٩٤ .

(٢) ج ٢ ص ٧٨ .

(٣) ج ١١ ص ١٩ .

(٤) ص ١٢١٠ - ١٢١٣ .

ومهما يكن من أمر فقد ذكر الصفدى عن نفسه أن أباه أغفل أمره ولم يعن بتثقيفه وتأديبه ولا يسر له سبل العلم وتحصيله وقد ظل على ذلك حتى بلغ العشرين من عمره. ثم جعل يطلب العلم ويجد في تحصيله معتمداً على نفسه وكان أول شيء عني به هو الرسم حتى برع فيه ثم تعلق بالأدب وولع فيه فأكثر من النظم والنثر والترسل والتواقيع . وقد أخذ عن الشهاب محمود . وابن سيد الناس وابن نباتة وأبي حيان وغير هؤلاء من رجال العلم والأدب .

وسمع بمصر من يونس الدبوسى ومن معه وبدمشق من المزى وجماعة وطاف مع الطلبة وكتب الطباقي ثم أخذ في التأليف فجمع تاريخه الكبير الذى سماه (الوافى بالوفيات) فى نحو ثلاثين مجلداً على حروف المعجم وأفرد منه أهل عصره فى كتاب سماه (أعيان العصر وأعوان النصر) فى ست مجلدات وله (الغيث المسجى شرح لامية العجم) وهو كثير الفوائد . (وألحان السواجع بين المبادئ والمراجع) ومن تصانيفه اللطاف (التنبية على التشبيه وجر الذيل فى وصف الخيل وتوشيح الترشيح وكشف الحال فى وصف الحال . وجنان الجناس وفض الختام عن التورية والاستخدام وخلوة المذاكرة ، والروض الناسم) .

هذا وإن كتبه ورسائله ومصنفاته كثيرة جملة ، ذكر ابن حجر أنه وجد بخط الصفدى نفسه ما نصه « كتبت يدي ما يقارب خمسمائة مجلد » قال (يعنى الصفدى) ولعل الذى كتبه فى ديوان الإنشاء ضعف ذلك .

وذكر السبكى « أن الصلاح قال له إنه كتب أكثر من ستمائة مجلد تصنيفاً . » ومن أجل كتبه وأجداها فى الشعر والأدب كتابه المعروف (بالتذكرة الصفدية) وقد جمع فيه الكثير من نوارى الأشعار ولطائف الأدب نثراً ونظماً وأتى فيه على تاريخ الآداب العربية وفنونها من أيام نشأته إلى عصره . وقد أربى هذا الكتاب على الخمسين مجلد الموجود منها بدار الكتب المصرية خمس أجزاء فى خمس مجلدات وهى الجزء الثانى والثالث عشر والرابع عشر والثامن والعشرون . والمجلد الخامس مكتوب عليه بخط جديد أنه الثامن والأربعون . ولكن يؤخذ من مراجعة الورقة السابعة والورقة الثالثة والتسعين منه أنه الجزء الثانى

. والحمسون ويظهر أن هذا الجزء هو آخر التذكرة .

هذا وأغلب الظن أن الصفدى أفرد من كتابه التذكرة أشعار القاضي الفاضل وأبي الحسين الجزار والوراق والعزازى . وأخيراً أشعاراً مختارة للشيخ تقي الدين محمد بن علي بن وهب بن دقيق العيد وذلك على نحو ما فعله في تاريخه الكبير المسمى (الوافى بالوفيات) إذ أفرد منه تراجم أهل عصره في ست مجلدات أطلق عليها اسم أعيان العصر وأعوان النصر . وقد سمي مجموعة تلك الأشعار المختارة من شعر كل من القاضي الفاضل والعزازى والوراق والجزار وابن دقيق العيد بالمجموع المبارك . إذ قال في ختامه هذه العبارة « تم المجموع المبارك بحمد الله وعنايته وحسن توفيقه ثامن عشر رمضان المبارك سنة تسع وأربعين وسبعمائة » . والموجود من هذا المجموع نسخة واحدة بخط المؤلف نفسه وهي محفوظة بمكتبة الآستانة بأستنبول وقد أخذت لها جامعة الدول العربية صورة كاملة بالميكرو فيلم . وخط الصفدى حسن جيد يروق الناظر . ولعل السر في حسن خطه راجع إلى اشتغاله بالرسم وهما أعنى الخط والرسم فنان جميلان بينهما شبه كبير .

هذا ، وقد ولى الصفدى مناصب كثيرة منها الكتائية والإدارية . فأول ما وليه كتابة الدرج بصفد ثم بالقاهرة وباشرة كتابة السر بحلب وقتاً وبالرحبة وقتاً والتوقيع بدمشق ووكالة بيت المال . وذكر عبد الوهاب السبكي أنه ساعده آخر عمره في توليه كتابة الدست بدمشق . ثم في كتابة السر بحلب وأخيراً في توليه وكالة بيت المال وكتابة الدست معاً في دمشق واستمر بها إلى أن مات بالطاعون ليلة عاشر شوال سنة أربع وستين وسبعمائة . عفى الله عنه وأحسن مثواه .

هذا وقد كان في حياته محبباً إلى الناس حسن المعاشرة جميل المودة . ويذكر ابن حجر أنه ثقل سمعه في أخريات حياته وأنه كان قد تصدى للإفادة بالجامع وقد سمع منه من أشياخه الذهبي وابن كثير والحسيني وغيرهم ثم قال ابن حجر . قال الذهبي في حقه « الأديب البارع الكاتب شارك في

الفنون وتقدم في الإنشاء وجمع وصنف . وقال أيضاً « سمع مني وسمعت منه » . وبالحملة فقد كان الصفدى رحمه الله أديباً عالماً شاعراً كاتباً مكثراً في ذلك على ما أسلفت . شعره في أكثره سهل سلس وكتابته واضحة بليغة وقد أكثر في رسائله وكتبه من اقتباس الآيات القرآنية والاستشهاد بالحكم والأمثال وأشعار العرب . وكتابه (الغيث المسجم في شرح لامية العجم) يزخر بالحكمة البالغة والنقد الأدبي الصحيح الذى يصدر عن ملكة قوية راسخة وذوق أدبي سليم .

القسم الثاني من البحث

الديوان

القسم الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله . وبعد فهذا ما اختاره العلامة
صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى من شعر شيخ الإسلام تقي الدين
ابن دقيق العيد . قال عفى الله عنه .

قال قاضي الفضاة تقي الدين أبو الفتح محمد بن الشيخ العلامة مجد الدين
أبي الحسن علي بن وهب بن مطيع بن أبي الطاعة القشيري الشافعي المعروف
بابن دقيق العيد رحمه الله تعالى يمدح سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . كامل
يا سايراً^(١) نحوَ الحجاز مُشمرًا اجتهدْ فَدَيْتُكَ في المَسِيرِ وفي السُّرى
وتدَرَّع^(٢) الصبرَ الجميلَ ولا تَكُنْ في مطلبِ المَجْدِ الأثيلِ مُقَصِّراً
اقصدْ إلى حيثُ المكارمُ^(٣) والندى يلقاكَ وجههما مضيئاً مقمراً^(٤)

(١) ذكر هذه القصيدة ابن حجر العسقلاني في كتابه رفع الإصر (انظر ورقة ٢٤٧ إلى ٢٥٠ من النسخة المخطوطة بقلم معتاد رقم ١٠٥ تاريخ بدار الكتب فقال أخبره أبو الحسن محمد بن الحسن أدبياً . شافهه عن الحافظ أبي الفتح اليمعري ، أنشدنا قاضي المسلمين أبو الفتح محمد بن المجد علي بن وهب بن مطيع القشيري لنفسه يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم . يا سايراً . . . إلخ) وأسقط منها البيتين ١٨ ، ٣٥ . وذكرها الصفدي في كتابه الوافي بالوفيات تاريخ - يَمُور ٩٤٨ مخطوط بقلم معتاد جزء ثان (انظر ورقة ٩٥٧ إلى ٩٦٧) فقال أنشدني من لفظه الشيخ فتح الدين محمد بن سيد الناس . قال أنشدني شيخنا تقي الدين بن دقيق العيد لنفسه (ثم ذكر له بعض المقطوعات) بهذا السند . ثم قال «وبالسند المذكور إجازة له يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «يا سائراً . . . إلخ . وقد أورد منها ستة وعشرين بيتاً فقط ، إذ حذف من ثنائياها ومن آخرها الباقي خشية الإطالة . وذكرها ابن شاکر الکتبی في كتابه فوات الوفيات الجزء الثاني . مطبعة بولاق بالقاهرة سنة ١٢٨٣ هـ (انظر ص ٣٠٥ و ص ٣١٠) فقال «وقال يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم «يا سايراً . . . إلخ وقد أورد منها ١٧ بيتاً فقط . وذكرها أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي في الجزء الثالث من المهمل الصافي تاريخ ١١١٣ خصوصية (من ظهر ورقة ٢١٨ إلى ٢٢١ مخطوط بقلم معتاد) فقال ومن شعره قصيدته المشهورة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم وهي طويلة جداً . أذكر منها بعضها . وذكر ستة فقط .

(٢) في رفع الإصر بلفظ (تَرَع) بتاعين فوقيتين . وعبارة الأصل أقوم . فقد ورد في المحيط قوله في مادة (درع) ادرعت لبست الدرع . والرجل لبس درع الحديد (كتدرع) وورد في مادة (رَع) تَرَع به إلى الشر (تسرع) وَاَرَع كافتعل (امتلاً) وهذا لا يناسب المقام . (٣) أوردته في رفع الإصر بلفظ (العلا) ورواية الأصل أنسب لأن الندي هو أكثر ما يقصد إليه .

(٤) في رفع الإصر بلفظ (مسفراً) ولفظ الأصل أليق بالمقام لما فيه من مفارقة المعنى في اللفظين . وتكراره في (مسفراً) رواية رفع الأصر . ففي القاموس في (سفر) بمعنى أشرق وأضاء . وفي (قمر) القمر في الليلة الثالثة ، والقمراء ضوءه ، وطائر ، وليلة فيها القمر كالمقمرة ، ووجه أقمر شبه به .

وإذا سهرت الليلَ في طلب العلا
إن كنت النجبُ الركائبُ تارة^(١)
وابعث^(٢) لها سرَّ المدام فإنها
وإذا اخشفتْ طُرقُ المسير وظلَّ من
فالقصدُ حيثُ النورُ يشرقُ ساطعاً
قف^(٤) بال منازلِ والمناهلِ من لدُنْ
وتوخَّ^(٥) آثارَ النَّبيِّ فضعْ بها
وإذا رأيتَ مهبطَ الوحيِ التي
فاعلمْ بأنَّكَ ما رأيتَ شبيهها
شرفاً لأمكنة تنزَّلَ بيئتها^(٧)
فتأثرتْ عنه^(٨) بأحسنِ بهجة

فحذارِ ثم حذارٍ من خدع الكرى
فأعدْ لها ذكر الحبيب مكرراً
بالذكر لا تنفكْ حتى تسكراً
والطرق حيث ترى الثرى متعطراً^(٣)
وادی قباءَ إلى حيمي أم القُرى
متشرفاً خدبك في عفر الثرى
نشرتْ على الآفاق نوراً نوراً
مُدْ كنت في ماضى الزمان ولا يرى^(٦)
جبريلُ عن رب السماء مُخبراً
أفدى الجمال مؤثراً ومؤثراً^(٩)

(١) هي في رفع الإصر بلفظ (زاده) والأصل أصوب إذ لا يستقيم المعنى مع رواية رفع

الإصر .

(٢) هي في رفع الإصر بلفظ (وانعش لها سير المدام . . .) على خلاف الأصل . وهي لا يستقيم معها المعنى لأن مادة (نعش) كما في القاموس لا يناسب معناها جو البيت ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن (السير) لا يتأتى من المدام . ولكن لها سر يأخذ بالألباب .

(٣) وردت هذه الشطرة في المهمل الصافي بلفظ (والطرف حيث يرى الشرى متقطراً) وهي رواية لا يستقيم معها المعنى . ولعله تصحيف . كما أنه لم يوجد في مادة (شرى) ما يتمشى مع المقام .
(٤) اتفق الرواة مع الأصل بتقديم (المنازل) على المناهل ما عدا الصغلى نفسه فقد قدم في كتابه الواقي بالوفيات لفظ (المناهل) على (المنازل) .

(٥) في رفع الإصر (بالفاء ، فتوخ) والأصل أسلم لغة لأن الفاء تفيد السببية والترتيب والتعقيب . وليس من ذلك شيء مقصود هنا .

(٦) هي في جميع الروايات (ولا ترى) بالتاء لا بالياء . والأصل أبلغ لأنه يفيد نفي الرؤية من المخاطب وغيره في الماضي والحاضر والمستقبل .

(٧) في رفع الإصر بلفظ (يمنها) . والأصل أصوب لأن كلمة (يمن) لا تعطى المعنى

المقصود .

(٨) هي في رفع الإصر بلفظ (عنها) وهو تحريف . حيث لا مرجع لضمير التانيث .

(٩) هي في رفع الإصر بلفظ (مؤثراً وموثرأ) الأولى بالتاء . وفي الثانية بالتاء والأصل

أنسب لأن مادة (وتر) لا تساعد على انسجام المعنى المراد .

فتردد المختار^(١) بين بَعِيدَهَا
فتبرمت^(٢) بجماليه وتشرفت بجـ
واستودعت من سره ما كاد أن
سر فهمنا كنهه لم يشتبه
الله أكبر ما أعز جنابه
ولقد أقول إذا الكواكب أشرقت
لا تفخر^(٦) زهراً فإن محمداً
أحيى الإله ببعثه سنن الهدى
وأنى به والناس في ظلم العمى

وقريبها متبدياً متحضر^(٣)
لاله ورأت مقاماً أكبر
يبدى لنا معنى الكمال مصوراً
فنشك فيه ولم يهن^(٤) فيفسراً
وأجل رفعت على كل الورى
وترفت^(٥) في منتهى شرف الذرى
أعلى عللاً منها وأشرق^(٧) جوهراً
وأعاد من عهد النبوة أعصراً
مولى^(٧) المعارف والقلوب فأنشرا

(١) هي في جميع الروايات بلفظ (المختار) بالخاء المعجمة وهي أصح من رواية الأصل التي هي بالخاء المهملة . ويؤيد ذلك أن التردد حيرة ، فكأنما كرر الشاعر الحيرة هذه هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن جو القصيدة يوحي بأن المقصود بالتردد هو تنقل النبي صلوات الله وسلامه عليه بين تلك الأمكنة . ومن أسمائه عليه السلام (المختار) .

(٢) وردت في رفع الإصر بلفظ (متضرراً) وكلمة (متحضر) أنسب لأن المقابلة غير تامة مع رواية رفع الإصر والمقابلة المعروفة هي بين الحضارة والبداءة .

(٣) في رفع الإصر بلفظ (فتبرجت) وهي أصوب إذ التبرج معناه التزين وهو الأنسب للجمال هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن التبرم معناه الضجر وهو لا يناسب المقام .

(٤) هي هكذا في الأصل . والأصوب أن تكون بلفظ (ولم يهن) بالميم لا بالنون لأن (لم يهن) لا تؤدي المعنى المراد .

(٥) وردت في رفع الإصر بلفظ (فترفت) بالفاء . والأصل أقوم لأنه لا محل للتعليل هنا .

(٦) في رفع الإصر بلفظ (لا تفخرن زهراً) وفي قوافي الوفيات (لا تفخرى زهواً) والأصح الأصل لأن الخطاب موجه لمجموعة الكواكب لا لكوكب خاص .

(٧) هي في رفع الإصر ، وفي قوافي الوفيات والوافي بالوفيات بلفظ (أشرف جوهراً) بالفاء لا بالقاف . والأصل أنسب لأن الأشراف يلائم الكواكب . وأيضاً فإن الشرف يكون قد كرر بلا فائدة إذ أن (أعلا علا منها) يعطيه .

(٨) هي هكذا في الأصل ، وفي رفع الإصر بلفظ (موق المعارف) وهي أصح لاستقامة المعنى معها وفساده مع الأصل .

نَلَنَّا بِهِ ^(١) مَا قَدْ رَأَيْنَا مِنْ عُلَا
فَبِهِ الْمَلَاذُ تَقَدُّمًا وَتَأْخُرًا
لِلَّهِ مَا فِيهِ مِنَ الشَّرَفِ الَّذِي
فَسَعَادَةٌ أَزَلِيَّةٌ ^(٤) سَبَقَتْ وَمَا
وَسِيَادَةٌ بَارِي ^(٧) الْأَنَامَ لَهَا وَلَا
وَزَهَادَةٌ مَا اسْتَصْدَحَتْ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا لِأَنَّهُ يُصْنِي إِلَيْهِ وَيَنْظُرُ
وَجَلَالَةٌ فِي الْخَلْقِ حَتَّى أَنَّهُ
وَطَهَارَةٌ فِي الْخَلْقِ حَتَّى إِنَّهُ
مَعَ مَا يُؤْمَلُ ^(٢) فِي الْقِيَامَةِ أَنَّهُ نَرَى ^(٣)
وَلَهُ الْجَمِيلُ مُحَقَّقًا وَمَقَرَّرًا
أَعْيَا عَلَى حُسَابِهِ أَنَّهُ يُحْصَرُ
هُوَ ثَابِتٌ أَزَلًا ^(٦) فَلَنْ يَتَغَيَّرَ
سِيمَا ^(٨) إِذَا قَدِمُوا عَلَيْهَا ^(٩) الْمَحْشَرَا
أَثْنَى عَلَيْهَا ^(١٠) مِنْ بَرَاهُ وَصَوْرَا
يَنْدَى ^(١١) مَعَ الْأَعْرَافِ مِسْكَأً أَذْفَرَا

(١) هي في الواو بلفظ (فلنأبه) وفي رفع الإصر (بلسانه) والأصل أقوم لاستقامة المعنى وهو أولى .

(٢) هي في فوات الوفيات والواو ورفع الإصر بلفظ (نؤمل) بالنون والأصل أولى لأن المعنى يستقيم معه .

(٣) ذكرها في رفع الإصر بلفظ (يرى) بالياء ، والمعنى مع الأصل سليم وهو أولى .
(٤) في الواو (أبدية) والأصل أنسب لموافقها وملائمتها (كلمة أزلية) في عجز البيت
(٥) في كل من الفوات ورفع الإصر بلفظ (سيقت) بالياء التحية ولعله تصحيف للباء الموحدة .

(٦) في رفع الإصر بلفظ (أولا فلا يتغيرا) والأصل أقوم لأن كلمة (أولا) لا تناسب كلمة (أزلية) في صدر البيت من جهة ولما فيها من تكلف حذف حرف التضعيف من جهة أخرى . كما أن في قوله (لا يتغيرا) خروج على القواعد النحوية .

(٧) في الواو والفوات (باري الأنام بها) وفي رفع الإصر بلفظ (تأوى الأنام لها) وهي أنسب لأن كلمة (باري) لا تخرج في معناها اللغوي عن المعارضة . وهي لا تناسب مقام المديح
(٨) أسقطها كل من الواو والفوات . وأثبتها رفع الإصر .

(٩) في الواو والفوات بلفظ (عليه) بتذكير الضمير ، وفي رفع الإصر كالأصل (عليها) بتأنيته .

(١٠) في رفع الإصر بلفظ (عليه) وهو على خلاف الظاهر من السياق لأن المقصود بالثناء هو جلالة الخلق وسموه ، هذا من جهة ؛ ومن جهة أخرى فإن تذكير الضمير يفقد البيت جمال الجرس .

(١١) في رفع الإصر بلفظ (في ملامع الأعراف مسكاً أوفراً) ولعله تصحيف إذ لا يتمشى معه المعنى .

وتجاوزُ يُنسى العيوب تكرمًا
ومواهبٌ يأتي لها التأميلُ مُسَدِّ
ومهابةٌ مَلَأَ القلوبَ بهاؤها
نَزَلَتْ على قِدَمِ الزمانِ بِتَبَعٍ
ولربما هبَّ^(٣) القتالُ فلو غَدَّتْ
وبديعُ لُطفِ شَمائلٍ مِنْ دُونِهَا
مَعَ سَطْوَةِ اللَّهِ فِي يَوْمِ الْوَعْيِ
مُتَعَادِلُ الطَّرَفَيْنِ فِي طَرُقِ الْعِلَا
لَا يُنْكَرُ الْمَعْرُوفُ مِنْ آخِلَاقِهِ
عَضْبًا^(٩) لَوْ أَنَّ الْبَيْضَ تَدْرِكُ كُنْهَهُ

وَيُغَادِرُ الذَّنْبَ الْكَبِيرَ مُحَقَّرًا
تَقْصَى^(١) فَيَرْجِعُ^(٢) عِنْدَهُ مُسْتَقْصَرًا
وَاسْتَنْزَلَتْ كِبَرَ الْمُلُوكِ مُصَغَّرًا
وَدَنَتْ عَلَى بَعْدِ الْمَزَارِ بِقَيْصَرًا
لِلْيَثِّ نَالَ بِهَا الْفَرِيصَةَ^(٤) مُخْذَرًا
مَاءُ الْغَمَامَةِ وَالنَّسَمِ إِذَا سَرَى
تَعْنُو^(٦) الشَّدَّةَ بِأَسْهَاءِ الشَّرَى^(٧)
عِدَلًا وَحَاشَاهُ بِأَنْ يَسْتَجْوِرَا^(٨)
فَإِذَا اسْتَبِيحَ حَمَى الْإِلَهِ تَنَكَّرَا
دَانَتْ لَهَا رَعْبًا^(١٠) فَسَالَتْ أَنْهَرَا

(١) هي هكذا في الأصل على صيغة اسم المفعول . والأليق بالمعنى المقصود من البيت أن تكون هذه الكلمة على صورة اسم الفاعل .

(٢) في رفع الإصر بلفظ (فرجع عنها منتصرًا) وهو تصحيف لما فيه من غموض المعنى .
(٣) في الواو ورفع الإصر بلفظ (كفت) وهي أصح من رواية الأصل لاستقامة المعنى معها وغموضه مع لفظ الأصل .

(٤) في رفع الإصر بلفظ (الفراسة مجدرا) وهو تصحيف ظاهر .
(٥) في رفع الإصر بلفظ (بئائل) وهو تصحيف أيضاً إذ لا معنى لكلمة (بئائل) هنا .
(٦) في رفع الإصر بلفظ (يعفو) ولعله تحريف إذ لا يوجد في مادة عفا ما يناسب المقام .

(٧) في رفع الإصر بلفظ (أشد السرى) وفي الواو بلفظ (أسد الشرى) وهو تصحيف حيث أن كلا الروایتين لا تفيدان المعنى المقصود للشاعر وهو أن الرجال الصناديد الذين هم في قوة الأسد الضارية يقعون في الأسار مستسلمين لمهابته وصولته عليه الصلاة والسلام دون قتال . هذا والمأثور أن يقال (أسد الشرى) نسبة إلى مكان أو أمكنة بجزيرة العرب (انظر - مادة شرى) .
(٨) في رفع الإصر بلفظ (يتجورا) والأصل أصوب لأن كلمة (يتجور) لا تتمشى مع اللغة .

(٩) في رفع الإصر بلفظ (غضاً لو أن البيض يدرك كنهه . . وأنت لها رعباً فسالت أنهرًا) وهو تصحيف ظاهر .

(١٠) الأصوب تذكير الضمير في (لها) لأن مرجعه هو النبي عليه الصلاة والسلام . ولعل ذلك وقع عفواً من الشيخ وتصحيفاً .

شوقِي لِقُرْبِ جَنَانِهِ^(١) وَصَحَابِيهِ
أَفْنَى كَنُوزِ الصَّبْرِ مِنْ إِسْرَافِهِ^(٢)
إِنْ لَاحَ صُبْحٌ كَانَ وَجَدًا مَقْلَقًا^(٣)
لَا وَآخَذَ اللَّهُ الزَّمَانَ فَإِنَّهُ
أَرْجُوُ وَصَالَ أَحِبِّي فَكَأَنَّمَا
وَأَسِيرُ^(٤) نَحْوُ مَقَامِهِمْ حَتَّى إِذَا
مَتَلُونَا^(٥) فِي الْحَالِ وَالْمَتَغِيرِ الْأَحْوَا
يَا خَاتِمَ الرِّسَالِ الْكَرَامِ نِدَاءَ مَنْ
أَنَا ضَيْفُكَ الْمَدْعُو يَوْمَ مَعَادِنَا^(٦)

شَوْقًا^(٧) يَجْلُ بِسِيرِهِ^(٨) أَنْ يَذْكَرَا
وَجَرَى عَلَى الْأَحْشَاءِ مِنْهُ مَا جَرَى
أَوْ جَنَّ لَيْلٌ كَانَ^(٩) هَمًّا مَسْهَرًا
أَعْنَى^(١٠) مُرَادِي مِنْهُ أَنْ يَتَسَرَّ
أَرْجُوُ الْمَحَالَّ وَجُودَهُ الْمُتَعَذِّرَا
شَارَفْتُ رُؤْيَاهُ رَجَعْتُ الْقَهْقَرَا
لِ يَلْقَى شَرِبَهُ مُتَغَيِّرَا
وَإِنِّي إِلَيْكَ مَدِيحَةٌ^(١١) مُسْتَعَذِّرَا
مَرْجُوُ فَاجْعَلْ مِنْ قَرَايَ^(١٢) الْكَوْثَرَا

- (١) هي في الواو ورفع الإصر بلفظ (جنابه) وهو أصوب .
(٢) هي في رفع الإصر بلفظ (شوق) بالإضافة إلى ياء المتكلم . وفي الواو بلفظ (شوق)
بالرفع ورواية الأصل أبلغ في تصوير رغبة الشاعر لرؤية مقام النبي صلى الى عليه وسلم وأصحابه
(٣) في رفع الإصر بلفظ (يجل بسيره) وفي الواو والقوات بلفظ (يجل بسيره) كالأصل
وعليه لما ورد في رفع الإصر تصحيف .
(٤) في القوات بلفظ (إشراقه) وفي الواو بلفظ (أشواقه) بالواو ورواية رفع الإصر
كالأصل وهي أصح لأن الإصراف في الشوق هو اللى أفنى كنوز الصبر .
(٥) في القوات بلفظ (كان وجد مقلق) بالرفع فيها . والأصل أصح معنى ولغة ويؤيده
رفع الإصر .
(٦) في رفع الإصر بلفظ (متا) وتبين بعد الرجوع إلى المعاجم ألا أصل لها في اللغة .
(٧) في رفع الإصر بلفظ (أعني) بالياء .
(٨) هذا البيت في رفع الإصر هكذا :
وَأَسِيرُ نَحْوُ مَا مِنْهُمْ حَتَّى إِذَا سَارَفْتُ رُؤْيَاهُ رَجَعْتُ الْقَهْقَرَا
وهو بين التصحيف .
(٩) ورد في رفع الإصر هكذا :
مَلُونَا فِي أَحَالِ وَالْمَتَغِيرِ الْأَحْوَا ل يَلْقَى يَسْرَهُ مُتَغَيِّرَا
وهو غير واضح المعنى ولعله تصحيف .
(١٠) في رفع الإصر بلفظ (متعذرا) وهي أصح لغة من رواية الأصل التي لم ترد في كتب اللغة .
(١١) هي في رفع الإصر (معاديا) بالياء يعقبها ألف مقصورة . والأصل أجود لما فيه
من التعميم . هذا على أن في رواية رفع الإصر ضرورة شعرية سلمت منها رواية الأصل .
(١٢) في رفع الإصر بلفظ (قرى) بتنوين المقصور . ولفظ الأصل وقع جرسا وأوضح معنى .

وقال يمدحه صلى الله عليه وسلم ^(١)

خفيف

ليس يُحصى بكثرة تعدّاده
بيد الله قدّحه وزنّاده
مستحيل عليهم إغماده
دُ الهدى والتقى معاً ميلاده
ب لذاته ومنها مدّاده
ال تشجى ^(٢) به حسّاده
مدح فيها عتوه وعتّاده
وأقرت بفضليها أضداده
سمّح الطبع في البذل الجزيل جواده
في العدل حتى المرام سهل قياده
فخر تنمى ^(٣) به أجدّاده
ق لا يدّعيه تِلاده
أرض لا طغى عليّتها عباده
قائم بينهم بعيد كساده
طى وجه الصباح سواده
واضح حقّه جلّلى سدّاده
مُحكّم النظم كامل إرشاده

شرف المصطفى رفيع عماده
لاح للمهتدين منه سراج
وبدا للغاوين سيف انتقام
بعثته بعثت كل خير وميلا
فالمعالى ^(٤) لذاته وعلوم الغية
وله في صفاته ومزاياته كم
لا ينال العدو منها ولا يق
بهرت كل من رآها كمالاً
ثابت الجأش طاهر النفس
جامل الكل وأفرّ الفضل وآ
أبطحى له من النسب الوافر
وله فوق فخرهم من مساعيه طريد
وبه قد تدارك الله أهل الآ
وغدا فيهمو لإبليس سُوق
وضلال لو أنّه لاح للأعين غدا
فأتاهم نور مبين وديين
جاء من عند ربه بكتاب

(١) لم يذكر هذه القصيدة كلها ، بل ولا بعضها أى من المصادر التى هى بين أيدينا واتى اعتمادنا عليها فى إخراج هذا الديوان .

(٢) رأينا ضبط الكلمتين المتجانستين دفعا للإيهام .

(٣) مضارع شجى . فقد ورد فى القاموس والشجا ما اعترض فى الخلق من عظم ونحوه

شجى به كرضى شجى .

(٤) ورد فى القاموس قوله (فى مادة نى) وانتى إليه انتسب . والبازى ارتفع من موضعه

إلى آخره كتنمى .

هو غَضُّ عَلَى الزَّمانِ لِذِيْدٍ
 أَعْجَزَ الْعَالَمِينَ طُرًّا وَمَنْ غَا
 سُخْرَ الْكَوْنِ لِلرَّسُولِ فَأَبْدَى
 وَلَهُ الْجَذْعُ حَسَنٌ لِّمَا شَجَّاهُ
 وَأَجَابَ اسْتِدْعَاهُ الشَّجَرُ الْمَنفَا
 وَأَتَى بِانْشِقَاقِ بَدْرِ الدِّيَّاجِي
 كَثُرَتْ مُعْجِزَاتُ أَحْمَدَ حَتَّى
 هِيَ كَالدُّرِّ فِي الْغَنَا إِنْ يُؤْلَفَ كَا
 ثِمٌ لَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَانَ دَلِيلًا
 وَيَقِينًا بِاللهِ حَقًّا فَلَا تَلْفَقَا
 وَعُلُومٌ لَمْ يَدْرَهَا قَوْمُهُ قَبْلَ وَحْدِ
 وَعِبَادَاتُهُ الَّتِي لَمْ يَحُلْ عَنْهَا
 سَعِدَتْ مِنْهُ أَنْجَمُ اللَّيْلِ بِالصَّحْبَةِ
 تَعَبٌ لِلْجِسْمِ يَبْدِلُهُ اللهُ بِـ
 يَا رَسُولَ الْمَلِيكِ دَعْوَةٌ مِنْ
 لَكَ أَشْكُو حَالًا مِنْ الدِّينِ وَالْدُنْ
 هُوَ حَدُّ بَيِّنِ السُّرُورِ وَبَيِّنِ
 وَعَلَيْكَ السَّلَامُ مِنْ ذِي اشْتِيَاقِ

دَرْسُهُ لَا يَمْلَهُ تَرْدَادُهُ
 لَبَّ بَحْرًا وَدَّتْ بِهِ أَطْوَادُهُ
 صَامِتٌ نُطْقُهُ وَحْيًا بِجَمَادِهِ^(١)
 بَعْدَ قَرَبِ الْمَزَارِ مِنْهُ بَعَادُهُ
 دُ طَوْعًا لَمَّا أُرِيدَ انْتِقِيَادُهُ
 خَبَرَ عَنْهُ ثَابِتٌ إِسْنَادُهُ
 صَارَ خَرَقُ الْعَادَاتِ فِيهَا اعْتِيَادُهُ
 نَ فَضْلًا أَوْ لَا اكْتَفَتْ أَحَادُهُ
 وَأَضْحَا حُسْنُ شَرْعِهِ وَاعْتِقَادُهُ
 هُ إِلَّا عَلَى الْإِلَهِ اعْتِمَادُهُ
 كُنْ لَا تَقْتَضِيهِ بِلَادُهُ
 مَلَالًا وَطَالَ فِيهَا اجْتِهَادُهُ
 اشْتَكَى الْفِرَاقَ وَسَادَهُ^(٢)
 نَ رَاحَةَ الْمَعَادِ مُرَادُهُ
 زَادَ بِهِ شَوْقُهُ وَصَحَّ وَدَادُهُ
 يَا شَدِيدُ غُلُوهُ وَاقْتِصَادُهُ
 كَدَّرَ الْعَيْشَ عَكْسُهُ وَاطْرَادُهُ
 أَنْتَ فِي الْحَشْرِ كَنْزُهُ وَعَتَادُهُ

(١) يشير في هذه الأبيات إلى ما جرى على يد النبي صلى الله عليه وسلم من المعجزات والحوارق للعادات . ومن ذلك نطق الحصى في كفه . وحنين الجذع إليه . وغيرها وفي البيت (سخر الكون . . . إلخ) يبدو فيه ضعف الأسلوب ، وثقل التركيب .
 (٢) في هذا البيت ركابة في الترتيب وتكلف في التركيب .

وقال رحمه الله تعالى في مخمس (١)

طويل

ذروا في السرى نحو الجنب (٢) الممنع لذيذ الكرى واجفؤ له (٣) كل مضجع
وأهدوا إذا جثتم إلى خير مربع تحية مضنى هائم القلب موجع
سريع إلى داعي الصبابة طيع (٤)

يَقُومُ بِأَحْكَامِ الْهَوَى وَيُقِيمُهَا فَكَمْ لَيْلَةٌ قَدْ نَازَلَتْهُ هُمُومُهَا
فَسَامَرَهَا (٥) حَتَّى تَوَلَّتْ نَجُومُهَا لَهُ فِكْرَةٌ فَيَمَنُ يُحِبُّ نَدِيمَهَا (٦)
وَطَرَفٌ إِلَى اللَّقْيَا كَثِيرِ التَّطَلُّعِ

وَكَمْ ذَاقَ فِي أَحْوَالِهِ طَعْمَ مَحَنَةٍ وَكَمْ عَاذَ مِنْهُ مِنْ مَوَاقِفِ فِتْنَةٍ

(١) ذكر هذا المخمس الشيخ تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (رضي الله عنه) في كتابه طبقات الشافعية الكبرى فقال (انظر ج ٦ ص ٦ المطبعة الحسينية بالقاهرة) . وقال بقية المجتهدين أبو الفتح القشيري « ذروا في السرى . . . الخ » .
كما ذكره أيضاً ابن شاکر الکتبی في كتابه فوات الوفيات فقال (انظر ج ٢ من ص ٣٠٥ إلى ص ٣١٠ . مطبعة بولاق بالقاهرة سنة ١٢٨٣ هـ) وقال أيضاً رحمه الله تعالى (يعني ابن دقيق العيد) ذروا في السرى . . . الخ . وقد أسقط من هذا المخمس مقطعين هما الرابع عشر والسادس عشر .
(٢) في طبقات السبكي بلفظ (الجهاد) وهو تصحيف لأنه لا يتفق مع المعنى المراد .
(٣) هي في طبقات السبكي بلفظ (يهوى) والأصل أصوب لأن كلمة (يهوى) لا تناسب المقام .

(٤) في طبقات السبكي بلفظ (تبع) وهو واضح التحريف .

(٥) هي بلفظ (يسامرها) في طبقات السبكي والأصل أقوم لأن ذلك في صدد الإخبار عن المقيم بالنبي صلى الله عليه وسلم .

(٦) في فوات الوفيات بلفظ (يجب يديهما) وفي طبقات السبكي بلفظ (يجيب نديهما) والأصل أسلم من كلا الروایتين ؛ أما الأولى فلما فيها من توالى فعلين . كما أن المسامرة في صدر البيت يناسبها كلمة (نديم) كما في الأصل . أما الثانية فلا لأنه لا معنى لكلمة (يجيب) هنا . ولعله تصحيف لكلمة يجب .

وكم^(١) أنّة يأتى بها بعد أنّة تنم على سر له فى أكنة
وتخبر عن قلب له متقطع

نعى^(٢) صبره شوق أقام ملازما وحب^(٣) يحاشى أن يطيع اللوائما
وجفن ترى^(٤) أن لا يرى الدهر ناثما وعقل ثوى فى سكرة الحب دأثما
وأقسم أن لا يستفيق ولا يعى

أقام على بعد المزار متيسما وأبكاه برق بالحجاز تبسما^(٥)
وشوقه^(٦) أحبابه نظرت الحمى دعوته لأمر دونه تقطر الدما
فبأويح^(٧) نفس الصب ما له دعى

(١) فى طبقات السبكي بلفظ

وكم آية يأتى بها بعد آية تم على أسنولة فى أكنة
ونحن على قلب لها متقطع

وهى رواية لا تؤدى الغرض فى هذا المقطع فإن القصد منه تصوير الآلام كما يشعر به قوله (وكم ذاق
فى أحواله طعم محنة) هذا على أنه لم يرد فى اللغة فى مادة (سول وسال وسيل) صيغة أسنولة
على الإطلاق . كما أن قوله (ونحن على قلب له متقطع) غامض التركيب غريب المعنى .
(٢) فى طبقات السبكي بلفظ (وفى صدره) ورواية الأصل أبلغ لإفادتها فناء الصبر لشدة
الشوق .

(٣) هى فى الطبقات أيضاً بلفظ (وحيث يحاشى أن تطيع اللوائما) وهو واضح التحريف
إذ لا يصح معه المعنى .

(٤) فى الفوات بلفظ (يرى) بالياء . وفى الطبقات بلفظ (نرى بالنون) والأصل أنسب
من كلا الروایتين . أما الأولى فلسقم المعنى ، وأما الثانية فلعدم استقامته معها لأن المعلوم هو أن
الشاعر يتحدث عن نفسه واصفاً حاله للغير ، وذلك إنما يقتضى الخطاب .

(٥) هى فى طبقات السبكي بلفظ (وإنكاره برق الحجاز تنسما) وهو تصحيف لأنه
لا معنى لإنكار البرق من الحب ، من جهة . ولأن البرق لا يوصف لغة بالتنم من جهة أخرى .

(٦) فى طبقات السبكي بلفظ (وشوقه أحبابه بطر الحما) وهو واضح التصحيف .

(٧) فى الفوات بلفظ (ما ذاله دعى) وفى الطبقات بلفظ (ما زانه دعى) . ورواية
الفوات أصح تمشياً مع اللغة .

له عندَ ذكرِ المنَحْنَا سَفَحُ عِبْرَةٍ وبين الرجا والخوف موقفُ عِبْرَةٍ (١)
فَحِينًا يُوَافِيهِ النِّعَمُ بِنَظَرَةٍ وحِينًا تَرَى (٢) فِي قَلْبِهِ نَارَ حَسْرَةٍ
يَجِيءُ (٣) إِلَيْهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَوْضِعٍ

سَلَامٌ عَلَى صَفْوِ الْحَيَاةِ وَطَيْبِهَا إِذَا لَمْ تَفْرَ عَيْنِي (٤) بِلُقْبَا حَبِيبِهَا
وَلَمْ تَحْظَ مِنْ إِقْبَالِهِ بِنَصِيبِهَا وَلَا اسْتَعْطَفْتَهُ (٥) عِبْرَتِي بِصَبِيبِهَا
وَلَا وَقَعَتْ شَكْوَايَ مِنْهُ بِمَوْضِعٍ

مُوكِلَ طَرَفِي بِالسَّهَادِ الْمُؤَرَّقِ وَمُجْرَى (٦) دَمْعِي كَالْحَيَاةِ الْمَتَدَفِّقِ
وَمُلْهَبِ (٧) وَجَدِي فِي فَوَادِي مُحَرَّقِ بِعَيْنَيْكَ مَا يَلْقَى الْفَوَادُ مَا لَقِيَ
وَعِنْدَكَ مَا تَحْوِي وَتُخَفِّيه أَضْلَعِي

أَضْرَتْ (٨) بِي الْبَلْوَى وَذُو (٩) الْحَبِّ مَبْتَلِي يَعَالِجُ دَاءً بَيْنَ جَنِينَةٍ مُعْضَلَا

(١) في طبقات السبكي بلفظ (غيرة) ولا معنى للغيرة هنا .

(٢) في الطبقات بلفظ (يرى) بالياء . والتأنيث أفصح .

(٣) في الطبقات (تجيئ له الموت في كل موضع) ورواية الأصل أجود .

(٤) رواية الطبقات بلفظ (إذا لم تر عين الحب حبيبها) ورواية الأصل أقوم للملاءمة
روى هذا المقطع . ولأن التعبير بالفوز أبلغ من التعبير بالرؤية .

(٥) في طبقات السبكي بلفظ (ولا أعطفته مقلتي بصيبها) وهو تبديل وتحريف واضح .

(٦) في الطبقات (ويجري أدمعي) وفي الفوات (يجري دموعي) والأصل أصوب من
رواية السبكي لأن اسم الفاعل مطرد في أول شطرات المقطع لا فعلا مضارعاً كما هو تعبير السبكي
الذي لا يستقيم معه المعنى ، هذا على أن كلمة (أدمعي) تخل بموسيقى البيت وأيضاً فإن الأصل
أصوب من رواية الفوات لأنه جعل (يجري) مرفوعاً على الابتداء ليستقيم الوزن مع كلمة (دموعي)
وذلك يتنافى مع السياق المبني على الخطاب والمناجاة .

(٧) في الطبقات بلفظ (وملهب) والأصل أصوب لأن الحب يتحدث عن أحاسيسه
ومشاعره هو فحسب .

(٨) في طبقات السبكي (أضر) بحذف التاء ، والتأنيث كما في الأصل أفصح لغة وأحسن وقعاً .

(٩) في فوات الوفيات بلفظ (وذا الحب) بالألف ، والأصل أصح إذ لا محل للنصب
على المشهور .

وَيُثْقِلُهُ مِنْ وَجْدِهِ مَا تَحْمِلَا وَتَبْعُهُ^(١) الشَّكْوَى فَيَشْتَاقُ مُتَزَلَا
بِهِ يَتَلَقَّى رَاحَةَ الْمُتَوَدِّعِ

مقر^(٢) الذى دلّ الأنام بشرعه على أصل دين الله حقاً وفرعه
به انضم شمل الدين من بعد صدعه لنا مذهب العشاق فى قصد ربه
نقيم^(٣) به رسم البكا والتضرع

تحل^(٤) به الأنوار ملء رحابه ومستودع الأسرار عند صحابه
هداية من يختار^(٥) تأميل بابيه وتشريف من يختار قصد جنابه
بتقبيله وجه^(٦) الثرى المتضوع

أقام لنا شرع الهدى ومنازه^(٧) وألبسنا ثوب التقى وشعاره^(٨)
وجنبنا جور العمى وعثاره^(٩) سقى الله عهد الهاشمي وداره^(١٠)
سحاباً من الرضوان ليس بمقلع

بنى العز للتوحيد^(١١) من بعد هداه^(١٢) وأوجب ذلّ المشركين بجده

(١) فى الطبقات بلفظ (وتبعه الشكوى ويشتااق منزلا) الأصل أكثر ملامة للمعنى من عبارة السبكي إذ أن الشكوى لا تنعش . ولعله تصحيف .

(٢) فى الطبقات بلفظ (محل) والأصل أروع وأوقع .

(٣) فى الطبقات (محل) بلفظ اسم الفاعل وهو لفظ غامض لتعقيد المعنى معه . هذا إن قرئت بضم الميم وكسر الحاء . أما إذا قرئت بفتحها فلا غموض فيه ، وفى الفوات كالأصل بفعل المضارعة . وهو يرجح للأصل .

(٤) فى طبقات السبكي بلفظ (تختارنا ملء بابيه) وفى الفوات (يختار تأميل بابيه) والأصل أنسب من الفوات . لأن الحيرة تناسب الهداية إذ الهداية إنما تلتبس عند الحيرة ؛ وهى أيضاً أصوب من رواية السبكي لأن المعنى لا يستقيم معها .

(٥) فى الطبقات (رحب) ولفظ الأصل أقوم إذ المؤلف لغة قولنا قبل الثرى أو وجهه . ولم نسمع أو نقرأ مثل هذا التعبير الغريب .

(٦) فى طبقات السبكي (والتوحيد) بالواو والأصل أصوب لأن الذى هدم هو التوحيد بعد أن كان عزيزاً فى زمن إسماعيل وأبيه إبراهيم عليهما السلام .

(٧) فى الفوات بلفظ (هدمه) بزيادة الميم . والسبكي كالأصل وهو أبلغ . فى القاموس (الهد) الهدم الشديد .

عَزِيزٌ قَضَى رَبُّ السَّمَاءِ ^(١) بِسَعْدِهِ وَأَيَّدَهُ عِنْدَ اللِّقَاءِ بِجُنْدِهِ
فَأَوْرَدَهُ ^(٢) لِلنَّصْرِ أَعْدَبَ مَشْرَعٌ

أَقُولُ لِرَكْبٍ سَائِرِينَ لِيَشْرَبَ ظَفَرْتُمْ بِتَقَرِّيبِ النَّبِيِّ الْمُقَرَّبِ
فَبُثُوا إِلَيْهِ كُلُّ شَكْوَى وَمَتَعَبٍ وَقُصُّوا عَلَيْهِ كُلُّ سُؤْلِ وَمَطْلَبِ
فَأَنْتُمْ ^(٣) بِمِرْءَى لِلرَّسُولِ وَمَسْمَعِ

سَتَحْمُونَ ^(٤) فِي مَغْنَاهُ غَيْرَ ^(٥) حِمَايَةٍ وَتَكْفُونَ مَا تَخْشُونَ أَيْ كَفَايَةٍ ^(٦)
وَيَبْدُو لَكُمْ مِنْ مَجْدِهِ ^(٧) كُلُّ آيَةٍ فَحَلُّو مِنْ التَّعْظِيمِ أَبْعَدَ غَايَةٍ
فَحَقَّ رَسُولُ اللَّهِ أَكْدَ ^(٨) مَا رُعِيَ

أَمَّا وَالَّذِي آتَاهُ مَجْدًا مُؤَنَّلًا لَقَدْ كَانَ كَهْفًا ^(٩) لِلْعَفَاةِ وَمَعْقَلًا

(١) فِي الطَّبَقَاتِ (الْعِبَاد) وَلَفْظُ (السَّمَاءِ) أَخْلَقَ بِعَظْمَةِ الرَّبِّ وَجَلَالِهِ .
(٢) فِي الطَّبَقَاتِ بِلَفْظِ (فَأَوْرَدَ نَصْرَ اللَّهِ أَعْدَبَ مَشْرَعٌ) وَلَعَلَّهُ تَصْحِيفٌ إِذْ لَا يَفْهَمُ
هَذَا التَّرْكِيبَ إِلَّا فِي تَكْلُفٍ وَاعْتِسَافٍ .

(٣) فِي طَبَقَاتِ السَّبْكِ بِلَفْظِ (وَأَنْتُمْ) بِالْوَاوِ ؛ وَالْفَاءُ فِي الْأَصْلِ أَنْسَبُ لِإِفَادَتِهَا السَّبْبَ .
(٤) فِي الطَّبَقَاتِ بِلَفْظِ

سَيَحْمُونَ فِي مَغْنَاهُ غَيْرَ حِمَايَةٍ وَيَكْفُونَ مَا يَخْشُونَ أَيْ عِمَايَةٍ
وَيَبْدُو لَكُمْ مِنْ عِنْدِهِ كُلُّ آيَةٍ فَحَلُّو مِنْ التَّعْظِيمِ أَبْعَدَ غَايَةٍ
فَحَقَّ رَسُولُ اللَّهِ أَكْبَرَ مَا رُعِيَ

وَفِي هَذِهِ الرَّوَايَةِ يَبْدُو الْاضْطِرَابُ فِي الْأَسْلُوبِ بِشَكْلِ يَفْسِدُ الْمَعْنَى .

(٥) فِي السَّبْكِ بِلَفْظِ (غَيْرِ) وَهِيَ أَنْسَبُ وَأَرْوَعُ مِنْ رَوَايَةِ الْأَصْلِ لِأَنَّ (غَيْرَ) تَفِيدُ
تَعَدُّدَ الْحِمَايَةِ وَهِيَ غَيْرُ مَرَادٍ إِذْ الْمَقْصُودُ تَبْيِينُ مَقْدَارِ الْحِمَايَةِ وَعَظْمِهَا وَأَنَّ كُلَّ حِمَايَةٍ تَلْتَمِسُ فِي غَيْرِ
كَتْفِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَبْلُغُ الْمَأْمَنَ الْمُنْشُودَ .

(٦) هَذَا اللَّفْظُ أَنْسَبُ لِلْخَشْيَةِ مِنْ لَفْظِ (عِمَايَةٍ) فِي رَوَايَةِ السَّبْكِ السَّابِقَةِ .

(٧) لَفْظُ (مَجْدِهِ) أَلِيقٌ بِالْمَقَامِ مِنْ لَفْظِ (عِنْدِهِ) فِي تَعْبِيرِ السَّبْكِ الْمَذْكُورِ .

(٨) رَوَايَةُ الْأَصْلِ أَنْسَبُ لِلْمَعْنَى مِنْ رَوَايَةِ السَّبْكِ فِي قَوْلِهِ (أَكْبَرَ) .

(٩) فِي السَّبْكِ بِلَفْظِ (قَامَ) وَالْأَصْلُ أَصُوبٌ لِإِفَادَةِ (كَانَ) مَطْلُوقِ التَّوْقِيتِ ، وَلَعَلَّ

وَضُوحُ الْمَعْنَى مَعَ رَوَايَةِ (قَامَ) فِي رَوَايَةِ السَّبْكِ .

يَبُوءُهُمْ سِرّاً مِنْ الْحِلْمِ مُسَبِّلاً^(١) وَيَمْطُرُهُمْ غَيْثاً^(٢) مِنَ الْجُودِ مُسَبِّلاً
وَيَنْزِعُ^(٣) فِي إِكْرَامِهِ كُلَّ مَنْزِعٍ

تَعْبِئُنَا^(٤) بِعَيْشٍ مَا هُنَا فِي وَرُودِهِ وَضُرٌّ ثَقِيلُ الْوُطءِ فِيهِ شَدِيدُهُ
فَرَحُنَا إِلَى رَبِّ النَّدَى وَعَمِيدِهِ وَلَمَّا قَصَدْنَا هَادٍ وَثِقْنَا بِجُودِهِ
وَلَمْ نَخْشَ رَيْبَ الْحَادِثِ الْمَتَوَقَّعِ

لَقَدْ^(٥) شَرَّفَ الدُّنْيَا قَدُومُ مُحَمَّدٍ وَأَلْقَى بِهَا أَنْوَارَ حَقٍّ مُؤَيَّدٍ
تَزِينُ بِهِ وُورَاثَةَ كُلِّ مَشْهَدٍ فَهَمٌّ بَيْنَ هَادٍ لِلْأَنَامِ وَمَهْتَدٍ
وَمَنْبُتُ أَصْلِ فِي الْهُدَى وَمُفْرَعٍ

(١) في الفوات (مسدلاً) بالدال وهما بمعنى .

(٢) في الطبقات بلفظ (ويمطرهم عيناً من الجود سلسلاً) ورواية الأصل أفصح وأوفى
بالفرض من كلمة (عين) لأن استعمالها في هذا المعنى قليل وغير شائع من جهة ، ولأنها تطلق فقط
على السحاب الآتي من جهة القبلة أو من قبلة العراق أو عن يمينها من جهة أخرى ؛ على أن الغيث
كما هو في الأصل أرق لفظاً وأعم فائدة وأشمل معنى ، ومن يتتبع (غوث أو غيث) في اللغة
يجدها أكثر ملاءمة في هذا المقام . والأصل أليق كذلك وأنسب من (سلسلاً) في رواية السبكي
لأن معناه الماء العذب أو البارد فقط وهو وإن جمل ؛ فيه قصور بخلاف كلمة (مسبلاً) كما في
الأصل . فهي أعم وأشمل لما فيها من إصباح لنعمة الهدى وسعة الكرم .

(٣) في الطبقات بلفظ (ويسرع في إكرامهم كل مسرع) وعبرة الأصل أبلغ لما فيها
من الدلالة على عظم كرم الرسول صلى الله عليه وسلم إذ هو يذهب في الإكرام كل مذهب . بخلاف
عبرة السبكي فإنها تفيد مجرد مسرعه صلى الله عليه وسلم إلى الإكرام فقط .

(٤) في طبقات السبكي هكذا

بقينا بعيش ما هنا في وروده وصبر ثقیل الوطء فيه صديده
فرحنا إلى رب البرا وعميده ولما قصدناه وقفنا نجوده
ولم نخش ريب الحادث المتوقع

ورواية السبكي هذه يظهر فيها الغموض والاضطراب لما فيها من تحريف وتبديل .

(٥) في طبقات السبكي هكذا .

لقد شرف الدنيا قدوم محمد وأبقى لها أنوار حق مؤيد
ندين به وادائه كل مشهد فهو بين هاد للأنام ومهتد
مشت أصل للهدى ومفرع

والمعنى في هذه الرواية غير مترابط ولا مستقيم ولعل ذلك راجع إلى ما فيها من تغيير وتصحيف .

سَلَامٌ عَلَى مَنْ شَرَّفَ اللَّهُ قَدْرَهُ سَلَامٌ مُحِبِّ عَمَّرَ الدَّهْرَ ^(١) سِيرَهُ
 لَهُ مَطْلَبٌ أَفَى تَمَنِيهِ ^(٢) عُمُورَهُ وَحَاجَاتِ نَفْسٍ لَا تَجَاوِزُ ^(٣) صَدْرَهُ
 أَعَدَّ لَهَا بَجَاهِ الشَّفِيعِ الْمَشْفَعِ

وله رحمه الله ^(٤) :

(١) هي في طبقات السبكي (عمر الحب) ورواية السبكي أول هنا ، لتلاؤمها مع المعنى ؛
 على خلاف الأصل .

(٢) في الطبقات بلفظ (يمني) بالياء والأصل أصح لسلامة المعنى معه ولعدم مساعدة
 اللغة أيضاً في رواية السبكي .

(٣) في طبقات السبكي بلفظ (صده) بحذف الراء . وهو تصحيف لاختلال المعنى معه .

(٤) ذكر هذه المقطوعة العلامة كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر الإدقوي
 في كتابه المسمى بالطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد . فقال (انظر
 ص ٣٣٢ من الكتاب المذكور - مطبعة الجمالية بحارة الروم بالقاهرة ١٣٣٢ هـ - ١٩١١ م)
 ومن مشهور شعره قوله الذي أنشدني أفضى القضاء شمس الدين بن القماح . قال أنشدنا الشيخ
 تقي الدين لنفسه قوله (يهم . . . الخ) .

وذكرها العلامة تقي الدين أحمد بن علي المقرئ في كتابه المقنى (انظر لوحة ١٦٥ إلى
 ١٧٢ من النسخة المصورة عن المخطوطة بمكتبة باريس رقم ٥٣٧٢ رمز تاريخ بدار الكتب)
 فقال نقلاً عن فتح الدين محمد بن سيد الناس اليعمرى . وقال (يهم قلبى . . . الخ) .
 وذكرها في فوات الوفيات (انظر المرجع السابق) فقال ومن شعره رحمه الله تعالى (يهم نفسى)
 وذكرها ابن فضل الله العمري في كتابه (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار - انظر القسم
 الثالث من الجزء الثالث ورقة ٤٣٣ ص ٤٤٠ من النسخة المصورة تحت رقم ٥٥٩ معارف عامة
 بدار الكتب) فقال ومنه قوله (يهم نفسى . . . الخ) .

وذكرها الوافي بالوفيات (انظر المرجع السابق) فقال وبالسند المذكور له إجازة (يعنى قوله
 أنشدنى من لفظه الشيخ فتح الدين محمد بن سيد الناس . قال أنشدنى شيخنا تقي الدين ابن دقيق
 العيد لنفسه) . قال (يهم نفسى . . . الخ) .

وذكرها في أعيان العصر وأعوان النصر (انظر ج ٦ ، مجلد أول من ٨١ إلى ١٠٢ من
 المصورة رقم ١٠٩١ تاريخ بدار الكتب عن الأصل المخطوط المحفوظ بمكتبة عاشر أفندي بالإستانة)
 فقال ومن شعره ، ثم أوردها بتقديم الثالث فالرابع ثم الأول فالثاني على خلاف ما في الأصل .

تَهِيمٌ ^(١) نَفْسِي طَرِبًا عِنْدَمَا ^(٢) اسْتَمْلِحُ ^(٣) الْبَرْقَ الْحِجَازِيًّا ^{سريع}
 وَيَسْتَخْفُ الْوَجْدُ عَقْلِي ^(٤) وَقَدْ أَصْبَحَ ^(٥) إِلَى حَسْنِ الْحَجَبِي ^(٦) زِيًّا
 يَاهْلَ ^(٧) أَقْضَى حَاجَتِي مِنْ مَنْى وَأَنْحَرُ الْبُزْلَ ^(٨) الْمَهَارِيًّا

(١) في الطالع والمقن بلفظ (يهم قلبي) وفي غيرهما (تهيم نفسي) كالأصل . وهو أرق في التعبير وأدق في التصوير ، لما في هذه الرواية من تفنن بالتغيير في الكلمات ، والتنوع في المعاني . ورواية المقن والطالع لما يلزم عليها من تكرار اللفظ الواحد وهو (قلب) في صدر البيت الأول والثاني هذا على أن الطرب إنما يناسب النفس لا القلب .

(٢) في أعيان العصر والوافي بلفظ (كلما) وفي غيرهما بلفظ (عندما) كالأصل وهو أنسب لأنه أوغل في الظرفية .

(٣) في الطالع والوافي والأعيان بلفظ (استلمح) بتقديم اللام على الميم ، وفي الباقي بالعكس كالأصل والذي يؤدي الغرض . هي رواية (استلمح) بتأخير الميم على اللام . من لمح البرق إذا شاهده لحظة . أعني أن رؤية البرق هي سبب هيامه وليس الاستملاح . اللهم إلا أن يقال إن (استلمح) هي (استلمح) ولكن دخلها القلب كما هي عادة المصريين في كثير من ألفاظهم .

(٤) في الطالع والمقن بلفظ (قلبي) وفي غيرهما بلفظ (عقلي) كالأصل . وهو أسلم لأن الاستخفاف يناسب العقل .

(٥) رواها صاحب الأعيان والقنوات بلفظ (لبست أثواب . . . إلخ) . وفي الوافي بلفظ (لبست الثواب) ورواها الباقي كالأصل .

(٦) هي في جميع المراجع بالياء المقصورة التي تشعر بأن المقصود بكلمة (الحجبي) العقل وذلك فيما عدا رواية الوافي فإنها جاءت فيه بالألف التي تشعر بأنها تكون مع ما بعدها كلمة واحدة وهي النسبة إلى الحجاز . وعلى هذه الرواية يلزم عليه تكرار القافية بكلمة واحدة وأيضاً يفقد البيت ما فيه من روعة الجناس هذا على أن كلمة (الثواب) تكسب المعنى غموضاً ولعلها تصحيف (أثواب) .

(٧) في الأعيان والمسالك بلفظ (يا أهل) وفي غيرهما كالأصل بلفظ (ياهل) وهو جار على أسلوب التمني ، بخلاف (يا أهل) فإن التمني فيها لا يبدوا واضحاً ؛ الأمر الذي يجعلنا نرجع رواية الأصل .

(٨) في الطالع (البدن) والمسالك (الازل) والمقن والوافي (البذل) وفي غيرها (الازل) كالأصل وهو أولى لسلامة المعنى معه .

فأرتوى^(١) من زمزم فهي^(٢) لى ألد^(٣) من ريق المهاريا
وقال أيضاً^(٤) :

عطيته إذا أعطى سرور
فأى النعميين^(٥) أعد فضلاً
فإن سلب الذى أعطى أثاباً
وأحمد عند عقباها إياباً
أنعمته التى كانت سروراً
أم الأخرى التى جلبت^(٦) ثواباً
وله تغمده الله برحمته^(٧) :

(١) فى الطالع والمسالك والمقنى والأعيان (وأرتوى) وهى أصح من رواية الفاء كما فى الأصل والوافى والفوات ، إذ لا سببية ولا تفريع هنا .

(٢) فى المقنى بلفظ (فهو لى) وفى غيره كالأصل بلفظ (فهى لى) .

(٣) فى الفوات بلفظ (أرق من ريق) وغيره كالأصل بلفظ (ألا) وهو اللفظ وأنسب من رواية (أرق) لما يلزم عليها من تنافر فى الكلمات .

(٤) ذكرها ابن شاکر الكتفى فى كتابه فوات الوفيات (انظر المرجع السابق) فقال : وقال أيضاً سامحه الله (يريد ابن دقيق العيد) عطيته . . . إلخ .

وذكرها الصفدى فى كتابه الوافى بالوفيات (انظر المرجع السابق) فقال «وبالسند المذكور له أيضاً (يعنى قوله أنشدنى من لفظه الشيخ فتح الدين محمد بن سيد الناس قال أنشدنى شيخنا تقي الدين ابن دقيق العيد لنفسه » قال «فقال » عطيته . . . إلخ .

(٥) فى الوافى والفوات بلفظ (النعمتين) ولفظ الأصل أروع وأوقع فى النفس .

(٦) فى الفوات بلفظ (جلبت) والوافى كالأصل (جلبت) وهى أدق وأوفى بالعرض .

(٧) ذكر هذه القطعة العلامة الاسنوى فى كتابه طبقات الشافعية (انظر ورقة ١١٤ إلى ورقة ١١٦ نسخة مخطوطة بقلم معتاد بدار الكتب تحت رقم ٤٨١ تاريخ تيمور) فقال وله أيضاً شعر بليغ دقيق . ومن شعره (يعنى ابن دقيق العيد) تمنيت . . . إلخ وذكرها الصفدى فى كتابه الوافى (انظر المرجع السابق) فقال «وبالسند المذكور له أيضاً (يعنى السند الذى ذكرناه آنفاً) تمنيت . . . إلخ .

وذكرها فى الفوات فقال «وقال أيضاً سامحه الله تعالى : - تمنيت . . .

وذكرها الإدقوى فى كتابه الطالع ص ٣٣٣ فقال «وجدت بخط شيخنا تاج الدين بن الدشناوى أنشدنى الشيخ تقي الدين لنفسه قوله : تمنيت . . .

وذكرها السبكي فى طبقاته ص ٥ (انظر المرجع السابق) فقال أنشدنا أبو عبد الله الحافظ بقراعتى عليه أنشدنا شيخ الإسلام تقي الدين لنفسه إجازة : تمنيت . . . إلخ .

طويل
وَقَرَّبَ مِنِّي فِي صَبَايَ^(١) مَزَارَهُ
وَأَخَذَ مِنْ عَصْرِ الْمَشِيبِ وَقَارَهُ

تَمَنَيْتُ أَنْ الشَّيْبَ عَاجِلَ لِمَتِّي
لَأَخْذَ^(٢) مِنْ عَصْرِ الشَّبَابِ نَشَاطَهُ
وَلَهُ أَيْضًا رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ^(٣) :

كامل
وَالْجُودُ يَأْبَى أَنْ يَكُونَ مُضَاعًا
لِي فِي الْهُوَى^(٤) كَأَسِ النَّوَى إِتْرَاعًا
تَنْمِي بِهِ حَتَّى اسْتَحَالَ نِزَاعًا^(٥)
وَدَّعْتُ أَيَّامَ الْحَيَاةِ وَدَّاعًا
وَسَوَى حَدِيثِكَ لَا أُرِيدُ سَمَاعًا^(٦)

يَا مُنِيَّتِي أَمَلِي بِبَيْابِكَ وَاقِفُ
أَشْكُو إِلَيْكَ صَبَابَةً قَدْ أَتْرَعْتُ
وَنِزَاعَ^(٥) شَوْقٍ لَمْ تَزَلْ أَيْدِي النَّوَى
لَمْ يَبْقَ لِي أَمَلٌ سِوَاكَ فَانْ يَفْتَ^(٧)
لَا أَسْتَلِذُ^(٨) لَغِيرِ^(٩) وَجْهِكَ مَنْظَرًا^(١٠)

(١) في الوافي بلفظ (حياتي) وفي غيره كالأصل بلفظ (صباي) وهو أروع وأنسب .
(٢) في الفوات بلفظ (فأخذ) وفي غيره كالأصل باللام وهو أنسب لفادتها التعطيل
بداتها مباشرة .

(٣) ذكرها السبكي في طبقاته ص ١٢ فقال « وقال يا منيتي . . . الخ » .
وذكرها في الوافي فقال « وبالسند المذكور من أبيات (يعني التي أسلفنا ذكره) » لم يبق
لي أمل . . . الخ وأسقط الأبيات الثلاث الأول .
وذكرها في الفوات فقال « وقال يملح رسول الله صلى الله عليه وسلم » . لم يبق . . . ففعل كسابقه .
وذكرها في أعيان العصر فقال : ومنه (أي شعر ابن دقيق العيد) لم يبق لي . . . الخ
فاقتصر على الرابع والخامس كما فعل في الوافي .
(٤) هي في طبقات السبكي بلفظ (لي كأس وجد في الهوى إتراعا) ورواية الأصل أرق
وأسلس .

(٥) في طبقات السبكي بلفظ (وفراغ) وهو تصحيف .
(٦) في الطبقات بلفظ (تراعا) ولا يكاد يبدو له معنى ولعله تحريف .
(٧) في الطبقات والأعيان بلفظ (تفت) بالفاء وفي غيرها كالأصل بالياء وهو أصح
من رواية التاء وأبين معنى .

(٨) في الطبقات للسبكي بلفظ (لم أستلذ) وفي غيره (لا أستلذ) كالأصل وهي أرق وأبلغ
من رواية السبكي ، إذ هي تنفي التلذذ في الماضي فقط ، زيادة على ما بها من ثقل .
(٩) هي في طبقات السبكي (بغير وجهك) وفي غيره كالأصل باللام .
(١٠) هي في غير الأصل بالنصب ، وفي الأصل بالرفع ولا وجه له لغة .
(١١) في الطبقات بلفظ (لا أحب) وفي غيره (لا أريد) كالأصل .

وله دوبيت (١) :

الجسم^(٢) تذيبه^(٣) حقوق^(٤) الخدمة
والقلب^(٥) عذاب^(٦) علو الهمة
والعمر^(٧) بذالك ينقضي في تعب
والراحة^(٨) ماتت فعليها الرحمة

وقال أيضاً (٦) :

أتعبت نفسك بين ذلة^(٧) كادح طلب الحياة وبين حرص مؤمل^{كامل}

(١) ذكرها الصفدي في كتابه الوافي فقال وبالسند المذكور له أيضاً دوبيت (يعني السند الذي ذكرناه) الجسم تذيبه ... إلخ .

وذكرها أيضاً في الأعيان فقال « أنشدني الشيخ شمس الدين بن نباتة المصري من لفظه قال أنشدنا الشيخ تقي الدين لنفسه » (والجسم ... إلخ) .

وذكرها في الفوات فقال « وقال أيضاً رحمه الله تعالى دوبيت الجسم ... إلخ . وذكرها أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي في كتابه المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي (انظر المرجع السابق) فقال وله أيضاً دوبيت (يعني ابن دقيق العيد) الجسم ... إلخ .

(٢) رواه في الأعيان (والجسم) بزيادة الواو وهي زيادة لا مبرر لها . (٣) في الوافي والمنهل الصافي بلفظ (تذيبه) وفي الفوات والأعيان بلفظ (تذيبه) كالأصل وهو الأصح لأن معنى (تذيبه) تقريبه . وهو معنى يأباه السياق .

(٤) في الأعيان والوافي والمنهل الصافي بلفظ (والنفس هلاكها) وفي الفوات (والقلب عذابه) كالأصل . وهو أصوب إذ ينسجم في معناه مع البيت الثاني الذي يفيد ملازمة التعب للحياة بخلاف رواية (والنفس هلاكها) فإنها تناقضه لأن الهلاك هو الموت .

(٥) في الفوات بلفظ (الرحمة) وفي غيره (الراحة) كالأصل ولعل لفظ الرحمة تصحيف . (٦) ذكر القطعة الصفدي في كتابه أعيان العصر فقال « وأنشدني الشيخ شمس الدين محمد بن محمد بن نباتة المصري ، قال أنشدنا من لفظه لنفسه الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد . أتعبت نفسك ... إلخ .

وذكرها في الوافي فقال « وأنشأني الشيخ شمس الدين محمد بن محمد بن نباتة قال أنشدني الشيخ تقي الدين لنفسه . أتعبت ... إلخ .

ورواها في الفوات فقال . وقال أيضاً رحمه الله وعفا عنه : « أتعبت نفسك ... إلخ » . وأوردها السبكي في طبقاته (انظر ص ٥ من المرجع السابق) فقال . وله (أي ابن دقيق العيد) أتعبت نفسك ... إلخ .

ورواها العلامة الإسنوي في طبقاته فقال : ومنه « أتعبت نفسك ... إلخ .

(٧) رواها صاحب الفوات بلفظ (لذة) ولعله تصحيف .

وَأَضَعْتَ عُمُرَكَ^(١) لَا خَلَاعَةَ مَا جَنَ وَتَرَكْتَ حَظَّ النَّفْسِ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَرَحِمْتَ عَنِ الْجَمِيعِ بِمَعْزِلٍ حَصَلَتْ فِيهِ وَلَا وَقَارَ مُبْتَجِّلٍ

وَقَالَ أَيْضًا^(٢) :

لَعَمْرِي^(٣) لَقَدْ قَاسَيْتُ بِالْفَقْرِ^(٤) شِدَّةَ فَإِنْ بَحْتُ بِالشُّكْوَى هَتَكْتُ مَرُوءَتِي^(٥) وَأَعْظِمُ^(٦) بِهِ مِنْ نَازِلٍ بِمِلْمَةٍ وَقَعْتُ بِهَا فِي حَيَرَةٍ وَشَتَاتٍ طَوِيلٍ وَإِنْ لَمْ أَبْحِ بِالصَّبْرِ خَفْتُ مَمَاتِي يُزِيلُ حَيَاتِي أَوْ يُزِيلُ حَيَاتِي

(١) أوردتها في الفوات والوافي وكذلك طبقات السبكي وطبقات الإسنوي بلفظ (نفسك) وفي الأعيان بلفظ (عمرك) كالأصل . وهو أصوب . إذ لا يعقل التحصيل في النفس وإنما يقال كما في الأصل (حصلت في عمرك كذا . ولا يقال حصلت في نفسك) لعدم تصور الظرفية في النفس في هذا المقام . على أن صدر البيت الثالث ينافية .

(٢) ذكر هذه القطعة ابن فضل الله العمري في كتابه مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (انظر المرجع السابق) فقال . ومنه قوله (يعني من شعر الشيخ تقي الدين) لعمري . . . إلخ . وأوردتها في الوافي فقال : وبالسند المذكور له أيضاً : (أى الذى وضحناء سابقاً) لعمري . . . إلخ ورواها في الأعيان فقال « وأنشدنى الشيخ شمس الدين بن نباتة قال أنشدنى له . ولعمري لقد . . . إلخ » .

وذكرها في الفوات فقال « وقال أيضاً رحمه الله تعالى » لعمري . . . إلخ .

(٣) رواه في الأعيان بلفظ (ولعمري) بزيادة الواو ، وهى زيادة مخلة بالوزن .

(٤) في المسالك بلفظ (للفقر) باللام لا بالباء وفى غيره بالباء كالأصل وهو أصوب

لإفادتها السببية ؛ وإن كانت حروف الجر في لغة المصريين ينوب بعضها عن بعض .

(٥) في مسالك الأبصار بلفظ (مودق) وفى غيره (مرووق) كالأصل ، وهو الصواب .

ولعل رواية المسالك تصحيف إذ لا يتصور الهتك مع المودة .

(٦) في الفوات بلفظ (وأعظم) بالواو وفى غيره بالفاء كالأصل ، وهو أنسب لما في

ذلك من ترتيب وتفريع .

وقال أيضاً (١) :

(١) أورد هذه القطعة الإسنى في طبقاته فقال . وله (يعنى لابن دقيق العيد) كم ليلة فيك . . . إلخ . ولم يزد على الأصل .

ورواها الصفدى في كتابه (الفيث المسجم في شرح لامية العجم ص ١٨٧ الجزء الأول . فقال « كم ليلة فيك . . . إلخ » .

وذكرها في المسالك فقال (وقوله ، كم ليلة . . . إلخ) وزاد بعد الأول بيتاً وهو قوله وكادت الأنفس بما بها تزهق والأبدان منا تصيح

ورواها في أعيان العصر فقال ومن شعر الشيخ تقي الدين رحمه الله ، كم ليلة فيك . . . إلخ . وزاد على الأصل بعد الأول بيتين هما :

قد كلت العيس فسد الهوى واتسع الكرب فضاق الفسيح
وكادت الأنفس بما بها تزهق والأرواح منها تطيح
وأوردها في فوات الوفيات فقال « وقال أيضاً رحمه الله تعالى كم ليلة فيك . . . إلخ . وزاد على الأصل بعد الأول أيضاً البيتين السابقين على هذا النمط .

وكلت العيس وجد السرى واتسع الكرب وضاق الفسيح
وكادت الأنفس بما بها تزهق والأرواح منها تطيح
وذكرها في الوافى فقال وأنشدنى الشيخ فتح الدين إجازة قال أنشدنى لنفسه كم ليلة فيك . . . إلخ . وزاد كذلك بعد الأول البيتين باللفظ الآتى :

قد كلت العيس فجد الهوى واتسع الكرب فضاق الفسيح
وكادت الأنفس بما بها تزهق والأرواح منها تصيح
ورواها في الطالع السعيد ص ٣٣٢ فقال : وأنشدنا أيضاً (يريد الشيخ الفقيه شرف الدين محمد بن محمد المعروف بابن القاسم) قال أنشدنا الشيخ رحمه الله لنفسه قوله كم ليلة فيك . . . إلخ . وزاد أيضاً بعد الأول البيتين على هذا النحو :

قد كلت العيس بجد الهوى واتسع الكرب وضاق الفسيح
وكادت الأنفس بما بها تزهق والأرواح منها تطيح
وذكرها السبكي في طبقاته ج ٦ ص ٥ فقال (وبالسند المذكور يعنى قوله أنشدنا أبو عبد الله الحافظ بقراى عليه ، أنشدنا شيخ الإسلام تقي الدين لنفسه إجازة) كم ليلة فيك . . . إلخ . ولم يزد على الأصل .

وبمقارنة هذه النصوص بعضها إلى بعض نستخلص الصورة الصحيحة التالية لهذه القطعة .

كم ليلة فيك وصلنا السرى	لا نعرف الغمض ولا نستريح
قد كلت العيس فسد الهوى	واتسع الكرب فضاق الفسيح
وكادت الأنفس بما بها	تزهق والأرواح منها تطيح
واختلف الأصحاب ماذا النى	يزيل من شكواهم أو يريح
فقل تعريهم ساعة	وقلت بل ذكراك وهو الصحيح

كم ليلة فيك وصلنا^(١) السري
واختلف الأصحاب^(٢) ماذا الذي
فَقِيلَ^(٥) تعريستهم ساعة
لا نعرف^(٣) الغمض ولا نستريح
يزيل من شكواهم^(٤) أو يربح
وقلت^(٦) بل ذكراك وهو الصحيح

وقال أيضاً^(٧) :

آه من حر الفراق وباحس
لبيت شعري أكان هجرى لمعنى
رقة من خاب بعد ما قد تسمى
عند أهل العقيق ، أم لا معنى ؟

وقال أيضاً^(٨) :

-
- (١) في الطالع بلفظ (وصلت) وهو يأباه السياق .
(٢) في طبقات الإسنوي ومسالك الأبصار بلفظ (لا نعرف النوم) وفي الطالع (لا نرقد الليل) .
(٣) في مسالك الأبصار بلفظ (واختلف الرفقة) .
(٤) في المسالك بلفظ (ترد من أنفسهم أو تريح) .
(٥) في الغيث المسجم (ف قيل لي) .
(٦) في طبقات الإسنوي (فقلت) بالفاء ، وفي الأعيان بلفظ (وقيل بل ذكراك) وهو الصحيح وفي طبقات السبكي بلفظ (وقيل بل ذكراك) .
(٧) لم يذكر هذين البيتين أى من المراجع التي بين أيدينا واعتمدنا عليها في إخراج هذا الديوان .

(٨) أورد هذه القطعة المقرئ في كتابه المقنى فقال « وقال أحبة قلبي . . . إلخ . ورواها في فوات الوفيات فقال « وقال أيضاً سامحه الله أحباب قلبي . . . إلخ . وذكرها في الوافي بالوفيات فقال « وأنشدني بالسند المذكور له أيضاً قال (يعنى قوله أنشدني من لفظه الشيخ فتح الدين محمد بن سيد الناس قال أنشدني شيخنا تقي الدين بن دقيق العيد لنفسه) أحباب قلبي . . . إلخ .

وأوردها في الطالع ص ٣٣٢ فقال « وأنشدني له الشيخ فتح الدين بن سيد الناس وأنشدني ذلك الشيخ أثير الدين أبو حيان قالاً أنشدنا الشيخ تقي الدين لنفسه وأحبة قلبي . . . إلخ . ورواها في الأعيان فقال « وأنشدني شيخنا الحافظ فتح الدين بن سيد الناس قال أنشدني من لفظه الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد « أحباب قلبي . . . إلخ .

أحباب^(١) قلبي والذين بذكرهم
لئن غاب عن عيني بديع جمالكم
فما ضرنا بعد المسافة بيننا
سراثرنا تسرى إليكم فنلتقي

طويل

وتردآدُه طول^(٢) الزمان تعلق
وجاز على الأبدان حكم التفرق
سراثرنا تسرى إليكم فنلتقي

وقال أيضا^(٣) :

الحمد لله كم أسمو^(٤) بعزى في
نيل العلا وقضاء الله ينكسه^(٥)

وذكر صاحب المسالك في وزن هذه القطعة وقافيتها هذين البيتين فقط
نفرت سليمى نفرة لما رأت
قد أبصرت منه عدواً أيضاً
وأغلب الظن أن هذين البيتين هما مطلع هذه القطعة لما ذكرنا من اتحاد الوزن والقافية من
جهة، ولما يكون للقطعة من تمام المعنى بضمهما إليها من جهة أخرى وعليه فيصح أن تروى على
هذا النحو .

نفرت سليمى نفرة لما رأت
قد أبصرت منه عدواً أيضاً
أحباب قلبي والذين بذكرهم
لئن غاب عن عيني بديع جمالكم
فما ضرنا بعد المسافة بيننا
سراثرنا تسرى إليكم فنلتقي

(١) في المقنن والطالع بلفظ (أحبة قلبي) وفي غيرها بلفظ (أحباب قلبي) كالأصل .
(٢) في المقنن والطالع أيضاً بلفظ (في كل وقت تعلق) وفي الوافي بلفظ (ويروى به طول
الزمان تعلق) .

(٣) ذكرها في الأعيان فقال « وأنشدني من لفظه شيخنا فتح الدين قال أنشدني من لفظه
لنفسه » الحمد لله . . . الخ .
وأوردها في مسالك الأبصار . فقال ومن شعره (يعني ابن دقيق العيد) قال « الحمد
لله . . . الخ .

ورواها الصفدي في كتابه الوافي بالوفيات فقال « أنشدني من لفظه الشيخ فتح الدين محمد
ابن سيد الناس قال أنشدني شيخنا تقي الدين بن دقيق العيد لنفسه قال : الحمد لله . . . الخ .
وذكرها ابن شاکر الكتبي في كتابه فوات الوفيات فقال « ومن شعره رحمه الله تعالى الحمد لله
كم . . . الخ .

(٤) في الوافي والفوات بلفظ (أسمى) وفي غيرها أسمو كالأصل .
(٥) وهي هكذا في الأصل بضم الياء من أنكس بزيادة الهزمة وهي زيادة . ليس لها
سند في اللغة . والأصح أن تكون بفتح الياء من (نكس) لا من (أنكس) .

كَأَنِّي^(١) الْبَدْرُ يُبْغِي^(٢) الشَّرْقَ وَالْفَلَكَ الْاُ
أَعْلَى يَعارِضُ^(٣) مِسرَاهُ^(٣) فَيُعَكِّسُهُ

(١) في المسالك بلفظ (كأني النجم) بحذف نون الوقاية .
(٢) في الوافي والقوات (أبغى وفي غيرها يبغى) كالأصل .
(٣) في الوافي والقوات بلفظ (مسراه) وفي غيرهما كالأصل (مسراه) .

الديوان

القسم الثاني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده . أما بعد : فهذا هو القسم الثاني من شعر قاضي القضاة تقي الدين أبي الفتح محمد بن علي ابن وهب المعروف بابن دقيق العيد . وقد جمعنا فيه ما استطعنا الوقوف عليه من شعره مما لم يذكره العلامة صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي فيما اختاره له في مجموعته رحمهما الله جميعاً رحمة واسعة .

هذا وقد جعلناه مرتباً على حروف المعجم ، ولما لم نجد له شعراً في باب الهمزة بدأناه بقافية الباء .

قافية الباء

قال الشيخ تقي الدين محمد بن علي بن وهب بن مطيع بن أبي الطاعة
القشيري الشهير بابن دقيق العيد رحمه الله (١) :

بعض أخلائي صار ميتاً وبعضهم حاضراً ولكن
وبعضهم حاضراً ولكن وصرت بين السورى وحيداً
فلا تَلْمِني على اكتسابي وقال أيضاً رحمه الله (٢) :

أتيتك والآمال تسرى إلى مدى وقد شنع الأعداء أن مطالبي
وما تركوا من حُجَّة أو أتوا بها وقال رحمه الله (٣) :

مقبلٌ مدبرٌ بعيدٌ قريبٌ مُحسنٌ مذنبٌ عدو حبيبٌ
عجبٌ من عجائب البر والبحر ونوعٌ فردٌ وشكلٌ غريبٌ

(١) انفرد برواية هذه القطعة الشيخ تاج الدين السبكي في كتابه طبقات الشافعية الكبرى
الجزء السادس المطبعة الحسينية سنة ١٣٢٤ هـ فقال (انظر ص ١١) وقال « بعض ... إلخ .
(٢) انفرد أيضاً برواية هذه القطعة ابن فضل الله العمري في كتابه مسالك الأبصار في
ممالك الأمصار القسم الثالث من الجزء الثالث (نسخة مصورة تحت رقم ٥٥١ معارف عامة
بفهارس دار الكتب) فقال « ومنه قوله أتيتك والآمال ... إلخ .

(٣) رواها الصفدي في كتابه الوافي بالوفيات مخطوط بقلم معتاد تحت رقم ١٤٨ تاريخ
تيمور بدار الكتب - الجزء الثاني . فقال (انظر ورقة من ٩٥٧ إلى ٩٦٧) ومنه ما نظمته
في بعض الوزراء : مقبل مدبر ... إلخ . ورواها في أعيان العصر وأعوان النصر ج ٦ مجلد
أول من ٨١ - ١٠٢ من الصورة رقم ١٠٩١ بدار الكتب عن الأصل المخطوط المحفوظ بمكتبة

وقال أيضاً غفر الله له (١) :

دَقَقْتَ فِي الْفُطْنَةِ حَتَّى لَقَدْ
وَصَرْتَ فِي أَعْلَى مَقَامَاتِهَا
وَسَارَ (٢) مَا سَيَّرْتَ مِنْ جَوْهَرٍ
ثُمَّ تَنَازَلْتَ إِلَى حَيْثُ لَا
تُثَبِّتُ (٤) مَا تَجَنَّحْدُهُ فِطْرَةً
أَنْتَ دَلِيلٌ لِي عَلَى أَنَّهُ
أَبْدَيْتَ مَا يَسْحَرُ أَوْ يَسْبِي
حَيْثُ يَرَاكَ النَّاسُ كَالشَّهْبِ
حِكْمَةً فِي الشَّرْقِ وَفِي الْغَرْبِ
يَنْزِلُ ذُو فَهْمٍ وَلَا لُبَ (٣)
عَقْلٍ وَلَا تَشْعُرُ بِالْخَطْبِ
يُحَالُ بَيِّنَ السَّمَرِ وَالْقَابِ (٥)

له في هذه القافية بُلَيْقَةٌ أولها (٦) :

كَيْفَ أَقْدَرُ أَتُوبُ وَرَأْسُ أَيْرَى مَثْقُوبُ

عاشر أفندي بالآستانة فقال « ومنه ما نظمه في بعض الوزراء (مقبل مدبر . . . إلخ) .
وذكرها ابن شاکر الکتبی فی کتابه فوات الوفيات ج ٢ ص ٣٠٥ - ٣١٠ طبعة بولاق .
فقال : وقال أيضاً نظماً في بعض الوزراء رحمه الله « مقبل . . . إلخ » .

ورواه الإدقوي في كتابه الطالع السعيد ص ٣٣٣ فقال « وأنشدني شيخنا أفضى القضاة شمس
الدين محمد ابن القماح له . وقال إنه نظمه في بعض الوزراء وهي قوله « مقبل مدبر . . . إلخ » .
(١) رواها الإدقوي في كتابه الطالع السعيد ص ٣٣٣ فقال (وأنشد له ابن عبد الكافي
ونقلت من خطه ووجدته بخط شيخنا تاج الدين ويقال إنه نظم ذلك في ابن الجوزي قوله « دقت . . .
إلخ » .

وذكرها الصفدي في كتابه الوافي فقال « ومنه ، قيل إنه نظمه في ابن الجوزي « دقت . . . إلخ » .
ورواها في كتابه أعيان العصر وأعوان النصر فقال « ومنه ، قيل إنه نظمه في ابن الجوزي
دقت . . . إلخ » .

(٢) هي هكذا في الوافي وفي الأعيان ، أما في الطالع فهي بالصاد فيهما ، ولعله تصحيف
إذ لا يستقيم معه المعنى .

(٣) هي هكذا في الوافي وفي الأعيان ، أما في الطالع فهي بلفظ (ذو لب) وما أثبتناه
هو الأصوب .

(٤) هي هكذا في الطالع والأعيان ، أما في الوافي فبلفظ (هبت) وإثبات التاء أسلم لغة .
(٥) في الوافي بلفظ (وقلبه) وفي الطالع والأعيان بلفظ (والقلب) وهو أصوب لغة ووزناً .
(٦) رواها الإدقوي في كتابه الطالع السعيد ص ٣٢٧ فقال « حكى لي صاحبنا فتح الدين
محمد بن كمال الدين أحمد بن عيسى القليوبي قال ، دخلت عليه مرة وفي يده ورقة ينظر فيها

قافية التاء

قال (١) :

يا عصر شببتي وهوى رأيت ما أسرع ما انقضيت عني ومضيت^{دويبت}
قد كنت ساعدي على كيت وكيت واليوم فلو رأيت حالي لبكيت^{دويبت}
وقال رحمه الله (٢) :

يفنى الزمان ومحنى بك كل يوم في زياده
بالغت في طلبي وصا لك لو تواتني السعاده
تنأى وتدنو دائماً لم ينتظم لي فيك عاده
أفريت عمري في الجها د وأرتجى فيك الشهاده
وقال أيضاً عليه الرحمة (٣) :

من عذيري من معشر هجروا القو ل وحادوا عن طرقه المستقيم^{خفيف}
لا يرون الإنسان قد نال حظاً من صلاح حتى يكون بهيم^{خفيف}

زماناً ثم ناولني الورقة وقال اكتب من هذه نسخة ، فأخذتها فوجدت فيها بليقة أولها كيف . . . إلخ . . .
ورواها العلامة المقرئ في كتابه المقفى فقال « دخل عليه فتح الدين محمد بن أحمد القليوبي
فناولها ورقة وقال له اكتب من هذه نسخة ، فأخذها القليوبي فوجد فيها بليقة أولها « كيف
أقدر . . . إلخ » .

وذكر الصفدي في كتابه الأعيان أن محي الدين بن عمر المظي قال « حكى لي صاحبنا
فتح الدين محمد بن كمال الدين بن أحمد بن غيث القليوبي قال دخلت مرة عليه وفي يده ورقة
ينظر فيها زماناً ، ثم ناولني تلك الورقة وقال اكتب من هذه نسخة فأخذتها فوجدت فيها بليقة
أولها : كيف أقدر . . . إلخ . وتجمع هذه الروايات على أن القليوبي رأى ابن دقيق العيد ينظر
في ورقة ثم دفعها إليه وطلب منه أن ينسخها . وليس في ذلك ما يؤكد أن البليقة المذكورة من إنشاء
الشيخ بل إن نظر الشيخ ابن دقيق العيد في تلك الورقة متأملاً ما فيها يرجح أنها لغيره وإلا لما
تأملها زماناً ، وأغلب الظن أن أحد الظرفاء قنعها إليه يلذعه على سبيل الاستفتاء .

(١) انفرد بروايتها ابن شاعر الكتبي في كتابه فوات الوفيات ، فقال « وقال أيضاً رحمه الله
تعالى « يا عصر . . . إلخ » .

(٢) انفرد السبكي بروايتها في طبقاته ص ١٠ فقال : وقال : ويفنى الزمان . . . إلخ .

(٣) انفرد كذلك السبكي في طبقاته ص ١٢ فقال . وقال « من عذيري . . . إلخ » .

قافية الجيم

لم يرو له أحد في هذه القافية سوى هذه البليقة^(١) التي مطلعها^(٢) :
 جَلَدُ العُمَيْرَةِ بالزجاج ولا الزواج
 ثم يقول بالزجاج يا فقيه ولم يزد أحد على ذلك .

قافية الحاء^(٢)

دقت معاني حسنكم في الملاح . عن نظر الواشي وفهم اللواح^{سريع}
 لله أيام مضت لي بكم بين ربّي نجد وتلك البطاح
 أيامٌ وصلّ نلتُ فيها الذي أهوى وأكثر من الاقتراح
 وقد بقيتُ اليوم من بعدها كطائر قد قصّ منه الجناح
 ما قوتُ من قد طار من وكره ولا على من سلا فاستراح
 أبيتُ أرى من نجوم اللجى أسيرَ ليل ما له من براح
 علمتُ يا ظالمُ بعد الاقّا وقسوة القلب حيالَ الصباح

(١) ذكرها الإدقوى في كتابه الطالع السعيد ص ٣٢٧ فقال « وقال لي شيخنا تاج الدين محمد بن أحمد الدشناوي سمعته ينشد هذه البليقة التي أولها « جلد العميرة . . . إلخ » . وذكرها في الأعيان فقال « وقال (يعني محي الدين بن عمر بن المظلي) قال لي شيخنا تاج الدين محمد بن أحمد الدشناوي سمعته ينشد هذه البليقة التي أولها « جلد العميرة . . . إلخ » . وأوردها في المقتى فقال « وأنشد بليقة أولها « جلد العميرة . . . إلخ » . وذكرها في الوافي فقال « حكاية عن العلامة الإدقوى أنه قال (قال لي شيخنا تاج الدين محمد بن أحمد الدشناوي سمعته ينشد هذه البليقة التي أولها « جلد العميرة » . (٢) انفرد بها السبكي في طبقاته ص ٩ ، ١٠ فقال « وقال (يعني ابن دقيق العيد) دقت معاني . . . إلخ » .

قافية الدال

قال رحمه الله (١) :

الله	در	الفئة	الأجناد
عرفوا	وهم	بالغور	من وادى الغضا
فسروا	لنجد	لا يملون	السرى
لا يقطعون	من المناهل	معلما	
لم يشنهم	طول	الطريق	لهم ولا
سقتهم	من النعاس	جفونهم	
وتكاد	أنفسهم	تغيظ	وتحتبي
نادتهم	النجب	الركائب	عندما
طيب	الحياة	بنجد	إلا أنه
فأجابها	صدق	العزيمة	إنما
لله	درهموا	فقد	وصلوا إلى
ولقد	يعز	على أنهم	غدوا
فلأنهضن	إلى الحمى	بتوجهها	
ولأقطعن	عليه	كل	مفازة

كامل
السالكين مسالك الأفراد
إذ رحلوا لمبارك العباد
أو يظفروا منها بكل مراد
إلا ولاح سواه بالمرصاد
عدم الرفيق ولا نفاذ الزاد
كأسا تملهم على الأعواد
بنسيم نجد أو غناء الحادى
أطت بوقع السوط والإجهاد
من دون ذاك تفتت الأكباد
نحن المعالى أنفس الأجواد
ظل النعيم وبرد حر الصادى
والدار قفر منهمو بيعداد
بين اعتراض عواتق وغواد
تدنى الهلاك ولو عدمت الهادى

(١) انفرد بها تاج الدين عبد الوهاب السبكي في طبقاته ص ٨ فقال « وقال (يعنى ابن دقيق العيد) لله در الفئة الأجناد ... إلخ » .

وقال أيضاً^(١) :

ادأبْ على جمع الفضائل جاهداً وأدمْ لها تَعَبَ القريحة والجسد^{كامل}
واقصد بها وجهه الإله ونفع من بَلَّغَتْهُ وَجَدَّ فيها واجتهد^{كامل}
واترك كلام الحاسدين وبغيهم^{كامل} هملا فبعد الموت ينقطع الحسد^{كامل}

وذكر له أيضاً المقرئ في هذه القافية بيتاً واحداً فقط وهو قوله :
يقولونَ هذا عندنا غيرُ جائر ومن أنتموحتى يكونَ لكمُ عند^(٢)

وله أيضاً رحمه الله^(٣) :

أنكرتني لما ادعيتُ هواها وأصرتُ على العناد بجحود^{خفيف}
قلت إن الدموعَ تشهدُ لي قالتُ صَحِيحٌ لكن قذفتُ الشهودا
وله أيضاً رحمه الله تعالى^(٤) :

في أرض نجد منزلُ الفؤادِ عَمَرَتْهُ شوقي وصدق ودادِ
ما كان أقربُهُ على مَنْ رَامَهُ بِمَسْرَةٍ لولا اعتراضُ عَوادِ
أصبو إليه مع الزمان فكيف لا أصبو وتلك منازلُ وِبادِ
أرض بها الشرفُ الرفيعُ وغاية الـ عز المنيع ومَسْكَنُ الأجوادِ
أوطنتُها فخرجتُ منها عَنَوَةً بمكائد الأعداء والحسادِ

(١) وردت هذه الأبيات في خطبة شرحه المختصر ابن الحاجب (طبقات الشافعية للسبكي ج ٦ ص ١٦) .

(٢) أنشد ابن دقيق العيد هذا البيت في جواب الأمير كرت الحاجب الذي أرسله نائب السلطنة منكوتر لإثبات أخوة رجل لتاجر مات ، كي يحصر فيه الإرث دون سواء . والبيت والقصة المذكورة في المقي للمقرئ (المرجع السابق لوحة ١٦٥ إلى ١٧٢) - رقم ٥٣٧٢ تاريخ

(٣) انفرد بذكرهما صاحب المسالك فقال « وقوله (يعني ابن دقيق العيد) أنكرتني ... »

(٤) لم يرو هذه القطعة إلا السبكي في طبقاته ص ١٢ فقال « في أرض نجد منزل ... إلخ »

حرف الراء

قال رحمه الله تعالى (١) :

جَمَالَكُمْ لَا يُحْضَرُ وَمِثْلُكُمْ لَا يُهَنْجَرُ^{رجز}
 وَجِبَكُمْ بَيْنَ الْحَشَا مَسْتَوْدَعٌ لَا يَظْهَرُ
 نَارِي بِكُمْ لَا تَنْطَفِئُ وَلَوْعَتِي لَا تَفْتَرُ
 إِذَا أَتَى اللَّيْلُ أَتَى الْهَمُّ بِكُمْ وَالْفِكْرُ
 فَإِنْ أَكُنْ وَذَكَرَكُمْ طَابَ وَلَدُ السَّهْرِ
 وَلِي عَذُولٌ فِيكُمْ يَفْلِقُنِي وَيَكْثُرُ
 يَقُولُ لِي تَقِلُّ مِنْ ذِكْرِهِمْ وَتَقْصُرُ
 وَيَحْمِلُ الشُّوقَ الَّذِي حَمَلْتَهُ وَيَصْبِرُ
 وَاللَّهُ مَا أَطِيقُهُ وَهَلْ أَنَا إِلَّا بَشَرُهُ
 وَلَهُ أَيْضًا (٢) :

إذا كنت في نجد وطيب نسيمها تذكرت أهلي بالأسى فمحمجر^(٣)
 وإن^(٤) كنت فيهم ذبت شوقا ولوعة إلى ساكني^(٥) نجد وعيل تصبري
 وقد طال ما بين الفريقين قصتي فن لي بنجد بين أهلي^(٦) ومعشري

(١) لم يرو هذه القطعة إلا السبكي في طبقاته ص ١١ فقال « وقال جمالكم . . . إلخ » .
 (٢) ذكرها في الطالع ص ٣٣١ فقال « وأنشدني الشيخ العلامة ركن الدين محمد بن القويح رحمه الله قال أنشدني الشيخ تقي الدين لنفسه . إذا كنت . . . إلخ .
 وأوردها السبكي في طبقاته ص ١٢ فقال « وقال إذا كنت . . . إلخ » ورواها الفوات فقال « وقال أيضاً سأل الله تعالى » إذا كنت . . . إلخ » .

وأوردها في الوافي فقال ومنه (أى من شعر الشيخ تقي الدين) إذا كنت . . . إلخ .
 وأوردها في المقتى فقال « وقال (يبنى ابن دقيق العيد) إذا كنت . . . »
 (٣) هي هكذا في جميع المراجع المذكورة عدا الطالع فأوردها مع الباء .
 (٤) هي رواية الفوات والوافي ، والمقتى والطالع . أما السبكي فأوردها (بالفاء) .
 (٥) وردت هكذا في جميع المراجع المذكورة والسبكي الذي أوردها (بعل) .
 (٦) كذلك وردت هكذا في المراجع المذكورة إلا في طبقات السبكي فقد وردت بلفظ

(قوى) .

وقال رحمه الله تعالى (١) :

سَرَيْنَا وَلَمْ يُظْهِرْ لَنَا الْغَيْمَ بَارِقًا وَلَا كَوْكَبًا نُهْدَى بِهِ فَنَسِيرُ^{طويل}
فَقَالَ صَحَابِي قَدْ هَلَكْنَا فَقُلْتُ لَا هَلَاكَ عَلَيْنَا وَالْذَّلِيلُ^{طويل} بِصِيرُ^{طويل}
وله أيضاً (٢) :

أَفْكَرَ فِي حَالِي وَقَرَّبَ مَنِيَّ وَسِيرَى حَثِيثًا فِي مَصِيرِي إِلَى الْقَبْرِ^{طويل}
فِينَشِي^{طويل} لِي فِكْرِي سَحَابَ الْأَسَى^{طويل} (٣) تَسِيحُ هُمُومًا دُونَهَا وَابِلُ الْقَطْرِ^{طويل}
إِلَى اللَّهِ أَشْكُو مِنْ وَجُودِي فَإِنِّي تَعَبْتُ بِهِ مَذْكَرْتُ فِي مَبْدَأِ^{طويل} الْعَمْرِ^{طويل}
تَرُوحُ^{طويل} (٥) وَتَغْدُو لِلْمَنَايَا فَجَائِعُ^{طويل} تَكْدُرُهُ وَالْمَوْتُ خَاتِمَةُ الْأَمْرِ^{طويل}
وقال رحمه الله (٦) :

(١) لم يورد هذه القطعة سوى صاحب الطالع السعيد ص ٣٣٤ إذ قال « وأنشدني الفقيه
الفاضل جمال الدين محمد بن هارون القنائي وشيخنا أثير الدين قالاً أنشدني الشيخ تقي الدين
(أبو الفتح) لنفسه قوله سربنا . . . إلخ .

(٢) ذكرها في الأعيان فقال ونقلت أنا من خطه لنفسه رحمه الله تعالى أفكر في . . .
وأوردها في الوافي فقال « ونقلت من خط الشيخ تقي الدين ما أثبتته لنفسه أفكر في حالي . . . إلخ » .
ورواها في الفوات فقال « وقال أيضاً رحمه الله تعالى أفكر في حالي . . . إلخ » .
(٣) هي في الأعيان بلفظ (الأسى) بحرف اللام الجارة وفي غيره كما أثبتنا هو الأنسب .
(٤) هي هكذا في جميع الروايات وفي الفوات بلفظ (مبتدا) .
(٥) في فوات الوفيات بلفظ (روح وتغزو والمنايا فجائع) بالنون في الفعلين وحذف
اللام الجارة في كلمة (المنايا) . وفي غيره كما أثبتنا . وهو الصحيح إذ أن الشاعر يتحدث عن
نفسه وحده لا عنه وعن غيره معاً كما هي رواية الفوات .

(٦) هذه القطعة رواها في الأعيان وهي أبيات من قصيدة بلغت خمسة عشر بيتاً قالها
يرد على قصيدة بعث بها إليه (ناصر الدين حسين بن النقيب الفقيهي لما قدم الديار المصرية
سنة أربع وتسعين وستمائة ٦٩٤هـ) فنها قوله

أنت كالشافعي إذ حل مصراً فهو فيها علم وإن فات عصراً (خفيف)
وقد رأيناه مذ قلتم علينا وسمعناه بعد ما حل حبراً
وارتضيناك مالكا وإماماً فامض فينا الأحكام نهياً وأمرأً
وهي من قصيدة بلغت ثلاثين . وقال الصفدي أنه ذكر القصيدتين كاملتين في الجزء التاسع والعشرين
من كتابه التذكرة . ولم نعثر على هذا الجزء .

قد تأملتُ ما بَعَثَتْ به لا زلتَ تُهْدَى لمن يواليكَ بَيراً
فرأيتُ الجمالَ كُملَّ والإج مآلَ فاستجمعا وسمى شعراً
وتنزهت في رياض بديع من صنيع البيان أطلعنَ زهرا
يا أميرا حتى على النظم والنث ر لقد زدت في الإمارة قدرا

حرف الزاي

قال رحمه الله (١) :

تجاوزت حدَّ الأكثرينَ إلى العلا وسافرتُ واستبقيتُهُمْ في المعاوز
ونخضت بحارا ليس يُعَرَّفُ قدرها وألقيتُ نفسي في فسيح المفاوز
ولحجتُ في الأفكار ثم تراجع اختي اري إلى استحسان دين العجائز

حرف السين

قال رحمه الله تعالى (٢) :

قد جرحتنا يدُ^(٣) أيا مينا وليس غيرُ الله من أس سريع
فلا تُرجُ الخلقَ في حاجة ليسوا بأهل لسوى الياس
ولا تُزدُ شكوى إليهم فلا معني لشكواك إلى قاس

(١) انفراد بروايتها الأعيان فقال : « وقال ناصر الدين شافع من شعر الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد قوله : تجاوزت حد . . . إلخ . »

(٢) أوردتها في الطالع فقال (ورقة ٣٣١) أنشدنا شيخنا أثير الدين محمد أبو حيان أبقاه الله تعالى في عافية . قال أنشدني الشيخ الحافظ تقي الدين أبو الفتح محمد القشيري لنفسه قوله قد جرحتنا . . . إلخ . وذكرها السبكي في طبقاته فقال (ص ١١ المرجع السابق) وقال قد جرحتنا إلخ ورواها في الوافي فقال ومنه قد جرحتنا . . . إلخ . وذكرها في فوات الوفيات فقال : « وقال أيضاً رحمه الله تعالى قد جرحتنا . . . إلخ » . وأوردتها في الأعيان فقال : « ومنه قد جرحتنا . . . إلخ . »

(٣) هي هكذا في جميع الروايات وذكرها السبكي في طبقاته بلفظ (خرجتنا) .

(٤) في جميع الروايات كما أثبتنا بلفظ (تزد) وفي طبقات السبكي بلفظ (ترد) وما أثبتناه

أولى .

ولا تقس^(١) بالعقل^(٢) أفعالهم^(٣)
 وإن^(٤) تخالط منهمو معشرا
 يأكل بعضهم لحم بعض ولا
 لا ورع^(٥) في الدين يحميهمو
 لا يعدم^(٦) الآتي إلى بابهم^(٧)
 فاهرب من الناس إلى ربهم^(٨)
 ما مذهب القوم بمنقاس
 هويت في الدين^(٩) على الرأس
 يتحسب في الغيبة من باس
 عنها ولا حشمة جلاس
 من ذلة الكلب سوى الخاس^(١٠)
 لا خير في الخلطة بالناس^(١١)

حرف الشين

قال رحمه الله^(١٢):

خفيف

يا شبابي أفسدت صالح ديني يا مشبي نغصت طيب عيشي
 فعدوان أنما لا صديقا ن تلاعبنا بحلمي وطيشي

-
- (١) أورد هذا البيت السبكي فقط دون غيره .
 (٢) هي في الأعيان والوافي وللغات هكذا . وفي الطالع (فإن تخالط) بالفاء . وفي طبقات السبكي بلفظ (وإن تجالس) .
 (٣) هي هكذا في جميع الروايات وفي طبقات السبكي بلفظ (الذنب) .
 (٤) هي هكذا في الطالع السعيد وأعيان العصر . وأما في قوات الوفيات فذكرها بلفظ (لا يخاف في الغيبة) . وفي طبقات السبكي بلفظ (لا يخشى) . والوافي بلفظ (لا تحسب) .
 (٥) هي هكذا في جميع الروايات وانفرد السبكي في طبقاته بلفظ (لا رغبة في الدين تحميم) .
 (٦) لم يذكر هذا البيت صاحب القوات ، وجعله السبكي الخامس في القطعة .
 (٧) رواه السبكي بلفظ (لا يعدم الآتي لأحوالهم من ذلك الكلب سوى الخامس) وفي الأعيان بلفظ (بقوى الخامس) وفي الطالع والوافي ما أثبتناه .
 (٨) هي هكذا في جميع الروايات . وفي الوافي بلفظ (في الناس) .
 (٩) انفرد بروايتها في الأعيان فقال « ومنه يا شبابي . . . إلخ » .

حرف الضاد

قال عليه الرحمة^(١) :

كامل

يا معرضاً عني ولست بمعرض
أتعبتني بخلائق^(٤) لك لم تفد^(٥)
بل^(٢) ناقض عهدي ولست^(٣) بناقض
فيها وقد جمحت^(٦) رياضة رائض
فتشنع^(٧) الأعداء أنك رافضي^(٨)

وله أيضاً في هذه القافية^(٩) :

(١) أوردتها في الطالع السعيد ص ٣٣٣ فقال : « وأنشد عنه القاضي الفقيه المحدث تاج الدين عبد الغفار عبد الكافي السعدى ، ونقلت من خطه قال : « أنشدني لنفسه قوله يا معرضاً عني . . . إلخ . وذكرها في المقنى فقال : « وقال (يعنى ابن دقيق العيد) يا معرضاً عني . . . إلخ . . . وأوردتها في الفوات فقال : « وقال أيضاً رحمه الله تعالى : « يا معرضاً عني . . . إلخ . . . ورواها في الوافى فقال : « ومن شعر الشيخ تقي الدين قدس الله روحه يا معرضاً عني . . . إلخ » وذكرها في الأعيان فقال : « ومن شعره يا معرضاً عني . . . إلخ » .
(٢) هي هكذا بالنصب في جميع الروايات ، وفي الوافى بلفظ (ناقض) بالرفع وكتلتها صحيح ، والأنسب النصب على أنلى عطف نسق على المنادى قبله (معرضاً) .
(٣) هي هكذا في جميع الروايات وفي الفوات بلفظ (وليس) ولعله تحريف .
(٤) في الأعيان والوافى بلفظ (فخلائق لك) وفي غيرها كما أثبتناه .
(٥) هي في المقنى والطالع والأعيان هكذا ، وفي الفوات والوافى بلفظ (لم يفد) والأنسب ما أثبتناه .

(٦) في الوافى بلفظ (جمعت) بالعين وفي غيره كما أثبتناه .
(٧) هي هكذا في الطالع والفوات والمقنى ، وفي الأعيان بالواو (وتشنع) وانفرد الوافى بتذكير الفعل تابع (يشنع) وجميعها جائز .
(٨) في الطالع والفوات بذكر الياء للنسب وفي المقنى والوافى بحذفها ، ولعله تصحيف إذ لا يجوز حذف ياء النسب .

(٩) رواها السبكي في طبقاته ج ٦ ص ٥ فقال وله (يعنى الشيخ تقي الدين) قالوا فلان إلخ . . . وأوردتها في الوافى فقال : « وبالسند المذكور له أيضاً يعنى قوله أنشدني من لفظه الشيخ فتح الدين محمد بن سيد الناس قال أنشدني شيخنا تقي الدين بن دقيق العيد لنفسه) قالوا . . . إلخ » .
وأوردتها في أعيان العصر فقال : « وبالسند المذكور له أيضاً (يعنى المذكور آنفاً) قالوا . . . إلخ » .
وأوردتها في طبقاته فقال : « ومنه (أى من شعر الشيخ تقي الدين) فقالوا . . . إلخ » .

قالوا فلان عالم فاضل^(١) فأكرموه مثلما يرتضي سريع
فقلت لما^(٢) لم يكن ذا تقى تعارض المانع والمقتضى

حرف العين

قال رحمه الله فيما ينبغي للعلماء اتباعه وعليهم اجتنابه^(٣):

يقولون لي هلا نهضت إلى العلا
وهلا شددت العيس حتى تحلّ لها
ففيها من الأعيان من فيض كفه
وفيهما قضاة ليس يخفى عليهمو
وفيهما شيوخ الدين والفضل والألى
وفيهما وفيها والمهانة^(٦) ذلة
فقلت نعم أسعى إذا شئت أن أرى
وأسعى إذا ما لذ لي طول موقى
وأسعى إذا كان النفاق طريقى
فما لذّ غيش الصابر المتقنع
بمصر إلى ظل الجنب المرفّع^(٤)
إذا شاء روى سيّله كل بلقع
تعين^(٥) كون العلم غير مضيع
يشير إليهم بالعلا كل أصبغ
فقم واسع واقصد باب رزقك واقرع
ذليلاً^(٧) مهاناً مستخفاً^(٨) بموضعى
على باب محجوب اللقاء مُمْنَع
أروح وأغدو في ثياب التصنع

(١) هي هكذا في طبقات الأسنوى وطبقات السبكي وخالفوا في ، أما في الأعيان بلفظ (فاضل عالم) بتقديم فاضل .

(٢) في الواقع بلفظ (أما لم يمكن) وفي غيره كما أثبتنا وهو أصوب .

(٣) روى هذه القصيدة الشيخ تاج الدين عبد الوهاب السبكي في كتابه (معبد النعم ومبيد النقم ص ٧٠) فقال في معرض حديثه عن العلماء وما ينبغي لهم أن يأتوه أو يجتنبوه أثر قصيدة للقاضي الجرجاني في هذا المعنى . فقال « وقد نحا شيخ الإسلام تقي الدين ابن دقيق العيد رحمه الله تعالى نحو هذه الأبيات فقال « يقولون . . . إلخ » .

ورواها أيضاً في كتابه الطبقات فقال (ج ٦ ص ٩) وقال يقولون . . . إلخ » .

(٤) لم يرد هذا البيت في الطبقات .

(٥) في الطبقات (يتقن) وما أثبتناه أولى .

(٦) في الطبقات بلفظ (المهابة) بالباء وهو تصحيف لعدم استقامة المعنى .

(٧) في الطبقات (دليلاً) وهو تصحيف .

(٨) في الطبقات بلفظ (مستحقاً لموضعى) والصواب ما أثبتناه ولعله تصحيف .

وأسعى إذا لم يبق في بقية
فكم^(١) بين أرباب الصدور مجالس^(٢)
وكم بين أرباب العلوم وأهلها
مناظرة^(٣) تحمي النفوس فتنتهي
إلى^(٤) السفه المزرى بمنصب أهله
فاما توخى مسلك الدين والنهي^(٥)
أراعى بها حق التقى والتورع
تشب^(٦) بها نار الغضا بين أضلعي
إذا بحثوا في المشكلات بمجمع^(٧)
وقد شرعوا فيها إلى شر مشرع
أو الصمت عن حق هناك مضيع
ولما تلقى غصة المتجرع

حرف الكاف

قال رحمه الله تعالى^(١) :

يا بديع الحسن ما أح
فيك سر سحر الش
ما فهمنا عنك إلا
أنا أرجو أو أخشى
فما فيك من اللط
لا تدع هجرك لي
لي بقلبي خطراتك^{رمل}
باب في استحسان ذاتك
أنه في لحظاتك
سطوة من سطواتك^{رمل}
ف ومن حسن صفاتك^{رمل}
تلف رحي بحياتك^{رمل}

- (١) هي بالواو في الطبقات والفاء أظهر .
(٢) بالجر على أنه تمييز لكم الخبرية ، خلافا لرواية النصب في معبد النعم ، ولأن كم الاستفهامية لا يأتي تمييزها إلا مفرداً فقط .
(٣) هي في الطبقات (يشب لها) وما أثبتناه أولى لافادة الباء السببية .
(٤) في معبد النعم بلفظ (تجمع) ولعله تصحيف .
(٥) في الطبقات بلفظ (مناظره يحمي النفوس فينتهي) وهو تصحيف لصراحة الضمير في (شرعوا فيها) .
(٦) في الطبقات بلفظ (من) وهي لا تتمشى مع ما أثبتناه .
(٧) في معبد النعم بلفظ (التقى) وما أثبتناه أظهر لافادة التقاير .
(٨) لم يذكر أحد في هذه القافية شيئاً سوى السبكي فقد روى له في كتابه الطبقات هذه المقطوعات الثلاث (ج ٦ ص ١٠) فقال « وقال يا بديع الحسن . . . إلخ » .
(٩) هكذا أوردهما في الطبقات ، على أنهما قطعتان مختلفتان وأغلب الظن أنهما من قصيدة واحدة اختارهما السبكي منها . وذلك لاتحادهما في الغرض والقافية والوزن .

وقال أيضاً رحمه تعالى (١) :

بالذى استعبد أرو	اح المحبين لذاتك ^{ربل}
وبلطف من معانيك	يُرى من حركاتك
وبنور الحسن إذ يح	ويك من كل جهاتك
وبسر فوق ما يُد	رك من حُسن صفاتك
لا تُدقنى الموت فى	صدك عنى بحياتك

وقال رحمه الله تعالى (٢) :

طال عهدي برؤية الروض فابعث	لى روحاً قد نَمَقْتَه يمينُك ^{خفيف}
أنت خدن العلا فلا ذاق يوماً	مر طعم الفراق منك خدينُك
قلت للمقسم المؤكد للأد	مان أن ليس فى البلاد قرينُك
قلت صدقاً وجئت حقاً فلو قد	ت وكافى الدنيا لبرّت يمينُك

حرف اللام

قال رحمة الله عليه (٣) :

لا تُلِينْ الدهرَ أمرَ الورى	واقنع من الرزق ببعض النوال ^{سريع}
لو لم يكن فى الحشر فيه سوى	طول وقوف المرء عند السؤال
لكان أمرا مؤلّا محزناً	يلهيك عن أهل وجاه ومال

(١) رواها السبكي فى طبقاته (ج ٦ ص ١٠) .

(٢) أوردتها الأذفوى فى كتابه الطالع السعيد (ص ٣٣٥ - ٣٣٦) فقال « وكان يقول

والله ما خارا لله لمن يلى بالقضاء . وأخبرنى الشيخ شمس الدين بن عدلان أنه قال له ذلك مرة . » وقال « يا فقيه لو لم يكن إلا طول الوقوف للسؤال والحساب لكفى . وفى هذا المعنى نظمت إذا شعراً لا تلين الدهر . . . إلخ . »

وروى له الإسنوي^(١) في هذه القافية هذا البيت : متقارب
وأطيب شيء إذا ذقته رضاب الحبيب على ما يقال

اللام مع الألف

قال رحمه الله تعالى^(٢) :

سحابُ فكري لا يزال هامياً وليل همي لا أراه راحلاً
قد أتعبتني همتي وفطنتي^(٣) فليتني كنت مهيناً جاهلاً

وقال رحمه الله^(٤) :

ألا أن بنت الكرم أغلى مهرها فيا خسر من أضحي لذلك باذلاً
تزوجُ بالعقل المكرم عاجلاً وبالنار والغسلين والمهمل آجلاً

وقال أيضاً^(٥) :

سر فكني بفيض دمي سلاً وأحاديث صبوتي فيك تبلى
أكثر العاذلون فيك ولكن لم يجد عظم بقلبي محلاً
وقفت همتي عليك وقوفاً ليس تبغى سواك في الناس خلاً

(١) ذكره الأسنوي في طبقاته فقال « منه (أى من شعر الشيخ تقي الدين) وأطيب شيء . . . »
(٢) ذكرها في الوافي فقال « ونقلت منه (أى من خط الشيخ تقي الدين) له أيضاً « سحاب وأوردها في فوات الوفيات فقال « وله أيضاً رحمه الله تعالى سحاب فكري . . . إلخ » .
ورواها في الأعيان فقال « ونقلت له من خطه أيضاً سحاب فكري . . . إلخ » .
وذكرها في المنهل الصافي فقال : « وله أيضاً سحاب فكري . . . إلخ » .
(٣) هي هكذا في الأعيان والمنهل الصافي وفوات الوفيات وفي الوافي بلفظ (فكرتي) والأظهر ما أثبتناه .

(٤) انفرد بها السبكي في طبقاته (ج ٦ ص ١١) فقال أى ابن دقيق « ألا إن . . . »
(٥) كذلك انفرد بهذه القطعة السبكي في طبقاته (ج ٦ ص ١٠) فقال « سر فكني . . . »

غبت عنى فغاب أنسى ورشلى وأردت البعاد فازددت دلا
إن صبرى يلتقى الشدائد لكن حين لاقى جمالك الفرد ولى

اللام مع الياء

قال رحمه الله تعالى (١) :

خفيف

دمع عيني على الغرام دليلى وسبيل السلو غير سبيلي
لا تخافى على من كثر عدلى ليس لى التفاتة لعدولى
كلما لاح بارق ذبت شوقاً نحو نجد وهاج منى عليلى
وترددت بين وجد جديد فوق وجدى وبين خد أسيل

حرف الميم

قال رحمه الله تعالى (٢) :

خفيف

نزّهونا عن استماع الملام ما لنا قرعة غير الغرام
ليس فى الوقت وصلة لحديث عن سوى رامة وأهل الخيام
يا خليلي دعا صباً قريحاً ليس إسماف مثله بحرام
لست أقوى على النهوض بنفسى لأري برق أرضهم من قيام
وقال رحمه الله (٣) :

(١) انفرد بها السبكي فى طبقاته (ج ٦ ص ٩) فقال : « وقال ، دمع عيني . . . إلخ . »
(٢) كذلك انفرد بروايتها تاج الدين السبكي فى طبقاته (ج ٦ ص ٩) . فقال « وقال تزّهونا
عن . . . إلخ . »

(٣) أوردتها الأسنوى فى طبقاته (فقال ومنه من أبيات أهل المناصب . . . إلخ) . ورواها فى
المسالك أهل المناصب . . . إلخ . ورواها الطالع السعيد ص ٣٣٢ فقال وأنشدنى الشيخ الفقيه
شرف الدين محمد بن محمد المعروف بابن القاسمى أنشدنى شيخنا تقي الدين القشيري لنفسه قوله أهل
المناصب . . . إلخ .

وذكرها فى معيد النعم فقال « أنشدنى أبوعبد الله الحافظ إجازة عن شيخ الإسلام أبي الفتح ابن
دقيق العبد أنه أنشد لنفسه أهل المناصب . . . إلخ . »

أهل المناصب^(١) في الدنيا ورفعتهما
 قد أنزلونا^(٢) لأنا غير جنسهم
 فما لهم في توقي ضميرنا^(٣) نظر
 فليتنا لو قدرنا أن نعرفهم
 لهم مريحان من جهل^(٥) وفرط غنى
 أهل الفضائل مردولون بينهم^{بسيط}
 منازل الوحش في الإهمال عندهم
 وما لهم^(٤) في ترقى قدرنا همهم
 مقدارهم عندنا أو لو دروه همهم
 وعندنا المتعبان العليم والعديم
 وقال رحمه الله^(٦) :

ومستعبد قلب^(٧) المحب وطرفه
 بسطان حُسن لا يَنازعُ في الحكم^{طويل}

وأوردها في الطبقات ج ٦ ص ٦ فقال « ومن شعر الشيخ بما لا رواية لي به بالسماع أهل المناصب . . . إلخ » .

(١) في المسالك بلفظ وأهل المراتب وفي غيره ما أثبتناه .
 (٢) أسقط الأسنوي الثاني والثالث . فكما جعل صاحب المسالك البيت الثاني ثالثاً والثالث ثانياً .

(٣) هي هكذا في جميع النسخ المذكورة . وفي المسالك وطبقات السبكي بلفظ (صيرنا) .
 (٤) في المسالك ومعبد النعم بلفظ (ولا لهم) وفي غيرها كما أثبتنا .
 (٥) في المسالك بلفظ (وفضل عني) وهو تحريف والأصوب ما أثبتناه كما في جميع النسخ .
 هذا وقد ناقضه في هذه القطعة الفتح الثقفي المقتول لما نسب إليه من الزنقة بأبيات حسنة منها :

أين المراتب في الدنيا ورفعتهما من الذي حاز علماً ليس عندهم
 لا شك ان لنا قدراً رأوه وما لقدروهم عندنا قدر ولا لهم
 هم الوحوش ونحن الأنس حكمتنا تقودهم حيث ما شئنا وهم نعم
 وليس شيء سوى الإهمال يقطعنا عنهم فإنهم وجدانهم عدم
 لنا المريحات من علم ومن علم وفيهم المتعبان الجهل والحشم

(٦) رواها في الطالع السعيد ص ٣٣١ فقال (يعني أثير الدين محمد أبو حيان) وأنشدنا لنفسه قوله ومستعبد قلب . . . إلخ . وذكرها في الوافي فقال ومنه « ومستعبد . . . إلخ . وأوردها في المقتنى فقال ومنه (أي من شعر الشيخ تقي الدين) .

(٧) هي هكذا في الطالع والمقتنى . وفي الوافي بلفظ (قلت) بالتاء ولعله تصحيف .

متين^(١) التي عف الضمير عن الحنا
 يناولبني مسواكه فأظنه^(٢) دقيق^(٣) حواشي الطرف والحس^(٤) والفهم^(٥)
 تحيل في رشي الرضاب بلا إثم

حرف النون

طويل

قال رحمه الله تعالى^(٥) :

تجادل^(٦) أرباب الفضائل إذ رأوا
 وقالوا عرضناها فلم نلف طالباً
 ولم يبق إلا رفضها وإطراحها^(٧)
 بضاعتهم موكوسة^(٨) الحظ في الثمن
 ولا من له في مثلها^(٩) نظر حسن
 فقلت لهم لا تعجلوا السوق باليمن

(١) أسقط هذا البيت في المقتى .

(٢) هي هكذا في الوافي وفي الطالع بلفظ (رقيق حواشي) بالراء وما أثبتناه أصوب إذ لا تناسب الرقة (الفهم) في عجز البيت .

(٣) في الوافي بلفظ (الحسن) بالسین والنون . وفي الطالع بالسین فقط . وهو ما أثبتناه ، وهو أولى لأن الدقة إنما يوصف بها الحس .

(٤) هي في الطالع هكذا وفي المقتى والوافي بلفظ (تخيل) بالخاء المعجمة . وما أثبتناه أولى وأصوب لسلامة المعنى معه .

(٥) روى هذه القطعة في الأعيان فقال « وقال كمال الدين الإدفوي حكى لي القاضي شهاب الدين بن الكويك التاجر الكارمي رحمه الله تعالى قال اجتمعت به مرة واحدة فرأيت في ضرورة فقلت يا سيدنا ما تكتب ورقة لصاحب اليمن أكتبها وأنا أقضي فيها الشغل فكتب ورقة لطيفة فيها تجادل . . . إلخ .

وأودها في المقتى فقال « وكتب إلى صاحب اليمن يستجديه تخاذل أرباب . . . إلخ » . ورواها في الوافي فقال كمال الدين جعفر الأدفوي حكى لي القاضي شهاب الدين بن الكويك التاجر الكارمي رحمه الله قال . اجتمعت به مرة فرأيت في ضرورة فقلت يا سيدنا ما تكتب ورقة لصاحب اليمن . اكتبها وأنا أقضي فيها الشغل فكتب ورقة لطيفة فيها تجادل أرباب . . . إلخ » .

وذكرها في الطالع فقال « وحكى القاضي شهاب الدين بن الكويك التاجر الكارمي رحمه الله قال اجتمعت به مرة فرأيت في ضرورة . فقلت يا سيدنا ما تكتب ورقة لصاحب اليمن اكتبها وأنا أقضي فيها الشغل ، فكتب ورقة لطيفة فيها هذه الأبيات تجادل أرباب . . . إلخ » .

(٦) في المقتى بلفظ (تخاذل) وفي جميع الروايات كما أثبتناه وهو أولى .

(٧) هي هكذا في المقتى والطالع وفي الأعيان والوافي (موكوسة) بالتاء ولعله تحريف .

(٨) في الأعيان بلفظ (ولا من له فيها) وجميع الروايات كما أثبتنا . وهو أولى لسلامة الوزن معه .

(٩) في الوافي بلفظ (ضرحها) وفي غيره كما ذكرنا وهو أصوب .

وقال غفر الله له^(١) :

وأودَّعكم وأودَّعكم حياتي وأنثر دمعتي نثر الجمان^{وافر}
وقلبي لا يريد لكم فراقا ولكن هكذا حكم الزمان

حرف الهاء

قال رحمه الله تعالى^(٢) :

وقائلة مات الكرام فمن لنا إذا عضنا الدهر الشديد بناييه^{طويل}
فقلت^(٣) لها من كان غاية قصده سؤالا لمخلوق فليس بناييه
لئن مات من يرجي فمعطيهم^(٤) الذي يرجونه باق فلوذي^(٥) ببايه

الهاء مع الألف

قال رحمه الله تعالى^(٥) :

لقد بَعُدَتْ ليلي وعز وصالها كما عز بين العالمين مثالها^{طويل}
فمن لي بنوق لا تزال تمدّها قواها ولا يدنو إلى كلالها
ولكنها جسم يذوب وصبره يحول وأرواح يخاف زوالها

(١) ذكرها ابن فضل الله العمري في ممالك الأبصار في مسالك الأمصار (المرجع السابق) فقال وقوله أودعكم . . . إلخ .

(٢) أوردتها في الطالع ص ٣٣١ وأنشدني (بني أثير الدين محمد أبو حيان) أيضاً بما أنشده له لنفسه قوله « وقائلة مات . . . إلخ » . وذكرها في المنهل الصافي فقال وله أيضاً . . . إلخ » . ورواها في الأعيان فقال ومن شعره رحمه الله وقائلة . . . إلخ .

ورواها المقرئ في المفتي عن فتح الدين بن سيد الناس ، إذ قال وأنشد له وقائلة مات . . . وأوردتها في الوافي فقال « ومن شعره أيضاً وقائلة مات . . . إلخ » .

(٣) أسقط في الوافي هذا البيت .

(٤) هي هكذا في جميع الروايات وفي الطالع بلفظ (فلوذوا بنايه) وهو تصحيف .

(٥) انفرد بها السبكي في طبقاته ج ٦ ص ١١ فقال « وقال (يعني الشيخ تقي الدين لقد

بعدت . . . إلخ » .

لعمري لقد كلفتها في مسيرها
وتسألني رفقا بها وبضعفها
وللعيش آمالٌ بليلى تعلقت
يقرب لي وصلها حسن لطفها
وإني لأرضى اليوم بعد تشوقي
فبادر إلى نجد ولُذْ بنسيمها
وفاح نسيم الروض حتى تعطرت
وغنت لك الأطيّار من كل جانب
فلا تبخلى أن ترسلي لي نسمة
فيا حبذا برق في أراضى مسرة
عقدت على حبي لذكرك عقدة

بلوغ مدى قد قلّ فيه احتمالها
ولو خفّ من شوقي أجبت سؤالها
أخاف المنايا قبل كوني أنا لها
وبيعدها استغناؤها ودلالها
إلى أن أراها أن يزور خيالها
وبرد جناها ثم طيب ظلالها
رباك بريّاه ورقُ جمالها
فأطرب أهل الحى منها مآلها
تُبيلٌ عليك الشوق منى بلاها
وتفحة ريح من هناك انتقالها
عسير على مر الزمان انحلالها

مصادر البحث

١ - المخطوطة

- ١ - الأبوصيرى - لامية البوصيرى - نسخة مخطوطة بقلم معتاد بدار الكتب المصرية - رقم ١٢٤٤ علم الكلام .
- ٢ - ابن تغرى بردى (أبو المحاسن يوسف) - المنهل الصافى - نسخة بقلم معتاد بدار الكتب المصرية - رقم ١١١٣ تاريخ ٣ مجلدات .
- ٣ - ابن حجر العسقلانى - رفع الإصر - نسخة مخطوطة بقلم معتاد بدار الكتب المصرية - رقم ١٠٥ تاريخ . مجلد واحد .
- ٤ - ابن دقماق - الجواهر الثمين - نسخة مخطوطة بقلم معتاد بدار الكتب المصرية - رقم ١٥٢٢ تاريخ - نسخة ضمن مجموعة .
- ٥ - نزهة الأنام - نسخة فى مجلدين بدار الكتب المصرية رقم ١٧٤٠ (تصوير شمسى) .
- ٦ - ابن دانيال الموصلى - طيف الخيال - نسخة مخطوطة (خط قديم) بدار الكتب المصرية رقم ١٦ ألعاب تيمور .
- ٧ - ابن سبط الجوزى - كتاب مرآة الزمان - فى تاريخ الأعيان - بالتصوير الشمسى بدار الكتب المصرية رقم ٥٥١ تاريخ .
- ٨ - ابن شاكركى - عيون التواريخ - نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ١٤٩٧ تاريخ .
- ٩ - ابن فضل الله العمرى - مسالك الأبصار - نسخة مصورة بدار الكتب المصرية رقم ٥٥٩ معارف عامة - الموجود منه أربعة عشر جزءاً فى اثنين وأربعين مجلداً .

- ١٠ - إبراهيم بن وصيف شاه المصرى - جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور نسخة محفوظة بدار الكتب المصرية رقم ٢٢٥٥ تاريخ وهى مأخوذة بالتصوير الشمسى عن الأصل المحفوظ بالمتحف البريطانى .
- ١١ - أحمد بن إدريس القرافى - العقد المنظوم فى الخصوص والعموم - نسخة مخطوطة بقلم معتاد بدار الكتب المصرية رقم (١ ش) .
- ١٢ - جلال الدين السيوطى - جزيل المواهب فى اختلاف المذاهب - نسخة بدار الكتب المصرية رقم ٣٥ مجاميع .
- ١٣ - حسن بن عمار الشرنبالى - العقد الفريد ببيان الراجح من الخلاف فى التقليد . نسخة بقلم معتاد بدار الكتب المصرية رقم ٥٧٠ مصطلح .
- ١٤ - شمس الدين الذهبى - تاريخ الإسلام - نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٤٢ تاريخ .
- ١٥ - الصلاح الصفدى - الوافى بالوفيات - مخطوطة بقلم معتاد - بدار الكتب المصرية رقم ٩٤٨ تاريخ تيمور - الموجود منه ثلاثة أجزاء فى مجلدين .
- ١٦ - أعيان العصر وأعوان النصر - نسخة مصورة عن الأصل المخطوط بقلم معتاد بمكتبة عشرى أفندى بالآستانة . والمصورة بدار الكتب رقم ١٠٩١ تاريخ فى ستة مجلدات .
- ١٧ - عبد الرحيم بن الحسن بن على بن عمر الإسنى - طبقات الشافعية - نسخة مخطوطة بقلم معتاد بدار الكتب المصرية رقم ٢٨١ تاريخ تيمور فى مجلد .
- ١٨ - العبرى - رحلة العبرى - صورة فوتوغرافية بدار الكتب المصرية رقم ٢٢١٨ تاريخ تيمور .

١٩ - العيني - عقد الجمان - نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ .

٢٠ - عياض (القاضي - ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام . بخط مغربي بدار الكتب المصرية رقم ٢٢٩٣ تاريخ . نسخة في مجلدين .

٢١ - محمد الحسيني الدمشقي - الاعتبار في ذكر التواريخ والأخبار وهو المعروف بتاريخ الحسيني - نسخة مخطوطة ضمن مجموعة بدار الكتب المصرية رقم ١١ م .

٢٢ - محمد بن علي بن وهب بن دقيق العيد - رسالة في شأن أهل الذمة - مخطوطة ضمن مجموعة بالخط المغربي بدار الكتب المصرية رقم ١٣٧ مجاميع تيمور .

٢٣ - المقرئ (تقي الدين أحمد بن علي) - المقفى - نسخة مصورة عن النسخة المخطوطة بقلم المؤلف بمكتبة باريس . والصورة بدار الكتب المصرية رقم ٥٣٧٢ تاريخ في مجلدين .

٢٤ - ياقوت الحموي - المقتضب من كتاب جمهرة النسب - نسخة مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية رقم ٢٧٨٥ تاريخ .

ب - المطبوع

- ٢٥ - ابن الأثير - الكامل في التاريخ - مطبعة بريل بمدينة ليدن سنة ١٨٥٣ م في اثني عشر مجلداً .
- ٢٦ - اللباب في تهذيب الأنساب - القاهرة . مطبعة السعادة سنة ١٣٥٧ هـ في مجلدين .
- ٢٧ - ابن الحاج - المدخل - القاهرة . المطبعة المصرية ١٣٤٨ هـ
- ٢٨ - ابن حجر - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة - طبع الهند ١٩٣٩ م في أربعة مجلدات .
- ٢٩ - ابن دقماق (إبراهيم بن محمد بن أيدمر) - الانتصار لواسطة عقد الأمصار القاهرة - مطبعة بولاق سنة ١٣٠٩ هـ في خمسة أجزاء في أربعة مجلدات .
- ٣٠ - ابن شاكر الكتبي - فوات الوفيات - القاهرة - مطبعة بولاق سنة ١٢٨٣ هـ في مجلدين .
- ٣١ - ابن كثير - البداية والنهاية في التاريخ - القاهرة . مطبعة السعادة سنة ١٣٥٨ هـ في أربعة عشر جزءاً .
- ٣٢ - ابن إياس - بدائع الزهور في وقائع الدهور - القاهرة . المطبعة الأميرية سنة ١٣١١ في مجلدين .
- ٣٣ - أبو الفداء - كتاب المختصر - الآستانة - دار الطباعة سنة ١٢٨٦ هـ أربعة أجزاء .
- ٣٤ - أبو المحاسن (يوسف ابن تغرى بردى) - النجوم الزاهرة في ملوك مصر القاهرة - مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٥٧ هـ في ١١ مجلداً .
- ٣٥ - الإدقوى - الطالع السعيد - القاهرة . مطبعة الجمالية سنة ١٣٣٣ هـ

- ٣٦ — أمين باشا سامى — تقويم النيل — القاهرة . مطبعة دار الكتب ١٩٣٦ .
- ٣٧ — تاج الدين عبد الوهاب بن على السبكى — معيد النعم ومبيد النقم — القاهرة . مطبعة دار الكتاب العربى ١٣٦٧ هـ مجلد واحد .
- ٣٨ — جمع الجوامع — القاهرة . مطبعة مصر ١٣٠٤ هـ .
- ٣٩ — جلال الدين السيوطى — حسن المحاضرة — القاهرة . مطبعة إدارة الوطن سنة ١٢٩٩ هـ — جزءان .
- ٤٠ — تاريخ الخلفاء — القاهرة . المطبعة المنيرية سنة ١٣٥١ هـ .
- ٤١ — جمال الدين المعروف بابن مطروح — ديوان ابن مطروح — الآستانة مطبعة الجوائب سنة ١٢٩٨ هـ .
- ٤٢ — خليل بن أيبك الصفدى — الفيت المسجم شرح لامية العجم — الإسكندرية . مطبعة إدارة الوطن ١٢٩٠ هـ فى مجلدين .
- ٤٣ — الوافى بالوفيات — إستانبول — مطبعة الدولة سنة ١٩٣١ . الجزء الأول .
- ٤٤ — شمس الدين الذهبى — تذكرة الحفاظ — طبع حيدر آباد سنة ١٣٣٣ هـ فى خمسة أجزاء .
- ٤٥ — صنى الدين الحلى — العاقل الحالى والمرخص الغالى — طبع ألمانيا سنة ١٩٥٥ م .
- ٤٦ — عبد الحى بن العماد الحنبلى — شذرات الذهب فى أخبار من ذهب القاهرة . مكتبة القدسى ١٣٥٠ هـ — ٨ أجزاء .
- ٤٧ — عبد الوهاب بن على السبكى — طبقات الشافعية الكبرى — القاهرة . المطبعة الحسينية سنة ١٣٢٤ هـ فى ستة أجزاء .
- ٣٨ — عبد الرحمن بن خلدون — العبر وديوان — المبتدا والخبر . القاهرة — مطبعة بولاق سنة ١٢٨٤ هـ ٨ مجلدات .
- ٣٩ — عبد الرحمن بن إسماعيل — الروضتين فى أخبار الدولتين — القاهرة .

- مطبعة وادى النيل سنة ١٢٨٧ هـ ، جزآن .
- ٤٠ - عز الدين بن عمر الوردى - تنمة المختصر فى أخبار البشر - القاهرة .
المطبعة الوهبية سنة ١٢٨٥ هـ فى مجلدين .
- ٤١ - القلقشندى - صبح الأعشى فى صناعة الإنشا - القاهرة . مطبعة بولاق
سنة ١٩١٣ - ١٩١٩ فى أربعة عشر جزءاً .
- ٤٢ - محمد بن وهب بن دقيق العيد - إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام .
القاهرة . مطبعة السنة المحمدية سنة ١٣٧٢ هـ فى مجلدين .
- ٤٣ - محمد كامل حسين (الدكتور) - دراسات فى الشعر فى العصر الأيوبي
القاهرة - دار الفكر العربى ١٩٥٨ .
- ٤٤ - فى أدب مصر الفاطمية - القاهرة . دار الفكر العربى سنة ١٩٥٠ .
- ٤٥ - محمد بن عبد الرحيم بن الفرات - تاريخ مصر . بيروت . المطبعة
الأمريكانية سنة ١٩٣٩ - المجلد السابع والثامن والتاسع .
- ٤٥ - محمد بن أحمد المشهور بابن جبير - رحلة ابن جبير . ليدن ١٨٥٣ م .
- ٤٦ - محمد بن محمد مخلوف - شجرة النور الزكية . القاهرة . المطبعة السلفية
سنة ١٣٤٩ هـ .
- ٤٧ - المقرئى (تقي الدين أحمد بن على) - السلوك فى معرفة دول الملوك
القاهرة . مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٦ . جزآن فى
ستة مجلدات .
- ٤٨ - إغاثة الأمة بكشف الغمة - شركة الطباعة بحمص سنة ١٩٥٦ .
- ٤٩ - الخطط - القاهرة . مطبعة بولاق فى ثلاثة أجزاء سنة ١٢٧٠ هـ .
- ٥٠ - ياقوت الحموى - معجم الأدباء - مطبعة دار المأمون سنة ١٣٥٧ هـ
فى ٢٠ جزءاً .

فهرست

صفحة	
٥	الإهداء
٧	تقديم
١١	الفصل الأول
١١	عصر ابن دقيق العيد
١١	الجانب السياسى
١٥	أوائل عصر المماليك
١٨	مكانة مصر وعلاقاتها الخارجية
٢١	الجانب الاقتصادى
٢٥	الجانب الاجتماعى
٢٧	الطبقات الاجتماعية
٢٩	القضاء
٣٧	الحياة الدينية
٤٠	أخلاق أهل هذا العصر
٤٣	الجانب الثقافى
٤٣	عوامل رقى الحياة الفكرية
٤٥	نشأة المدارس فى مصر ونظامها
٤٨	بعض شيوخ هذا العصر ومؤلفاتهم والوجهة الثقافية العامة
٥٨	الحركة الأدبية
٦١	الفصل الثانى
٦١	نسبه
٦٣	مولده

صفحة	
٦٥	حياته بوجه عام
٦٩	المرحلة الثانية من حياته
٧٢	ابن دقيق العيد في القضاء
٩٠	وفاته
٩٢	الفصل الثالث
٩٢	ابن دقيق العيد — العالم الفقيه
١٠٩	الفصل الرابع
١٠٩	الشاعر الأديب
١٢٥	مقدمة الديوان
١٣٠	ترجمة العلامة الصفدى
١٣٥	القسم الأول من الديوان
١٦٣	القسم الثانى من الديوان
١٨٧	مصادر البحث
١٨٧	المخطوطة
١٩٠	المطبوعة

ابن دقيق العيد

يجلو هذا الكتاب ناحية بارزة من نواحي « ابن دقيق العيد » ألا وهي شعره الذى ظل مغموراً فلم يكن يعرف العلماء والأدباء عن هذا الشاعر المجيد إلا أنه قاضٍ من قضاة مصر المرموقين . ومهمة هذه الدراسة التعريف به وبمدرسته الشعرية وبمختلف المجالات التى نظم فيها والتي يتضح منها أن شعره كان صورة صادقة لأحداث عصره والظروف المحيطة به . وموضوع الكتاب فى جملة قسيمان : أحدهما يختص بشعر ابن دقيق العيد وبالكشف عن طاقته الشعرية ومنزلته الأدبية . أما الثانى فهو خاص بتفهم حياته فى مختلف أطوارها وفى دراسة العصر الذى كان يعيش فيه من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والأدبية .

مكتبة الدراسات الأدبية

● صدر منها

- | | |
|---|------------------------------|
| ١ - مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية | للدكتور فاضل الدين الأسد |
| ٢ - شعراء الرابطة التعليمية | للأنسة نادرة جميل سراج |
| ٣ - شوق شاعر العصر الحديث | للدكتور شوق ضيف |
| ٤ - الأدب العربى المعاصر فى مصر | للدكتور شوق ضيف |
| ٥ - فارس بنى عبس | للأستاذ حسن عبد الله القرشى |
| ٦ - ألف ليلة وليلة | للدكتورة سهير القلماوى |
| ٧ - خليل مطران شاعر الأقطار العربية | للدكتور جمال الدين الرمادى |
| ٨ - الشعراء والصعاليك فى العصر الجاهلى | للدكتور يوسف خليف |
| ٩ - منهج الزمخشري فى تفسير القرآن | للأستاذ مسطوق الصاوى الجوينى |
| ١٠ - التطور والتجديد فى الشعر الأموى | للدكتور شوق ضيف |
| ١١ - دراسات فى الشعر العربى المعاصر | للدكتور شوق ضيف |
| ١٢ - شوق وشعره الإسلامى | للدكتور ماهر حسن فهمى |
| ١٣ - حافظ إبراهيم شاعر النيل | للدكتور عبد الحميد الجندى |
| ١٤ - أدب المهجر | للأستاذ عيسى الناعورى |
| ١٥ - الأدب العربى المعاصر فى سوريا | للأستاذ سامى الكيالى |
| ١٦ - الأدب اليونانى القديم | للدكتور على عبد الواحد وافى |
| ١٧ - النابغة الذبياني | للدكتور محمد زكى العشماوى |
| ١٨ - ابن دقيق العيد | للأستاذ على صافى حسين |

● يصدر قريباً

- | | |
|------------------------------|-----------------|
| الفن ومذاهبه فى النثر العربى | للدكتور شوق ضيف |
| الفن ومذاهبه فى الشعر العربى | للدكتور شوق ضيف |

دار المعارف للطباعة والنشر والتوزيع

Bibliotheca Alexandrina

0417652